الشعر العربى فى صقلية

فى القرن الخامس الهجرى

دكتور
فوزى عيسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

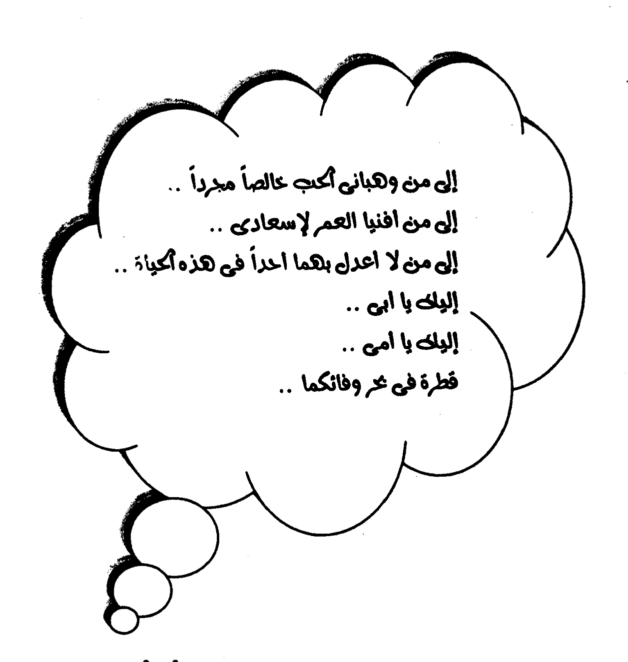
الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية



الشعر العربى فى صقلية

فى القرن الخامس الهجرى


إلى من وهبانى الحب خالصاً مجرداً ..
إلى من افنيا العمر لإسعادى ..
إلى من لا اعدل بهما احداً فى هذه الحياة ..
إليك يا ابى ..
إليك يا امى ..
قطرة فى بحر وفائكما ..

د. فوزى عيسى

بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة

وصل العرب بفتوحاتهم إلى صقلية، تلك الجزيرة النائية ذات الطبيعة الساحرة، والموقع الجغرافى الممتاز، ففتحوها، ونشروا فيها لغتهم ودينهم، وحملوا إليها مشاعل الحضارة، وأنوار المدنية، وتراث المعرفة، وما لبثت تلك الجزيرة أن تمثلت الحضارة العربية، واستوعبت التراث الإسلامى، واستطاعت بعد وقت قصير أن تخرج أجيالا من العلماء والأدباء والشعراء الذين قد لا يقلون مكانة عن أضرابهم من المشارقة، كما استطاعت أن تصبح قطباً من أقطاب الحركة الأدبية فى المغرب العربى، بل أن تكون حلقة اتصال هامة بين العرب وأوربا.

وعلى الرغم من أهمية هذه البيئة من الناحية الأدبية فإنها تعد أقل البيئات حظاً من عناية الدارسين والباحثين، ولم تظفر حتى الآن بدراسة علمية منهجية تؤرخ للشعر والشعراء فيها، وتضعها فى مكانها المناسب بين البيئات الأدبية الأخرى. ومن هنا رغبت فى دراسة الشعر الصقلى، وحاولت أن أكشف النقاب عن خصائصه وسماته، وأن أبرز بعض جوانب الطرافة والجدة فيه.

وآثرت أن أحدد موضوع البحث بالقرن الخامس الهجرى وذلك لعدة أسباب منها أن الشعر الصقلى لم ينضج وتتضح سماته وملامحه إلا فى تلك الفترة، ومنها أيضاً أن أشهر شعراء صقلية أمثال ابن حمديس وابن الخياط وأبى العرب وابن الطوبى والبلنوبى وابن القطاع قد عاشوا فى هذا القرن.

وكانت أولى خطوات البحث هى جمع مادة كافية من الشعر تصلح للدرس والبحث، وكانت الخطوة الثانية هى تنقية هذه المادة، واختيار النصوص التى تمثل تلك الفترة وكان ذلك أمرًا صعبًا لأن أصحاب المصادر ومؤرخى الأدب لم يهتموا بتراجم الشعراء الصقليين إلا فى القليل النادر، ومع

ذلك حاولت أن أتغلب على هذه الصعوبة بقدر المستطاع بالاعتماد على قصائد الشعراء المشهورين الذين عاشوا فى هذا القرن، ثم بالاعتماد على ما ورد من إشارات قليلة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان ينتسب لتلك الفترة.

وبعد أن تمكنت من جمع مادة شعرية مناسبة من المصادر الخطية والمطبوعة كانت الخطوة التالية هى قراءة هذه النصوص قراءة متأنية دقيقة لاستخلاص النتائج والأحكام منها.

وقد اعتمدت فى جمع الشعر على مصادر خطية كثيرة مثل مختصر الدرة، وديوان البلنوبى، ومعجم السفر للسلفى، و الذخيرة لابن بسام، والمغرب فى حل المغرب لابن سعيد.

واعتمدت من المصادر المطبوعة على (جريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهانى بطبعتيها المصرية والتونسية، بالإضافة إلى ديوان ابن حمديس وبعض المصادر الأخرى مثل "عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، للنيفر و"المحمدون من الشعراء" و"أنباه الرواه على أنباه النحاه" للقفطى وغيرها مما سنشير إليه أثناء البحث.

وللإلمام بتاريخ صقلية اعتمدت على بعض المصادر التاريخية مثل الكامل لابن الأثير و"البيان المغرب" لابن عذارى المراكشى وغيرهما.

أما عن المصادر الحديثة، فقد رجعت إلى ما كتبه المستشرق الإيطالى ميشيل أمارى عن صقلية فى كتابيه (المكتبة العربية الصقلية) و (تاريخ مسلمى صقلية) باللغة الإيطالية.

وتقتضى الأمانة العلمية أن أنوه بالجهد الذى بذله الدكتور احسان عباس فى كتابه (العرب فى صقلية) وإن كنت أرى أن دراسته للشعر كانت غير وافية، فقد اهتم بتاريخ صقلية أكثر من اهتمامه بأدبها.

وقد تيسر لى الحصول على ثلاثة كتب عن صقلية، أولها بعنوان (تاريخ الأدب العربى فى صقلية) للمستشرق الإيطالى أمبرتو ريزيتانو ولكن عنوانه لا يدل على محتواه، فهو عبارة عن بعض المحاضرات فى تاريخ صقلية، ويبدو فيه تأثره الواضح بإحسان عباس. أما الكتاب الثانى فهو (المسلمون فى صقلية) للمستشرق الإيطالى مارتينو ماريو وهو يسير على نسق الكتاب الأول. أما الكتاب الثالث فهو (المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا) لأحمد توفيق المدنى، ولكن هذا العنوان البراق يخفى وراءه حقيقة مؤلمة، إذ أن الكتاب كله عبارة عن نقل وتلخيص لما كتبه المؤرخون القدماء أمثال ابن الأثير وابن خلدون ولا يظهر فيه أى أثر لشخصية مؤلفه أو منهجه.

وهكذا يتضح لنا أنّ أياً من هؤلاء الباحثين لم يعن بدراسة الشعر الصقلى دراسة علية منهجية مما يؤكد أهمية البحث فيه، والعناية به.

وقد ارتأيت أن أقسم هذا البحث إلى ثلاثة أبواب تشتمل على تسعة فصول. ويختص الباب الأول بالأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى ويشتمل على ثلاثة فصول. تناولت فى الفصل الأول الحياة السياسة فى صقلية منذ أن فتحها المسلمون سنة ٢١٢هـ على يد أسد بن الفرات فى عهد زيادة الله ابن الأغلب والى إفريقية، وتحدثت عن تبعيتها للدولة الفاطمية فى مصر، ثم عرضت لفترة الخلافات والفتن التى أدت إلى تقسيم صقلية إلى خمس إمارات وما استتبع ذلك من أحداث وفتن أدت فى نهاية الأمر إلى سقوط صقلية فى يد النورمان فى نهاية القرن الخامس الهجرى.

وخصصت الفصل الثانى لأحوال صقلية الاجتماعية، فعرضت لعناصر المجتمع الصقلى وتباين سكانه وتوزعهم بين مسلمين ومسيحيين، ثم تحدثت عن تسامح المسلمين فى معاملتهم للذميين، وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن

ملامح الشخصية الصقلية، والعوامل التى أسهمت فى تكوينها كالبيئة والظروف السياسية والاقتصادية، وختمت هذا الفصل بالحديث عن الأحوال الاقتصادية والعمرانية ومبلغ إسهام المسلمين فى تقدم هذه الأحوال وازدهارها.

وخصصت الفصل الثالث للاتجاهات الفكرية فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى، فعرضت للحركة العلمية وانتشار المساجد ودور العلم، وركزت بصفة خاصة على العلوم اللغوية والفقهية وكذلك العلوم العقلية والطبيعية وغيرهما من ملامح الحياة الثقافية.

أما الباب الثانى فقد خصصته للشعر الصقلى ويشتمل على أربعة فصول:

تحدثت فى الفصل الأول عن المؤثرات العامة فى الشعر الصقلى، فعرضت للتأثير المشرقى، وناقشت أسبابه وبواعثه وبعض مظاهره وآثاره ثم تحدثت عن أوجه الشبه بين الشعر الصقلى والقيروانى من جهة ثم الشعر الأندلسى من جهة أخرى مناقشا بعض آراء الباحثين فى هذا المجال.

وتحدثت فى الفصل الثانى من هذا الباب عن الطابع العام للشعر الصقلى، فعرضت لأثر البيئة بالصقلية فى الشعر، ووجدت أن أثرها ينحصر فى بعض المظاهر مثل شعر الحرب والفروسية، وشعر البحر، وشعر الطبيعة ثم عرضت للمجتمع الصقلى كما يصوره الشعر، فتحدثت عن الغناء والموسيقى والرقص والخمريات والشعر الاجتماعى وشعر الزهد. ثم عرضت لسقوط صقلية وأثره فى الشعر كما بدا فى نزعة الحنين إلى الوطن والقصائد الصقليات التى قيلت فى مأساة صقلية .

وتحدثت فى الفصل الثالث عن موضوعات الشعر التى احتفظت بطابعها التقليدى كالغزل والمدح والرثاء وغيرها.

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن السمات الفنية للشعر الصقلي، فتحدثت عن لغة هذا الشعر وأسلوبه وصوره الفنية وأوزانه وقوافيه.

أما الباب الثالث فقد خصصته للحديث عن الشعراء وقسمته فصلين يختص أحدهما بالشعراء الذين وفدوا على صقلية من الأقاليم الأخرى أمثال ابن رشيق القيرواني والحلواني وابن السوسي وغيرهم.

ويختص الفصل الثاني بالحديث عن الشعراء الصقليين المشهورين أمثال ابن حمديس وابن الطوبي وابن الخياط والبلنوبي وغيرهم. وركزت بصفة خاصة على ابن حمديس باعتباره أعظم شعراء صقلية، ولوجود ديوان كامل الشعره. أما الشعراء الآخرون فقد بخلت علينا المصادر بما يلقي الضوء على حياتهم ولم تحتفظ إلا بقدر ضئيل من أشعارهم، وعلى الرغم من هذا فقد حاولت قدر المستطاع أن أعرف بهم وأترجم لهم وأوضح ملامحهم وشخصياتهم الأدبية.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها وذيلت البحث بثبت بأهم المصادر والمراجع المخطوط منها والمطبوع.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أقدمت عليه، وأن تكون هذه الدراسة قد أكملت حلقة من الحلقات الناقصة في تاريخ أدبنا العربي، وأحيت صفحة طيبة ثرية من صفحات تراثنا الأدبي



الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية فى صقلية

فى القرن الخامس الهجرى

الفصل الأول : الأحوال السياسية

الفصل الثانى : الأحوال الاجتماعية

الفصل الثالث : الاتجاهات الفكرية



الحياة السياسية فى صقلية

- فتح صقلية
- خضوع الجزيرة للفاطميين
- الفتنة الأخيرة وسقوط صقلية



تمهيد

مرت الحياة السياسية فى صقلية أثناء الفتح الإسلامى بثلاث فترات رئيسية هى :

أولاً : فترة الفتوحات ، وتبدأ هذه الفترة لعام الفتح ٢١٢ هـ وتمتد حتى عام سقوط دولة الأغالبة ٢٩٧هـ .

ثانياً : فترة خضوع الجزيرة للفاطميين الذين أسسوا دولتهم فى شمال أفريقية سنة ٢٩٧هـ على أنقاض دولة الأغالبة .

ثالثاً : فترة الفتنة التى ظهرت بوادرها بالجزيرة عندما استقل كل حاكم بولاية من الولايات، وقد فتحت هذه الفتنة أبواب الجزيرة للنورمان .

والتأريخ للحياة السياسية فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى يبدأ على وجه التحديد فى ولاية الأمير أبى الفتوح يوسف بن عبدالله الملقب بثقة الدولة أحد أمراء أسرة الكلبيين الذين تولوا حكم صقلية من قبل الفاطميين، ويمتد بعد ذلك حتى نهاية الحكم الإسلامى فى الجزيرة سنة ٤٨٤هـ.

ومن العسير أن نفهم الحياة السياسية حق الفهم إذا اقتصرنا على تلك الفترة الزمنية التى تشمل القرن الخامس الهجرى دون أن نلم إلماماً سريعاً ببعض التطورات السياسية التى سبقت تلك الفترة التى يرتبط بها موضوع البحث ومن ثم فسوف نتحدث بإيجاز عن الأحوال السياسية فى صقلية منذ أن فتحها المسلمون سنة ٢١٢هـ على يد أسد بن الفرات فى عهد زيادة الله الأغلبى والى إفريقية حتى سقوطها فى يد النورمان سنة ٤٨٤هـ. وسنركز بصفة خاصة على الأحوال السياسية التى مرت بها صقلية فى القرن الخامس الهجرى.

الحياة السياسية فى صقلية

كان فتح صقلية سنة ٢١٢هـ خاتمة المطاف لمحاولات كثيرة قام بها المسلمون. ويتفق المؤرخون القدماء على أن معاوية بن حديج الكندى كان أول من غزا صقلية[١] وقد أرسل معاوية بن أبى سفيان هذه الحملة البحرية من سواحل لبنان وكان حينئذ والى الشام من قبل الخليفة عثمان بن عفان. ويعلل أحد المؤرخين حماية معاوية هذه بأنه كان يريد توسيع رقعة الخلافة، ولعله كان مدفوعاً بمنافسته لوالى مصر عبدالله بن سعد الذى حظى عند عثمان بما أصاب من نصر فى أفريقية[٢].

ويذكر د. مارتينو ماريو أنه قد ورد ذكر هذه الحملة فى الكتاب البابوى **Liber Pontificalis** ورسائل الباب مارتين، ويرى أنه لم يكن يقصد بها إلا النهب والسبى[٣].

وتتابعت بعد ذلك غزوات المسلمين على صقلية، فغزاها بشر بن صفوان عامل أفريقية سنة ١١٩هـ وأصاب بها سبياً كثيرًا ثم رجع عن غزاته إلى القيروان[٤].

وكانت كلما رسخت أقدام المسلمين فى أفريقية ازدادت الجزيرة تعرضا لغاراتهم خصوصاً وأنها كانت قاعدة للبيزنطيين المحاولين لاسترجاع أفريقية، وملجأ للنصارى الفارين من وجه المغيرين[٥]. ومن ثم فقد اكتسب فتح صقلية أهمية خاصة فى نظر المسلمين، فأعد موسى بن نصير حمله لغزو صقلية عرفت

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب ١/ ٤٨ (ط. بيروت).

(٢) فازيلييف : العرب والروم – ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ط. دار الفكر العربى – القاهرة – ص٦٢.

(٣) د. مارتينو ماريو : المسلمون فى صقلية – ص٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥/ ١٤٦.

(٥) المسلمون فى صقلية ص ٦– ٧.

بغزوة الأشراف ولكنه لم ينجح فى فتحها وقفل بأسطوله إلى البلاد الأفريقية[1]. ولم تكن هذه الغزوة أولى غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية كما يزعم الأستاذ أحمد توفيق المدنى[2]، بل سبقتها غزوات أخرى على نحو ما ذكرنا آنفاً .

وكان أخطر هذه المحاولات غزوة حبيب بن أبى عبيدة سنة ١٢٢هـ، قد سيره عبيد الله بن الحبحاب غازيًا إلى جزيرة صقلية، فنزل بأرضها وضرب حصارا على مدينة سرقوسة وهى من أعظم مدن صقلية، وعزم على القيام بصقلية إلى أن يملكها جميعاً[3]، وكان من الممكن أن تكون نتائج هذه الحملة ذات خطر، لولا استدعاء حبيب بن أبى عبيدة لمقاومة ثورة البرابرة فى أفريقية[4]، وشغل المسلمون بالحوادث فى أفريقية، فعدلوا مؤقتاً عن فكرة فتح صقلية.

ويحاول بعض الباحثين أن يقلل من شأن هذه الغزوات، فيرى د.أمبرتو ريزيتانو أنها "كانت غزوات آنية، وقد شجع العرب على القيام بها تغلغلهم فى أفريقية والمغرب أيام معاوية وعبدالله بن مروان، كما شجعهم ما كانت عليه الامبراطورية الرومانية الشرقية أو بالأحرى الامبراطورية البيزنطية من الانحلال والانحطاط وقتئذ"[5].

---

(١) أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص٥٣ .

(٢) المصدر نفسه - ص٥٣ .

(٣) الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤٨/١ .

(٤) أشار صاحب الإستقصا إلى تلك الثورة فقال : "كان عمر بن عبيدالله فى هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة فى برابرة المغرب الأقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم، وزعم أنه الفيء، فنفرت قلوب البربر عنه، وأحسوا بأنهم طعمة للعرب، وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب، جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية.. فأجمعوا الانتفاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب ابن أبى عبيدة إلى صقلية فجرأهم ذلك على مرادهم".
أنظر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - ٤٨/١.

(٥) تاريخ الأدب العربى فى صقلية - ص٣٣ .

ويقول د. إحسان عباس[1]: "والحق أن تلك الغزوات أضافت إلى خزينة الدولة شيئا من المال، ولكنها كانت إحدى العقبات فى سبيل الفتح حين جاء أوانه، لأنها نبهت الروم إلى مدى الأطماع فى نفوس العرب الفاتحين، وجعلتهم يتخذون من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية".

وربما كان هذا الرأى الأخير صحيحاً إلى حد بعيد، فأغلب الظن أن أباطرة بيزنطة أدركوا أهداف السياسة العربية هذه بالنسبة لامبراطوريتهم مما دفعهم إلى بذل قصارى جهودهم لحماية الأجزاء الغربية منها لدرجة أن بعضهم مثل الامبراطور قسطنطين الثانى اضطر إلى ترك عاصمته القسطنطينية والإقامة فى روما وصقلية كى يعمل على تقوية وسائل الدفاع عن الأجزاء الغربية من امبراطوريته، وصد الزحف الإسلامى الذى يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته[2]. ولقد ظل هنا الامبراطور يعمل على مقاومة الخطر العربى إلى أن أغتاله أحد قواده فى مدينة سرقوسة[3].

ولكن هذه الاستعدادات لم تصرف المسلمين عن الاهتمام بفتح صقلية. وعلى أية حال، فقد أثبتت تلك الإغارات المتكررة التى قام بها المسلمون مدى إدراكهم لخطورة قاعدة الروم البحرية فى جزيرة صقلية وضرورة انتزاعها من قبضة الروم[4].

وظل المسلمون يتحينون الفرصة الملائمة لفتح صقلية حتى حدث ما شجعهم على ذلك، فقد نشب نزاع بين امبراطور الروم - ميخائيل الثانى - وبين والى صقلية يوفيميوس - أو فيملى كما تسميه المصادر العربية - وعندما علم

---

(١) العرب فى صقلية - ص٣٢.

(٢) الأمويون والبيزنطيون (البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية - ص٢٠١ - ٢٠٢).

(٣) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص٥.

(٤) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط - ص٧٧.

يوفيميوس أن الوالى أصدر أمراً بالقبض عليه فر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقى، وأرسل يلتمس المعونة من حاكم أفريقية زيادة الله الأول الأغلبى (٢٠١ - ٢٢٣هـ).

وقد اختلفت المصادر الأجنبية والعربية فى أسباب ذلك النزاع الذى نشب بين امبراطور الروم وبين يوفيميوس، ويقول فازيلييف إن ذلك السبب مذكور فى المراجع الرومية واللاتينية ولكنه يحمل لونا من ظل الخيال[١]، إذ يقال إن يوفيميوس أحب راهبة اسمها هومونيزا Hegumenissa ولكن الوالى العام اغتصبها منه على ما يقول أحد المراجع الإيطالية - فذهب يستعين بالقيروان عليه[٢]. ويقال فى رواية أخرى إنه غرر بإحدى الراهبات وأخرجها من الدير وتزوجها قسرا، فقرر الامبراطور معاقبته، وفى الحال التجأ إلى المسلمين فى أفريقية وحرضهم على غزو الجزيرة[٣]. ولكن آمارى يرى أن هذه الجريمة إنما افترتها عليه السلطة البيزنطية العليا توسلا لإبعاد قائد أهلى كثير المطامع لا تأتمنه[٤].

أما المؤرخ فازيلييف فيقول:[٥] "ومن الواضح أن سبب ثورة يوفيميوس ليس زواجه الروائى، فإنا ندرك أن السياسة كانت العامل الأول فى هذه المسألة فقد اغتنم يوفيميوس ثورة توماس ونصر المسلمين فى كريت فقام بالثورة وكان يعد لها من غير شك.. فلما علم ميشيل بنيته أمر بالقبض عليه".

وأياً كانت تلك الأسباب فقد قرر زيادة الله أن يعرض دعوة يوفيميوس على أعيان القيروان لمناقشتها خاصة وأن الأغالبة كانوا قد هادنوا منذ سنوات

---

(١) العرب والروم - ص٦٦.
(٢) المسلمون فى صقلية ص٧.
(٣) المسلمون فى صقلية ص٧.
(٤) نقلا عن المصدر السابق ص٧.
(٥) العرب والروم - ص٧٠.

سادة صقلية لاولم تكن مدة الهدنة قد انقضت، ولهذا السبب كاد طلب يوفيميوس يقابل بالرفض لولا أن احتج القاضى أسد بن الفرات بقول الله عز وجل: "ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، وقال أسد: "فكذلك لا نتماسك به ونحن الأعلون"[1].

وعلى هذا الأساس اتخذ زيادة الله قراره بغزو صقلية، وعهد بقيادة الجيش إلى أسد بن الفرات وأقلع الأسطول من مدينة سوسة فى النصف من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ وخرج أسد فى موكب كبير، وخرج معه وجوه أهل العلم والناس يشيعونه بعد أن أمر زيادة الله ألا يبقى أحد من رجاله إلا شيعه[2]. وسار الجيش العربى يحمل نحو عشرة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس، وكان مكونًا من أشراف أفريقية من العرب والجند ومن البربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر[3]. وبذلك بدأ الغزو الحقيقى لجزيرة صقلية على حد تعبير د.إبراهيم العدوى"[4].

ألقى الأسطول العربى مرساه عند مازر، وكان لإيفيميوس بها أنصار؛ ويبدو أن أسداً كان لا يثق ثقة كاملة فى صدق معونة يوفيميوس، فقرر أن يستقل بعملياته الحربية، وأمره ومن معه أنه يعتزلوهم[5].

وتقدم أسد نحو سرقوسة وحاصرها، وضيق المسلمون عليها الحصار، معتمدين على بعض الأمداد من أفريقية[6]. ولكن أسطولا للروم خف لنجدة تلك المدينة وجعل الحصار العربى مهمة شاقة، وكادت تلك الحملة تفشل لولا أسطول أندلسى ساقه الله من الأندلس إلى جزيرة صقلية ثم وصلت مراكب كثيرة

---

(١) رياض النفوس – المكتبة الصقلية – ص١٨٢ – ١٨٣ .
(٢) تاريخ قضاة الأندلس – ص٥٤ .
(٣) البيان المغرب فى أخبار المغرب ١٣٢/١.
(٤) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط – ص٧٨ .
(٥) الكامل فى التاريخ ٦/ ٣٣٥ .
(٦) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٥ .

من أفريقية مددا للمسلمين، فبلغت عدة الجميع ثلاثمائة مركب[1]. ونزلوا إلى الجزيرة فانهزم الروم عند حصار المسلمين الذين ساروا إلى مدينة بلرم فحاصروها وتمكنوا من الاستيلاء عليها سنة ٢١٦هـ بعد حصار دام عاماً.

وقد هيأ سقوط بلرم قاعدة هامة للأسطول العربى فى صقلية لما تتمتع به من موقع ممتاز .. ولذا غدت بلرم قاعدة بحرية تساعد القوات العربية على تلقى الإمداد والزحف منها على سائر جزيرة صقلية[2]، ولذلك كان (سيد أمين على) على صواب عندما قال إن الاستيلاء على تلك المدينة يعد فى الواقع بدء احتلال الجزيرة[3].

وأخذ المسلمون يواصلون زحفهم رغم المتاعب الجمة التى كانت تواجههم، فاستولوا على ميناء مسينة سنة ٢٢٨هـ[4] وصار الأسطول الأغلبى قاب قوسين أو أدنى من إيطاليا ولكن المسلمين صرفوا اهتمامهم إلى إتمام السيطرة على جزيرة صقلية فتمكنوا من فتح قصريانة سنة ٢٤٤هـ وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانه[5].

غير أن سقوط قصريانه لم يكن يعنى أن صقلية قد استسلمت تماماً، فقد كانت هناك سرقوسة لا تزال منيعة أمام المسلمين، "وما دامت سرقوسة فى قبضة البيزنطيين تلجئ بمرفئها المنيع أساطيلهم، وتمكنهم من إرسال جنودهم المتقاطرين من كل نواحى الامبراطورية العظيمة، إلى كل أطراف الجزيرة، فكل الانتصارات، كل الفتوح مهددة بالعقم"[6].

---

(١) الكامل فى التاريخ ٦/ ٣٣٧.
(٢) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط – ص٧٩ .
(٣) مختصر تاريخ العرب تأليف سيد أمير على – ص٤٩٠.
(٤) الكامل فى التاريخ ٥/٧ .
(٥) المصدر نفسه ٦٢/٧.
(٦) المسلمون فى صقلية – ص١٢ .

وبذل المسلمون جنوداً مضنية حتى تحقق لهم فتح سرقوسة بعد أن ظلت تقاوم مدة تزيد على خمسين سنة[1].

ولم يبق من المعاقل القوية أمام المسلمين سوى طبرمين، فسار إليها إبراهيم ابن الأغلب سنة ٢٨٩هـ وحمل معه أهل البصائر فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ودخلوا معهم المدينة عنوة. ويروى لنا ابن الأثير كيف تلقى الروم خبر فتح طبرمين فيقول[2] "ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه وبقى سبعة أيام لا يلبس التاج، وقال: لا يلبس التاج محزون".

وبسقوط طبرمين سقطت آخر الحصون الساحلية الهامة فى جزيرة صقلية غير أن المسلمين لم يتمكنوا من السيطرة على الجزيرة سيطرة تامة، فقد بقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماماً بسلطان المسلمين إلى آخر أيامهم فى الجزيرة[3].

والحق أن فتح صقلية يعتبر ملحمة رائعة من ملاحم الجهاد، فقد قضى المسلمون فترة الفتح فى جهاد متصل، وبلغوا الغاية فى المثابرة والتضحية بالنفس، حتى لقد جاء فى أحد الأخبار أن القبور هدمت لإنشاء المراكب[4].

وكما يقول د. إحسان عباس: [5] "فقد كانت الأوبئة والمجاعة والخسارة فى الأرواح كافية لأن تخلق اليأس فى نفوس الجند المحاربين، ولكن يشبه أن يكون فتح صقلية عناداً مستمداً من قوة النفسية التى خرج بها أسد فاتحاً أكثر من كونه سعياً وراء غنيمة أو كسب".

---

(١) الكامل فى التاريخ ٧/ ٣٢٠.
(٢) المصدر نفسه ٧/ ٢٨٥.
(٣) العرب فى صقلية – ص٣٩.
(٤) تراجم أغلبية – ص٢٦٧.
(٥) العرب فى صقلية – ص٣٥.

ولا أظننا نبالغ إذ قلنا إن فتح صقلية يختلف فى طبيعته عن غيره من الفتوحات العربية وفى ذلك يقول د. مارتينو ماريو:[1] "إن الفرق بين الفتح الأندلسى وفتح صقلية، هو أن العرب لم يجدوا أمامهم فى أسبانيا إلا ملكا محلياً لا يعتمد إلا على قوى نفسه وهى ضعيفة جداً، بيد أنه واجهتهم فى صقلية امبراطورية يمدها الشرق والغرب بقواهما وتسود أساطيلها البحار، فكان ينبغى للمسلمين، إذا أرادوا طرد البيزنطيين من الجزيرة أن يقتحموا، الواحد بعد الواحد، حصونهم البرية المنيعة طبعا وصنعا، وأن ينزعوا منهم الواحدة تلو الواحدة، قواعدهم البحرية، وليس قواعدهم فى صقلية فحسب، بل قواعدهم التى يملكونها حواليها".

وعلى الرغم من ذلك كله فإن بعض الدارسين الغربيين يحاولون التهوين من شأن الفتح الإسلامى لصقلية وتشويه صورته برد أسبابه إلى مجرد النهب والقرصنة على نحو ما يزعم ديمومبين Demombynes إذ يقول:[2] "ولم تك حملة صقلية التى أنفذها زيادة الله الأول عام ٢١٢هـ واستمرت فى عهد خلفائه وفى عهد للفاطميين سوى تنظيم للقرصنة القديمة. وقد اجتذبت الجزيرة الكبيرة القراصنة كما اجتذبت الأندلس الأسر الحاكمة فى مراكش، فكانت غنائم الجهاد تساعد الأمراء على بناء القصور وتمد لهم من وسائل الترف دون أن يثقلوا كواهل رعاياهم بالضرائب الفادحة".

ولا يخفى على منصف ما ينطوى عليه هذا الرأى من تعصب ومجافاة للواقع، فليس من المعقول أن يضحى المسلمون بالأرواح، ويتحملوا المجاعة والأوبئة من أجل كسب مادى رخيص كما يزعم ديمومبين، بل من المعقول أن يرضى المسلمون بتلك الصعاب أداء لفريضة الجهاد، ومن أجل نشر الدعوة فى أصقاع جديدة. ولقد أصاب د. أمبرتو ريزيتانو كبد الحقيقة عندما قال مفنداً

---

(١) المسلمون فى صقلية – ص١٠ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية – جـ٢ – ص٣٢٨ مادة (بنو الأغلب) .

أراجيف هذا الباحث المتعصب: "وهكذا وصل المسلمون إلى صقلية - لا كقراصنة - كما حلا لبعض المؤرخين الغربيين أن يقولوا ويكتبوا بل جاءوا إليها حاملين على أكتافهم أكثر من قرنين من تاريخهم المجيد، بعد أن تم اتصالهم بالحضارتين الفارسية واليونانية"[1].

ونستطيع أن نلمس بوضوح ما أسداه الفتح الإسلامى من خير لصقلية إذا قارنا بين حالة صقلية قبل الفتح وحالتها بعده. ولست بدعا فى هذا الرأى، فقد سبقنى إليه المستشرق العظيم أمارى فقال وهو بصدد الحديث عن أحوال صقلية تحت الحكم البيزنطى: "كانت صقلية قد أصبحت فى داخلها وخارجها بيزنطية، وكانت مريضة بذلك الداء الوبيل الذى أصيبت به الامبراطورية البيزنطية المنحلة، ولذلك فإننا إذا تأملنا حالتها السيئة لا يؤسفنا ذلك الفتح الإسلامى الذى هزها هزا، وجددها تجديداً"[2].

ومن ناحية أخرى، فقد ترتب على فتح صقلية نتائج خطيرة لعل أهمها هو تحكم القوى الإسلامية فى شرق وغرب البحر المتوسط لضمان حرية الملاحة البحرية الإسلامية[3] وكان أسطول الأغالبة فى البحر المتوسط من أعظم الأساطيل فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت حيث انتشرت مراكز كثيرة لصناعة السفن وبنائها فى تونس وسوسة وموانى صقلية[4].

ويلخص الدكتور إبراهيم العدوى هذه النتائج فيقول:[5] "يعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى العربى، فإن سيطرة الأغالبة عليها جعل مفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط والغربى فى أيديهم، وصار الأسطول العربى ينعم بقاعدة هامة جعلت له السيادة على البحر التيرانى الذى تطل عليه

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية، د. أمبرتو ريزيتانو - ص٣٩ .
(٢) المصدر نفسه - ص٣٦ - ٣٧ - نقلاً عن أمارى .
(3) Marcais, G : La Barberie Musulmana et L'orient au Moyen Age. Paris 1946- P. 215 .
(٤) المغرب الكبير ٢/ ٣٨٥ .
(٥) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط - ص٨٢ .

إيطاليا، وقد تدخل أسطول الأغالبة فعلا فى شئون البلاد الإيطالية بعد أن سيطر العرب على الشطر الأعظم من جزيرة صقلية".

خضوع الجزيرة للفاطميين :

وعندما قضت الخلافة الفاطمية على سلطة دولة الأغالبة سنة ٢٩٧هـ أصبحت صقلية جزءاً من الدولة الفاطمية التى أسسها عبيد الله المهدى فى شمال أفريقيا[١].

ويبدو أن الصقليين لم يطمئنوا لذلك التغيير السياسى، وتأكد لديهم هذا الإحساس عندما صادفوا عدداً من الولاة الظالمين، وتضافر هذان العاملان فجعلا من صقلية مسرحاً للفتن والخلافات التى لم تنته إلا عندما اضطلع الكلبيون بتولى الأمور فى صقلية.

وفى تلك الفترة قام الصقليون بمحاولة جادة للانفصال عن الخلافة الفاطمية وذلك حين اختاروا من بينهم واليا عليهم هو (أحمد بن قرهب) وبايعوه بالولاية دون أن يأخذوا رأى الخليفة المهدى وأوثقوه من أنفسهم أنهم لا يخذلونه فتولى أمرهم[٢]. وما لبث ابن قرهب أن انشق على الخلافة الفاطمية، واتجه إلى العباسيين، فدعا الناس إلى طاعة المقتدر العباسى فأجابوه إلى ذلك، فخطب له بصقلية وقطع خطبة المهدى[٣].

ورحب المقتدر بمبادرته وبعث إليه بألوية سود، فسر بها ابن قرهب وأظهر الحزم والجد فى أمره[٤] وأرسل جيشاً فى البحر إلى ساحل أفريقية فلقى هناك أسطولا للمهدى فأحرقوه وقتلوا قائده[٥].

---

(١) مقدمة ابن خلدون – ص٢٠١ – المكتبة التجارية بالقاهرة – ١٢٨٤هـ.
(٢) البيان المغرب ١/ ٢٣٣ .
(٣) الكامل فى التاريخ ٨/ ٧١ .
(٤) البيان المغرب ١/ ٢٣٣ .
(٥) الكامل فى التاريخ : ٨/ ٧٢ .

وأسكرته نشوة الانتصار فأراد أن يغزو المهدى فى عقر داره فسير أسطولا إلى إفريقية ولكن أسطول المهدى انقض عليه وظفر به وأخذ مراكبه[1].

وكانت هذه الحادثة سبباً فى فشل حركة ابن قرهب فأدبر أمره ولم يستقم له حال بعدها، وخشي الصقليون من غضب المهدى عليهم فاجتمعوا على خلع ابن قرهب وقبضوا عليه وبعثوا به وأهله مصفدين فى الحديد إلى المهدى فقتلهم وصلبهم[2].

وأراد الخليفة المهدى أن يؤدب أهل صقلية فاستعمل عليهم ولاة غلاظا قساة فنكلوا بهم واضطرت صقلية أن تواجه العنف فثارت على هؤلاء الولاة واستفحل أمرهم وكاتبوا ملك القسطنطينية يستنجدونه، وأدرك الفاطميون أن سياسة البطش والإرهاب التى ينتهجها ولاتهم سوف تؤدى إلى عواقب وخيمة، وقد تنتهى بضياع صقلية من أيديهم، فتداركوا الأمر، وتركوا حكم صقلية لولاة آخرين يستطيعون أن يسلكوا فى صقلية مسلكاً حسناً مبنياً على العدل والإنصاف. هؤلاء الولاة هم الكلبيون الذين امتد حكمهم قرابة مائة عام بدأت سنة ٣٣٦هـ، وفيها تمتعت صقلية بالاستقرار الذى حرمت منه زمناً طويلاً، واستطاعت أن تحقق فى تلك الفترة كثيراً من الازدهار الثقافى والاقتصادى والاجتماعى.

كان أول وال من أسرة الكلبيين هو (الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى) وكان يحظى بمكانة كبيرة فى بلاط الخليفة الفاطمى المنصور، ولعب دوراً كبيراً فى القضاء على فتنة أبى يزيد التى هددت الخلافة الفاطمية، فكافأه الخليفة المنصور بولاية صقلية، وعندما وصل الحسن إليها لم يستقبله الناس خوفاً من بنى الطبرى الذين استأثروا بأمرها أثناء انشغال المنصور بفتنة أبى يزيد، ولكن الحسن استطاع بذكائه وعدله أن يسكن الفتنة، وأن يستميل إليه

(١) المصدر السابق ٨/ ٧٢ .

(٢) البيان المغرب ١/ ٢٤٢ .

قلوب الناس، وضبط الحسن أمره، وخشى الروم غدارته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين، واستمرت ولايته فى صقلية خمس سنوات أشاع فيها الاستقرار فى ربوعها، ووضع هناك إلى حد كبير أو صغير أساس حكومة مستقلة ثابتة[1].

وتولى أمر صقلية بعده ابنه (أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى) فسار سيرة أبيه، وواصل الجهاد، فأعاد فتح طبرمين ثم فتح رمطة واستطاع أن يحظى بثقة أهل صقلية كما نجح فى توثيق الصلات بين الصقليين والخليفة الفاطمى، فقدم سنة ٣٤٧هـ من صقلية ومعه ثلاثون رجلا من وجوه الجزيرة إلى المعز بأفريقية فبايعوه وخلع عليهم ثم أعاده إلى مقر بصقلية واستمرت ولايته نحو ست عشرة سنة[2].

وسار (أبو القاسم بن الحسن بن على بن أبى الحسين) ثالث الحكام الكلبيين على سنن أسلافه، فواصل الجهاد ضد الروم، وكانت له غزوات كثيرة معهم، وداوم الغزو إلى أن استشهد فى غزوته الخامسة بجنوب إيطاليا ضد الفرنجة[3]. بعد أن أمضى فى ولايته ما يزيد عن اثنتى عشر سنة كانت له فيها مآثر حسنة، فقد كان عادلا حسن السيرة، كثير الشفقة على رعيته والإحسان إليهم، عظيم الصدقة، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا عقاراً، فإنه كان قد وقف جميع أملاكه على الفقراء، وأبواب البر[4].

ووصلت صقلية الإسلامية إلى ذروة مجدها - فى بداية القرن الخامس الهجرى - فى عهد أبى الفتوح يوسف بن عبدالله الكلبى الملقب بثقة الدولة، فقد أمن الجزيرة وأحسن إلى رعاياها وعاش الناس فى عهده فى رغد ويسر حتى لقد أنسى بجلائله وفضائله كل من كان قبله من الحكام[5]. وكان بلاطه

---

(١) تاريخ العرب السياسى ص٧٨٥ .

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى، المكتبة المصرية - ص٤٤٣ .

(٣) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص١١٠ .

(٤) الكامل فى التاريخ ص١٤ وما بعدها .

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/ ٢١٠ .

فـى بلـرم العاصـمة مقصد العلماء والأدباء[1]. وظل ثقة الدولة يحسن السيرة فى صـقلية حتـى أصـيب بالفـالج فاستناب ابنه جعفرا، ووافقت الخلافة الفاطمية علـى ولايـته، وبعـث إليه الحاكم العزيز بالله - وهو بمصر - التشريفات ولقبه تاج الدولة وسيف الدولة[2].

وظـل الأمير جعفر ضابطا للبلاد، حسن السيرة فى أهلها إلى سنة ٤٠٥ هـ، ففـى تلـك الـسنة حدث نزاع بين أفراد الأسرة الكلبية الحاكمة، إذ انشق على الأمير جعفر أخوه على، وأعانه جمع من البربر والعبيد، واستعد لمحاربة أخـيه، فـزحف إليه جعفر وظفر به فقتله، وقتل من البربر والعبيد خلق كثير، وهرب من بقى منهم، وأمر جعفر حينئذ أن ينفى كل بربرى بالجزيرة فنفوا إلى أفـريقية كمـا أمـر بقـتل العبـيد فقـتلوا عـن أخـرهم وجعل جنده كلهم من أهل صقلية[3].

وقـد ارتكـب جعفر بإقدامه على هذه الخطوة خطأ فادحا دفع فيه ثمناً غالـياً، إذ تـرتب على ذلك أن قل الجنود بالجزيرة. وطمع الناس فى الأمراء[4] ممـا أضعف الحكومة، وربما كان هذا هو السبب المباشر فى تدهور الأحوال فى صقلية بعد ذلك، فقد سارت الأمور على غير ما يشتهى الأمير جعفر، وازدادت الأحـوال سـوءاً عـندما قـام كاتـبه (حـسن بـن محمـد الباغانى) بمصادرة أموال الـناس، وعاملـهم بسوء، واستخف بقوادهم وشيوخ البلد فثار الناس على الأمير جعفـر سـنة ٤١٠هـ، وحاصـروه فـى قصره وهدموا بعض أرباضه وأشرفوا على أخـذه لـولا أن خـرج إلـيهم أبـوه الأمير يوسف ثقة الدولة فى محفة وكانوا له محـبين علـى مـا أحـدث ابـنه عليهم فقال لهم: أنا أكفيكم أمره وأعتقله وأولى علـيكم مـن ترضـونه" فوقـع اختيارهم على ابنه أحمد المعروف بالأكحل، وسلم

---

(١) أعمال الأعلام - القسم الثالث ص٢٩.

(٢) نهاية الأرب للنويرى - المكتبة الصقلية - ص٤٤٣.

(٣) الكامل فى التاريخ ١٠/ ١٩٤.

(٤) المصدر نفسه ١٠/ ١٩٤.

إليهم الباغاني فقتلوه وخشي يوسف على ابنه جعفر منهم فأرسله إلى مصر ثم رحل في إثره إليها[1].

ولما تولى الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد فسكن الناس وصلحت أحوالهم ووصل إليه كتاب الحاكم ولقب الأكحل بتأييد الدولة، فجمع المقاتلة، وبث سراياه في بلاد الروم، وأطاعه جميع أهل القلاع[2].

وكان من الطبيعي حينئذ أن تستقيم الأحوال في صقلية، غير أن الحوادث سارت على النقيض من ذلك، فقد فوض الأكحل الأمور إلى ابنه جعفر، وجعل مقاليد الحكم في يده، فأساء جعفر السيرة، وتحامل على أهل صقلية وخيل إليه أنه لن يتيسر له حكم صقلية إلا بتفتيت عناصر سكانها، والاعتماد على فريق دون فريق، وتكوين عصبية متينة حول قصر الإمارة، فجمع أهل صقلية وقال لهم: "أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين قد شاركوكم في بلادكم والرأى إخراجهم" فقالوا: "قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً" فصرفهم، ثم أرسل إلى الإفريقيين فقال لهم مثل ذلك فأجابوه إلى ما أراد فجمعهم حوله، فكان يحمل أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل صقلية[3].

وكان طبيعياً أن يثور الصقليون على هذا الوضع فسار جماعة منهم إلى المعز ابن باديس – صاحب القيروان – وشكوا إليه ما حل بهم، وقالوا له: "نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا البلاد للروم"[4]. فجهز أسطوله بثلاثمائة فارس، وسير معهم ولديه عبدالله وأيوب، فانضم إليهم أهل صقلية وحاصروا أميرهم الأكحل في الخالصة ثم قتلوه وحملوا رأسه إلى المعز سنة ٤٢٧هـ ولكنهم ندموا على فعلتهم ورجع بعضهم على بعض وقالوا: "أدخلتم غيركم عليكم،

---

(١) الكامل ١٠/ ١٩٤.
(٢) نفسه ١٠/ ١٩٥.
(٣) نفسه ١٠/ ١٩٥.
(٤) نفسه ١٠/ ١٩٥.

والله لا كانت عاقبتكم إلى خير"[1]. فثاروا على جنود المعز بن باديس، فاضطروا إلى الرجوع في مراكبهم إلى إفريقية، وولى أهل الجزيرة عليهم (حسنا الصمصام). أخا الأكحل، ولكنه لم يستطع أن يسيطر على الموقف المتدهور فثار عليه أهل بلده وأخرجوه و بإخراجه انتهى حكم أسرة الكلبيين في صقلية.

الفتنة الأخيرة وسقوط صقلية :

وبعد إخراج الصمصام آل آمر الجزيرة إلى المشايخ والقواد الذين بها، فقسموها إلى خمس إمارات رئيسية، وانفرد كل قائد بجهة، فانفرد عبدالله بن منكود بمازر، وطرابنش وغيرهما، وانفرد ابن المكلاتي بقطانية، وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة، وانفرد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس بقصريانة و(جرجنت) وغيرهما، وفكر ابن الثمنة في أن يستأثر بملك الجزيرة فخرج بعسكر إلى قطانية وقتل قائدها ابن المكلاتي، وضمها إلى ملكه، وتلقب بالقادر بالله، واستبد بملك الجزيرة[2]. ثم تزوج ابن الثمنة بأخت ابن الحواس، ويذكر ابن الأثير أنه "جرى بينها وبين زوجها كلام وأغلظ كل منهما لصاحبه وهو سكران، فأمر ابن الثمنة بفصدها في عضديها، وتركها لتموت، فسمع ولده إبراهيم فأحضر الأطباء وعالجوها، ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر، فأظهرت قبول عذره ثم إنها طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها بقصريانة فأذن لها وسير معها التحف والهدايا فلما وصلت ذكرت لأخيها ما فعل فحلف أنه لا يعيدها إليه"[3]. وهنا وقعت الفتنة التي انتهت بضياع صقلية من يد المسلمين، وذلك حين حشد ابن الثمنة عساكره وكان قد استولى على أكثر الجزيرة وخطب له بالمدينة[4]، وسار إلى ابن الحواس بقصريانة ولكنه هزم

---

(١) الكامل ١٠/١٩٦.
(٢) نفسه ١٠/١٩٦.
(٣) الكامل ١٠/١٩٦.
(٤) نفسه ١٠/١٩٦.

هـزيمة فادحة فاستنصر بالروم وقال لهم: "أنا أملككم الجزيرة" فقالوا "إن فيها جنداً كثيراً ولا طاقة لنا بهم"، فقال: "إنهم مختلفون وأكثرهم يسمعون قولى ولا يخالفون أمرى"[1] فساروا مع ابن الثمنة وقصدوا قصريانه فحصروها، وخرج إليهم ابن الحواس فهزموه، ولما رأى الصقليون أن قلاعهم أخذت تتهاوى أسرع جماعة منهم إلى المعز بن باديس يستنجدونه ويستمدونه العون والمساعدة فلبى نداءهم وجهز أسطولاً كبيراً شحنه بالرجال والعدد وكان الزمن شتاء فساروا إلى قوصرة، فهاج البحر عليهم فغرق أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل[2]. وكان غرق هذا الأسطول ضربة قاصمة قضت على أمل صقلية فى النجاة كما عجلت بالقضاء على المعز بن باديس نفسه إذ نتج عن ضياع هذا الأسطول ضعف قوة المعز فقوى عليه العرب حتى أخذوا البلاد منه[3].

واضطرب أمر المسلمين بعد ذلك فى الجزيرة، وشدد الروم الحصار، وضاق الأمر على الناس حتى أكلوا الميتة ولم يبق عندهم ما يأكلونه[4].

وأخذ الروم يواصلون استكمال غزو صقلية حتى تمت لهم السيطرة على كل مدنها سنة ٤٨٤هـ وملك (روجر) جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا، ولا طاحونا ولا فرنا"[5].

وهكذا أفل نجم العرب السياسى عن صقلية، وإن دام تأثيرها الثقافى بعدها زمناً طويلاً[6].

---

(١) المصدر نفسه ١٠/ ١٩٦ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه ١٠/ ١٩٧.
(٤) نفسه ١/ ١٩٨.
(٥) الكامل ١٠/ ١٩٨.
(٦) حضارة العرب ص٢٧٦.



الحياة الاجتماعية

- عناصر المجتمع الصقلى
- ملامح الشخصية الصقلية
- الأحوال الاقتصادية والعمرانية

عناصر المجتمع الصقلي :

لعلنا لا نجد بين الأقاليم التى فتحها المسلمون إقليما تباينت عناصر سكانه واختلطت به الدماء والأجناس كما كان عليه الحال فى صقلية، فقد كان المجتمع الصقلى يتألف من طائفة من العناصر المتشابكة والمعقدة، فمنها الأسيوى كالعرب، ومنها الإفريقى كالبربر، ومنها الأوربى كالرومان والإغريق واللومبار وغيرهم.

وكانت الجزيرة قبل الفتح الإسلامى تخضع للرومان الذين نشروا فيها لغتهم كما نشروا فيها المسيحية، وظل الحال كذلك حتى فتحها أسد بن الفرات - كما أسلفنا - بجيش مؤلف من العرب والبربر وبعض العناصر الأخرى كالعنصر الفارسى وغيره.

وكانت الأصول العربية التى سكنت صقلية مختلفة الأنساب، ترجع إلى قبائل عربية متعددة، فكان هناك اليمنيون مثل أزدوكندة ولخم ومعافر، والمضريون مثل قيس وتميم وغيرهما. وكان الصراع بين اليمنية والقيسية ما يزال محتدما فى المشرق والمغرب، ولم تنج صقلية من هذا المرض ولكنه لم يبلغ فيها الحدة التى وصل إليها فى أقطار أخرى[1].

وتتردد فى الشعر الصقلى أصوات تفتخر بهذا العنصر أو ذاك وإن كانت أصواتاً قليلة خافتة، وقد روى المؤرخون أن عدد العرب أصبح كثيراً بعد قرن من الفتح[2].

كما دخل الجزيرة جماعات كثيرة من البربر من قبائل صنهاجة وزناتة وهوارة ونفزاوة وغيرها[3]. ولم تكن هذه الجماعات على وفاق مع العرب بل نشأت بينها وبين العنصر العربى منازعات كانت تحتد فى كثير من الأحيان،

---

(١) المسلمون فى صقلية ص٣٠ .

(٢) حضارة العرب ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(3) Amary : Storia dei Mnsulmani di Sicilia, vol, 2, P. 53.

وتؤدى إلى وقوع كثير من الفتن والاضطرابات، ويحدثنا ابن عذارى المراكشى عن إحدى هذه الفتن التى وقعت بين العرب والبربر فى صقلية[1].

ويبدو أن الخلافات بين الفريقين استمرت زمنا طويلا بدليل أن هدنة أبرمها المسلمون ونصارى صقلية بعد تمام تلك الحرب بعشر سنين تضمنت شرطا غريبا ورد فيه أن الرهائن التى سيقدمها المسلمون للنصارى كل ثلاثة أشهر ستؤخذ مرة من العرب ومرة من البربر[2]. ومعنى هذا أن التفرقة بين العرب والبربر كانت قد ألبست صفة رسمية حتى إزاء الأجانب[3].

وقد اتجه البربر منذ البداية إلى الإقامة بعيداً عن العرب، ويرجح آمارى أنهم كانوا يقيمون فى المنطقة الواقعة بين مازر وجرجنت، ويستند فى ترجيحه على أساس أن أسماء القرى والضياع التى كان البربر يسكنونها فى تلك المناطق تحمل أسماء بربرية مثل **Macchinesi** من مكناس، و(**Aiarzeneti**) من حجر الزناتى[4].

وتميزت هذه العناصر البربرية بإثارة الفتن فى كثير من الأحيان، وقد مر بنا فى الفصل السابق أن عليا أخا الأمير جعفر اعتمد على البربر والعبيد فى الفتنة التى وقعت بينه وبين أخيه، وكان من نتائج هذه الفتنة أن قضى الأمير جعفر على عدد كبير منهم ونفى عدداً آخر إلى خارج الجزيرة.

وإلى جانب هذين العنصرين – العرب والبربر – كان هناك عنصران آخران هما (العبيد) وكانوا يمثلون نسبة غير قليلة من المجتمع الصقلى، (والصقالبة) الذين استجلبهم الأمراء الكلبيون وكانوا يتخذونهم غلماناً وفتياناً، ويذكر ابن حوقل أنه كان فى بلرم حارة تسمى (حارة الصقالبة)[5].

---

(١) البيان المغرب ١/ ١٧٥ وما بعدها .

(2)Amari, Storia dei Muslmani di Sicilia, Vol, 2, P. 56 .

(٣) المسلمون فى صقلية ص٣٠ .

(4)Amari: S. D. M. Vol. 2. P. 59 .

(٥) صورة الأرض ص١١٤ .

كما كان هناك عنصر هام يحتل مكاناً بارزاً فى هذه اللوحة التى نرسمها للمجتمع الصقلى، وهم سكان البلاد الأصليون، ويمثل هؤلاء السكان فى تكوينهم الاجتماعى هجرات متعددة وفدت إلى الجزيرة من مناطق مختلفة تحيط بها، وتتركز هذه الهجرات فى ثلاثة عناصر[1]، عنصران منها متشابهان لدرجة أن بعض المؤرخين يرجح أنهما عنصر واحد وذلك لتقارب اسميهما وهما السيقان Sicani والصقل sicali. ويبدو أن السيقان هم السكان الأصليون الذين نشأوا على أرض صقلية ذاتها، غير أن بعض المصادر ترى أنهم قد أتوا من أسبانيا، وهم ينتمون إلى عنصر غير آرى واستوطنوا بصفة عامة جنوب أوروبا بما فيها صقلية فى وقت غير معلوم. أما العنصر الثانى وهم الصقل، فقد أتوا بدورهم من جنوب إيطاليا مهاجرين إلى الجزيرة فى حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد. أما العنصر الثالث الذى انحدر إلى صقلية قديماً فهم الأليمانيون Eymians وهؤلاء تعوزنا معرفة أصلهم أو لغتهم الأولى على وجه الدقة[2].

ومهما يكن من أمر، فقد أسلم كثير من هؤلاء السكان بعد الفتح، واندمجوا مع الفاتحين بالمصاهرة وغيرها. أما من بقوا منهم على دينهم فقد عوملوا معاملة الكتابيين أو الذميين. يقول مارتينو ماريو[3]: "ومن المؤكد أن عدداً وافراً من النصارى بقوا على أراضيهم يتصرفون فيها كيفما شاءوا مقابل خراج يؤدونه أو يستغلونها بصفة مزارعين ومساقين لا خراج عليهم إذ كان حق التصرف فيها أحيل إلى المسلمين بقطع النظر عن المسيحيين الذين كانوا مستأجرين أو أجراء من الأصل فظلوا على حالتهم".

(1) Edward Freeman : Sicily (Pheenican, Greek and Roman) London 1926. P.P. 11 – 16.
(2)Edward Freeman : Sicily . PP. 11 – 16 .

(٣) المسلمون فى صقلية ص٢٩ .

ويشير جوستاف لوبون إلى ترخص المسلمين وتسامحهم فى معاملتهم للمسيحيين حتى فى نظام الجزية فيقول[1]: "وترك لنصارى صقلية كل مالا يمس النظام العام، فكان للنصارى، كما فى زمن الروم، قوانينهم المدنية والدينية، وحكام منهم للفصل فى خصوماتهم وجباية الجزية السنوية التى فرضها العرب عليهم، وهى ٤٨ ديناراً عن كل غنى، ٢٤ ديناراً عن كل موسر، ١٢ ديناراً عن كل من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية التى هى دون ما كان يأخذه الروم، لا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد".

ومما يلفت النظر حقاً أن نجد كثيراً من المستشرقين يتحدثون عن المعاملة الحسنة التى لقيها أهل الذمة فى صقلية، ويشيدون بروح التسامح والعدل من جانب المسلمين تجاه أهل الديانات الأخرى على نحو ما يذكر (جوستاف لوبون) إذ يقول[2]: "سمح العرب فى أيام سلطانهم للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحريتهم الدينية، فروى الراهب الدومنيكى (كوردانين)، وكان رئيساً لدير القديسة كاترين فى الروم، أن القساوسة كانوا أحراراً فى الخروج لابسين حللهم الدينية ليناولوا المرضى طقوس الدين، وروى رئيس الرهبان (موركولى) أنه كان ينصب فى الحفلات العامة بمسينة رايتان: إحداهما إسلامية وعليها صورة برج أسود فى حقل أخضر، والأخرى نصرانية وعليها صورة صليب مذهب فى حقل أحمر، ولم يمس العرب الكنائس القائمة فى صقلية حين فتحهم لها"[3].

وأشاد أمارى أيضاً بتسامح المسلمين مع الطوائف الأخرى فى صقلية، وفند كثيراً من ادعاءات المستشرقين، واستبعد تماما ما يزعمه بعضهم من أن

---

(١) حضارة العرب ص٣٧٩.
(٢) نفسه ص٣٧٩ - ٣٨٠.
(٣) حضارة العرب ص٣٧٩ - ٣٨٠.

استشهاد القديس (بروكوبيو) أسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة كان نتيجة تعصب دينى[1].

وكان من نتائج تسامح المسلمين أن أقبل كثير من سكان صقلية الأصليين على الدخول فى الإسلام ولاسيما العبيد الذين أرهقهم الخسف والجور، فنبذوا دينهم القديم، ودخلوا الإسلام بأعداد كبيرة ليضمنوا لأنفسهم المعاملة الحسنة، وأصبح الأرستقراطية القدماء ينظرون بحيرة إلى مزارعهم وهى خالية من عبيدهم الآبقين[2].

وأغلب الظن أن عدد المسيحيين أصبح قليلاً ولاسيما فى القرن الخامس الهجرى لدخول أغلبهم فى الإسلام ومما يدل على ذلك أن النورمان لم يجدوا فى صقلية لدى نزولهم فيها إلا رئيساً دينياً مسيحياً، وهو مطران بالرمو، فى حين أن الأساقفة كانوا خمسة عشر منهم مطرانان أحدهما فى سرقوسة والآخر فى قطانية فى عهد البيزنطيين[3].

ومهما يكن من أمر، فقد اختلط العرب بسكان البلاد الأصليين وعاشروهم وصاهروهم وامتزجوا بهم، وتبادلوا العادات والتقاليد، وأصبح المجتمع الصقلى عربى الملامح والسمات وانصهرت هذه العناصر المتباينة كلها فى البوتقة الصقلية، وكونت وحدة لا تتجزأ، كما تجتمع أنواع العنب من أبيض وأحمر ووردى فى المعصرة، وتسيل منها محالة إلى خمرة جيدة براقة ذائعة الأريج[4].

---

(1)Amari ; Storia dei Musulmani di Sicilia. Vol 2. P. 104 .

(٢) المصدر نفسه vol, I. P. 627 وانظر أيضاً العرب فى صقلية لإحسان عباس ص٦٣ .

(٣) المسلمون فى صقلية ص٢٩ .

(٤) المصدر السابق ص٣١ .

ملامح الشخصية الصقلية :

يرى بعض الباحثين أن تباين عناصر السكان فى صقلية لم يهيئ المناخ الملائم لتكوين شخصية صقلية أو شعب صقلى له سمات وخصائص تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى. ومن أنصار هذا الرأى المؤرخ فريمان الذى يقول[1]: "ولما كانت صقلية ملتقى الشعوب وميدانا للصراع فيما بينها فإنها لم تستطع أن تكون وطناً ومهداً لشعب واحد.. ومن ثم لم يتكون فيها شعب صقلى".

ويشايعه فى هذا الرأى د. مارتينو ماريو، فيقول[2]: "إن الصقليين لم يتكون فى نفوسهم شعور وطنى حقيقى، فلوجود هذا الشعور كان ينبغى لمسلمى صقلية أن يروا أنفسهم صقليين أولا ثم عربا أو برابرة، والحال أن العرب والبرابرة كانت تفصل بينهم هوة عميقة لم يلقوا عليها جسرا إلا للتخلص من أوامر أمير بعيد، وأن العرب أنفسهم كانوا منقسمين إلى عدنانيين وقحطانيين، وكان ينبغى أيضاً للأشراف وللعوام أن يعتبروا أنفسهم أخوة من حيث هم أبناء أرض واحدة، بيد أن الأولين كانوا لا يرغبون فى الانفصال عن الإمارة الإفريقية إلا ليسوغ لهم ضيم العامة. وكان يقتضى قبل كل شئ أن يكون المسلمون والمسيحيون معا يحبون صقلية حباً يحملهم على التجرد من أحقادهم الدينية احتراماً لأمومتها".

وهذان الرأيان – فى تقديرى – موضعا نظر، فهما قد يصدقان إذا طبقناهما على صقلية بعد الفتح الإسلامى مباشرة، ولكنهما لا يصدقان إذا طبقناهما على صقلية فى القرن الخامس الهجرى، إذ ليس من المعقول أن تثبت أقدام المسلمين فى صقلية ما يقرب من ثلاثة قرون دون أن تنبت فيها أجيال

---

(1)Edward Freeman : History of Sicily. Vol. I. P. 4. Oxford 1891.

(٢) المسلمون فى صقلية ص١٥ .

صقلية المشاعر، مسلمة الدين، بل إن الدين الإسلامى واللغة العربية كانا كفيلين بأن يخلقا هذا الشعب الواحد على نحو ما حدث فى الأقاليم الأخرى التى فتحها المسلمون .

والحق أن الروح الوطنية أخذت تنمو فى نفوس الصقليين شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، وبعد أن تم شيء من الامتزاج بين الأجناس، وشعر المهاجرون بأن صقلية هى وطنهم، نشأ جيل من الناس ينتسب إلى صقلية ويشعر بالرابطة العاطفية بينه وبينها[1].

وما دمنا قد سلمنا بوجود ما يمكن أن نسميه الشخصية الصقلية، فهل نستطيع أن نحدد الخطوط البارزة لهذه الشخصية، وأن نوضح سمات الفرد الصقلى؟

إن هذا فى تقديرى يبدو أمراً عسيراً لأنه يحتاج إلى مقاييس معينة، وإن كنا نستطيع أن ننظر إلى الشخصية الصقلية من خلال عوامل ثلاثة هى: الأوضاع السياسية أولاً، والبيئة الطبيعية ثانياً، والأوضاع الاقتصادية ثالثاً.

فالأوضاع السياسية التى مرت بها صقلية منذ الفتح العربى، وما تميزت به تلك الأوضاع من حدة وعنف فى أغلب الأحيان، وما عاشته صقلية من صراعات وحروب، كل ذلك كان له أثر عميق فى نفسية الفرد الصقلى، فانصبغت هذه الشخصية بالصبغة العسكرية أولا حيث كان عليها أن تكون فى حالة استعداد دائم لتحقيق مزيد من الفتوحات والانتصارات، كما كانت تتوقع ما تنجم عنه الأوضاع السياسية فى الداخل من فتن واضطرابات، وقد أدى ذلك بدوره إلى أن يشعر الصقليون بالقلق وعدم الاستقرار والخوف من المجهول أو مما يخبئه الغيب. ولعل هذه السمات كانت ألصق بالصقليين من غيرهم وربما

---

(1) العرب فى صقلية – ص١٧٧ .

يفسر لنا ذلك أسباب التمرد والثورة التى كانت تحدث فى صقلية فى كثير من الأحيان.

ولعل البيئة الصقلية قد أسهمت من ناحية أخرى فى تكوين الشخصية الصقلية إذ غرست فيها الإحساس بالجمال والميل إلى الأدب ولاسيما الشعر. كما جعلتها تنزع إلى ضروب اللهو، وقد لعبت البيئة المسيحية دوراً رئيسياً فى هذا المجال.

وأثرت الظروف الاقتصادية كذلك فى الشخصية الصقلية، فقد ساعد ازدهار الجزيرة الاقتصادى على تكون طبقة من الأثرياء تكاد تكون قاصرة على الأمراء وترك هذا الثراء أثره فى نفوسهم حيث افتتنوا فى التمتع بالحياة، كما ساعد انتشار الفقر بين بعض فئات الشعب على اتجاه بعض البيئات إلى الانحلال الخلقى، وذلك ما نلمسه بوضوح فى كثير من الشعرالصقلى.

الأحوال الاقتصادية والعمرانية:

لعل من أهم ما تميزت به الفتوحات العربية عبر تاريخها الطويل أن العرب كانوا يحملون معهم بذور الحضارة والمدنية إلى البلاد المفتوحة، فلم يكن حكمهم يقتصر على إدارة شئون هذه البلاد، بل كانوا يقومون بعمارتها على أسس من الحضارة والمدنية واستطاعوا أن يتركوا فى البلاد التى فتحوها آثاراً لا تنسى.

ولم تكد أقدام العرب ترسخ فى صقلية حتى أقبلوا على الزراعة والصناعة فانتشلوهما من الانحطاط الذى كانتا فيه"[1].

وقد شهدت صقلية فى القرن الخامس الهجرى ازدهاراً كبيراً فى مختلف مجالات الحياة، وترك المسلمون بها آثاراً خالدة أفاد منها الإيطاليون وغيرهم. وقد جاء فى كتاب (تراث الإسلام) ما نصه: "كانت جزيرة صقلية

---

(١) حضارة العرب ص٣٨٠.

الإقليم الذى استمد منه أوائل الصناع الإيطاليين خبرتهم الفنية، والموضوعات الزخرفية التى استعملوها، ولا غرو فإن الغزاة المسلمين كانوا قد أنشأوا فى القصر الملكى بمدينة (بالرمو) داراً شهيرة للنسيج ظلت على ازدهارها بعد أن عادت الجزيرة إلى الحكم المسيحى فى عهد النورمانديين"[1].

ولقد أطنب المؤرخون العرب فى وصف ما تتمتع به جزيرة صقلية من خصوبة وخيرات، فقال ابن جبير[2]: "وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها".

وقال ابن حوقل أيضاً:[3] "والحق فيها أحق أن يتبع، فإنه لا نظير لها جودة ورخصا.. وجميع ما تقع إليه الضرورات، وتدفع الحاجة إليه من سائر الطلبات مجلوب إلى بلدهم ومحمول إلى جزيرتهم".

كما أفاض الإدريسى فى وصفها والثناء عليها، ومن ذلك قوله[4]:

"إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن، وقديماً دخلها المتجولون من سائر الأقطار، والمترددون بين المدن والأمصار، وكلهم أجمعوا على تفضيلها، وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها".

وقد استتبع هذا الازدهار فى الزراعة ازدهار فى التجارة، يقول عنه جوستاف لوبون[5]: "وانتعشت التجارة واتسع نطاقها أيام العرب بعد أن كانت صفرا قبلهم كما يدل على ذلك ما انتهى إلينا من جداول مكوسهم التى أدرجت

---

(١) تراث الإسلام جب وآخرون ٦٦/٢.
(٢) رحلة ابن جبير ص٣٤.
(٣) صورة الأرض ص١٢٤.
(٤) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص٣٠.
(٥) حضارة العرب ص٢٨٠.

فيما نظمه النورمان من القوائم فى أوائل الفتح فتثبت درجة تحول تجارة صقلية حين هذا الفتح".

ونتيجة لذلك الانتعاش التجارى اشتهرت صقلية بأسواقها العامرة، وكانت هذه الأسواق متعددة يختص كل منها بسلعة معينة فكان هناك أسواق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والصيادلة والحدادين والصياقلة وأسواق القمح والطرازين والسماكين، والقصابين وباعة البقل وأصحاب الفواكه والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين والعطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين، وانفردت (بلرم) وحدها بنحو مائتى حانوت لبيع اللحم"[1].

وتألقت كثير من المدن فى صقلية مثل بلرم وسرقوسة ومسينة وغيرها ويصف الإدريسى مدينة بلرم فيقول[2]: "وهى المدينة السنية العظمى، والمحلة البهية الكبرى، والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا، وإليها فى المفاخر النهاية القصوى، ذات المحاسن والشرائف، ومدار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف، ومنها كانت الأساطيل تغدو للغزو وتروح.. وهى على ساحل البحر فى الجنوب الغربى .. وساحلها بهج مشرق فرج، ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بنائها ودقائق صنعها، وبدائع مخترعاتها، وهى على قسمين: قصر وربض، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد وإقليم، وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة، ومنازل شامخة شريفة، وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار، والسماطان الباقيان فيهما أيضاً قصور سامية، ومبان فاخرة عالية، وبهما من الفنادق والحمامات كثير، وبها الجامع الأعظم الذى

---

(١) صورة الأرض ص١١٤.

(٢) نزهة المشتاق ص٢٢ - ٢٣.

كـان بـيعة فـى الـزمن الأقـدم .. فأمـا الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جمـيع جهاتهـا .. وبـه المديـنة القديمة المسماة بالخالصة التى بها كان سكنى الـسلطان والخاصـة فـى أيام المسلمين، وباب البحر ودار الصناعة هى للإنشاء. والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة، وعيونها جارية متدفقة، وفواكهها كثيرة، ومبانيها ومتنزهاتها حسنة".

وقـد آثـرت أن أثـبت هـذا الوصـف لأنـه خـير مـا يصور ارتقاء المدنية العـربية فـى صـقلية، وأصـدق دلـيل على ما كانت تتمتع به المدن الصقلية من تمدين ورقى.

غـير أن ذلك الازدهار الاقتصادى الذى تميزت به صقليا لم يكن يعنى أن جميع فئات الشعب يعيشون فى رغد أو يسر، ولكنه سمح بقيام تفاوت بيِّن فى الثروة بين الطبقات، فلقد عاش الأمراء فى قصور فخمة، وكانت لهم أبلطة فاخـرة، وجمـع بعـضهم أمـوالاً طائلة، بينما عاش كثير من طبقات الشعب فى فقـر وضنك، يقول ابن حوقل[1]: "وأما حال يسارهم فإنهم مع قلة مؤنهم ونزور نفقـاتهم وكثـرة غلاتهـم لـيس فـيهم رجل ملك بدرة عين، ولا رآها قط إلا عند سلطان إن كان يدخل إليه ومحله محل من يؤذن له عليه".

ولم يكـن هـذا الـتفاوت الواضح فى الثراء هو السبب الوحيد فى انتشار الفقر فى بعض طبقات المجتمع الصقلى، بل كان هناك أسباب أخرى أسهمت فـى ذلـك منها كثرة الحروب والفتن، ومنها أيضاً الهجرات المتتالية إلى صقلية مـن إفـريقية وغيرهـا، وكانـت هـذه الهجـرات تتم بأعداد هائلة نتيجة القحط والجـدب فـى إفـريقية أو سـعيا وراء الاسـتقرار، أو هـربا مـن الفـتن والحروب والنكـبات التـى كانت تصاب بها إفريقية بين آونة وأخرى، ويحدثنا (أمارى)

---

(1) صورة الأرض ص١٢٤.

عن هجرة إفريقية كبرى هاجرت إلى صقلية سنة ٤٥٦هـ بعد خراب القيروان(1)، ويتحدث أحمد توفيق المدنى عن هجرة أخرى وفدت على صقلية بسبب القحط فيقول(2): "وفى سنة ٣٩٥هـ وقعت بالبلاد الإفريقية مجاعة هائلة وقحط شديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادى وأكثر الحواضر، وخلت الأسواق والمساجد وعدمت البهائم وضاقت الأرض بما رحبت فيمم الناس شطر صقلية، وسارت إليها المراكب يتلو بعضها بعضاً، حاملة جموع اللاجئين من عامة القوم وخاصتهم، ومن سكان الحواضر والبوادى، فتقبل أمراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وأفسحوا لهم مكان العيش، ويسروا لهم أسباب الارتزاق".

ولا شك أن هذه الهجرات أسهمت مع غيرها من العوامل التى ذكرناها فى اختلال موازين الاقتصاد فى صقلية مما أدى إلى انتشار الفقر فى بعض طبقات المجتمع الصقلى.

• • • • •

(1) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol. 2, P. 415.

(2) المسلمون فى صقلية وجنوب إيطاليا لأحمد توفيق المدنى ص١٤٥.



الاتجاهات الفكرية

- الحركة العلمية
- المدرسة الفقهية
- العلوم اللغوية
- العلوم العقلية والطبيعية

لم يقتصر الفتح العربي لصقلية على إحداث تغييرات سياسية واجتماعية فحسب، ولكنه تميز أيضاً — وهذا هو الأهم — بإحداث تغييرات جذرية في النواحي الفكرية والثقافية.

والواقع أن العرب قد نجحوا في أن يشكلوا المجتمع الصقلي وفق آرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم، واستطاعوا أن يخضعوا نظمه ومقاييسه لنظمهم ومقاييسهم بل وأن يصوغوه، صياغة جديدة، وهذا ما يثير الدهشة حقاً، فقد خضعت صقلية قبل الفتح العربي لسيطرة بعض القوى الأجنبية، وتعاقب عليها الغزاة والفاتحون، ولكن أياً منهم لم ينجح في إخضاع المجتمع الصقلي تماماً لنظمه، ولم يستطع أن يطمس ملامح هذا المجتمع على نحو ما فعل العرب، وهنا يكمن وجه الغرابة، فلقد جاء العرب إلى صقلية غزاة فاتحين، واستقروا فيها، واختلطوا بأهلها، وكان من الممكن أن يذوبوا في المجتمع الصقلي وهم قلة نسبياً، وأن يفقدوا مميزاتهم الخاصة وهم في بداية الطريق وأن يضيعوا لغتهم بين أقوام يتحدثون بلغات تختلف عن لغتهم، ولكن بدل أن يحدث ذلك، إذا بهم يفرضون شخصيتهم ولغتهم ودينهم على أهل البلاد، ويشيدون صرح حضارة عظيمة تعتبر جزءاً من الحضارة الإسلامية، ويحدثون انقلاباً هائلاً في النواحي الفكرية والعمرانية والحضارية، ويستبدلون بتلك الأمشاج التي كان يتكون منها المجتمع الصقلي مجتمعاً قوياً عربي الملامح والسمات، ومن يمعن النظر في خصائص الفتوحات العربية عامة يلاحظ هذه الخاصية الفريدة "فمن المعروف أن العرب لم يدخلوا بلداً من البلدان فاتحين إلا فتحوه لغوياً كما فتحوه سياسياً، وأبدلوه من لغته الأصلية لغتهم العربية، وكان القرآن الكريم هو القبس الذي يضيء في أثناء هذا الصنيع، إذ لقنوه الأمم المغلوبة، وبثوا في

أبنائها إعجابا لاحد لـه بأدبهم من شعر ونثر، سواء فى ذلك من اعتنقوا دينهم الإسـلامى ومن ظل على دينه القديم"[1]. وهذا ما حدث تماما بالقياس إلى صقلية إذ أسلم كثير من سكان الجزيرة على أثر الفتح العربى، وانتشرت اللغة العربية فـى تلـك الجزيـرة، وأصـبحت لغـة الـتخاطب فـيها، واللغـة الرسمية للبلاد، وتـرجمت هـذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون أرسطو إلى اللغة العربية، .. وكان مـن أثـر انتـشار اللغـة العـربية أن أصـبحت لغـة الـنقوش التاريخـية فـى هذه البلاد[2].

ومن الطبيعى أن هذا التحول لم يتم بين عشية وضحاها، ولكنه استغرق زمـناً لـيس قلـيلاً، وقـد حمـل جيل الفاتحين هذه المهمة الضخمة على عاتقه، واسـتمر أعـواماً طـويلة يؤدى رسالته الدينية والفكرية، حتى إذا ما تم الامتزاج والانصهار بين العناصر، وتمكن الإسلام من نفوس السكان الأصليين، إذا بجيل صـقلى جديـد يـضطلع بالمـسئولية، وينجح فى إنتاج فكر جديد لا يحمل طابع المهاجـرين، واسـتطاع هذا التلاقح أن يؤتى ثماره قبيل أن تستقبل صقلية القرن الخـامس الهجرى بوقت قصير، ولم تلبث هذه الجزيرة أن بلغت قيمة نضجها الفكـرى والأدبى فى ذلك القرن، وتمكنت بفضل أبنائها من أن تخلف لنا تراثا فكـريا لا يـستهان بـه. يقـول د. علـى إبـراهيم حـسن[3]: "ويعتبر العصر الذى سـادت فيه الثقافة العربية فى هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها، ذلك العصر الـذى بـذّت فيه صقلية جميع ممالك أوربا من حيث الحضارة والمدنية". ويقول

---

(١) د. شوقى ضيف – ابن زيدون – ص١١ (نوابغ الفكر العربى) ط. دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية.

(٢) د. على إبراهيم حسن – تاريخ جوهر الصقلى – ص١٩ – ٢٠، مطبعة حجازى بالقاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٣٥١هـ ١٩٣٣م.

(٣) تاريخ جوهر الصقلى ص٢٠.

المؤرخ (سكوت Scott) "لم يكن يوجد بين ممالك أوربا منن يجرؤ على منافسة صقلية فى تفوقها الحضارى أثناء حكم العرب لها سوى أسبانيا" [1].

وتحدث مؤرخو العرب القدماء عن تلك المكانة التى بلغتها صقلية على أيدى المسلمين فقال الحميرى[2]: "وكان فيها من العلماء والعباد والفقهاء والشعراء وأعيان الناس مالا يأخذه عد ولا يأتى عليه إحصاء".

وقال الشيخ الأنصارى الدمشقى[3]: "ولما كانت فى أيدى المسلمين كانت فى العلم وكثرة العلماء والآباء والفضلاء مضاهية الأندلس".

ويقول ياقوت الحموى "إن صقلية كانت قليلة العمارة، خاملة قبل الإسلام،.. حتى فتحت وصار أكثر أهلها مسلمين، وبنوا بـ ـا الجوامع والمساجد"[4]. وفى ذلك ما يدل بوضوح على ذلك الأثر الهائل الذى أحدثه الفتح العربى، الذى امتد ليشمل الجزيرة كلها حتى يخيل لك أن صقلية قد أصبحت جزيرة عربية بحتة على حد تعبير أحد الباحثين الغربيين[5].

والواقع أن الثقافة العربية تأصلت تأصلاً عميقاً فى صقلية، وضربت بجذورها فى أعماق البيئة بحيث امتد تأثيرها حتى بعد سقوط صقلية بأمد بعيد، ولم يستطيع الفتح النورماندى أن يطمس ملامح الثقافة العربية، بل على النقيض من ذلك فنجد النورمنديين يعيشون فى نطاق هذه الثقافة ويقعون فى أسرها، حتى أن روجر الثانى — ملك النورمنديين — كان يلبس ملابس المسلمين، ووصفه نقاده بأنه الملك "نصف الوثنى" وكان رداؤه يطرز بحروف

---

(1)S.P. Scott – History of the Moorish Embire ni Europe. Vol. 2. P. 62 London, 1904.

(٢) الروض المعطار فى خبر الأقطار – نشر أمبرتو ريزيتانو منتخبات منه فى مجل كلية الآداب – جامعة الآداب – جامعة القاهرة – المجلد الثامن عشر – جـ١ – ص١٥٨ مايو ١٩٥٦م.

(٣) نخبة الدهر وعجائب البر والبحر – المكتبة الصقلية – ص١٤٥.

(٤) معجم البلدان لياقوت – جـ٣ – ص٤٠٧ (مادة صقلية).

(٥) المسيو لوط فى كتابه (غارات الغزاة) عن كتاب (تاريخ المسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا) لأحمد توفيق المدنى – ص١٦٩.

عـربية[1]، ولم يستطع (غليالم) أن يتحرر من هذه العادات، بل إنه كان — كما يذكـر ابـن جـبير — "يقـرأ ويكـتب بالعـربية وكانـت علامـته: الحمد لله حق حمده، وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه"[2]

ولم يكـن المجتمع الصقلى مجتمعاً مستقلاً بذاته فى تكوينه الاقتصادى والاجتماعـى والثقافـى، وإنمـا كان فرعا من المجتمع الإسلامى الكبير، وما إن تـوطدت أقـدام المسلمين فـى صـقلية حتـى شـرعت فـى أداء رسـالتها الثقافية والحـضارية، وكانـت صـقلية بحكـم مـوقعها مـنطقة عبور ثرية لكل ما أنتجته القـرائح العربية؛ فتيسر للثقافة الأندلسية والقيروانية، والبغدادية، والمصرية أن تعـبر عـن طريق صقلية، وبدأ التبادل الثقافى بين صقلية وجيرانها يأخذ شكلاً واسـعاً، وبات واضحاً منذ بداية استقرار العرب فى صقلية أن ثمة صلات قوية تـصل بـين صـقلية والمغـرب، وكانت هذه الصلات أمراً طبيعياً. فالعرب الذين فـتحوا صقلية هم عرب المغرب، ومر بنا أن صقلية ارتبطت سياسياً بالمغرب فى أغلـب الفترات، واستتبع ذلك أن ترتبط به ثقافياً، ولكن إلى أى مدى كان هذا الارتـباط الثقافـى؟ إن أحـد الباحـثين يوسـع دائـرة هذا الارتباط فيعتبر صقلية امـتداداً طبيعـياً للمغـرب فـى النواحى الثقافية إذ يقول: "تعتبر صقلية امتداداً ثقافـياً لـبلاد المغـرب، كمـا كانـت امـتداداً سياسياً لها، وهى مع بلاد المغرب والأنـدلس تكـون جمـيعها وحـدة ثقافـية تميـزت فـى التراث العربى الإسلامى بطابـع خـاص. ورغـم أن الأنـدلس بلغـت شـوطا أبعد وأوسع مما بلغته صقلية والمغرب فـى الـثقافة والحضارة .. فإن الصلات والتفاعل كانا كاملين بين هذه الأقالـيم الـثلاثة لامتـزاج عناصـر سـكانها وكثـرة الاتـصال والانـتقال ولعلاقات المتـشابكة المخـتلفة، ولهـذا تعد بلاد الأندلس وصقلية من حيث تراثها الثقافى

---

(1) تاريخ العرب السياسى ص٧٨٨.

(2) رحلة ابن جبير – ص٣١٥.

بلادا مغربية، خاصة وأن كثرة هائلة من سكانها النازحين إليها بعد الإسلام قد كانوا من أهل المغرب"[1]

وفي هذا القول قسط كبير من الحق، وإن كنت لا آخذه على علاته، فنحن نوافق الباحث على وجود صلات ثقافية قوية بين صقلية وكل من المغرب والأندلس ولكن وجود هذه الصلات لا تعني أن صقلية كانت تابعة المغرب تبعية مطلقة بحيث تفقد صقلية شخصيتها الثقافية، وحتى إن صح هذا في فترة من الفترات، أعني الفترة التي تلت الفتح مباشرة، فإنه لا يصح في القرن الخامس الهجري، فبعد أن كانت صقلية في أول عهدها تستمد العون الثقافي من القيروان، والقاهرة، إذا بها تستقل بشخصيتها الفكرية، وتتبلور فيها جهود علمية خاصة، وأصبح الجيل الناشيء من أبناء الفاتحين صقلي الروح والإنتاج، وفي هذه الفترة أعلنت (بلرم) عن وجودها الثقافي والعقلي، وأصبحت تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة، وأضحى لها علماء وأدباء يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال إفريقية[2].

وإذا كانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التي وطدت الصلات العلمية، فلا شك أن رحلات العلماء من صقلية إلى خارجها وبالعكس، أسهمت إلى حد بعيد في تبادل الأفكار، وفي التلاقح الذي تم بين ثقافة الصقليين وثقافات غيرهم ولذلك فمن الحق إن يقال إن صقلية كانت مؤثرة ومتأثرة، "كانت متأثرة حيث تعتبرها جزءا من بلاد الإسلام، وكانت مؤثرة حين تعتبرها جزءاً من ذلك العالم متفوقاً على ما حوله في الحضارة، حتى كانت حضارتها مما تقتبس. وكان مبلغ العارفين بالحضارة الإسلامية أنه شيء يعجب اليونان والمسلمين"[3].

---

(١) عصر القيروان لأبي القاسم محمد كرو وعبدالله شريط - ص٣٤ - ٣٥ - ط. دار المغرب العربي بتونس سنة ١٩٧٣.

(٢) العرب في صقلية ص٨٥.

(3)Haskins : Studies in Med. Culture. P. 224 Oxford 2929.
نقلاً عن العرب في صقلية ص٣١٨.

وإذا كانت القاهرة قد شاركت فى توجيه الحياة الثقافية فى صقلية، فلا شك أن الثقافة العربية الصقلية أثرت بدورها فى الحياة الثقافية فى القاهرة بشكل أو بآخر على نحو ما يرى د. على إبراهيم حسن إذ يقول:[1] "ولم تلبث هذه الحضارة (الصقلية) أن انتشرت بين الفاطميين، فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات منها : الإفريقية والصقلية، كما كان ذا ولع بالعلوم، ودراية بالآداب، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير، ومن ثم اختار رجالات دولته من بين المغاربة وأهل صقلية ممن اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية..

والحق أن صقلية قد لعبت دوراً بارزاً، ليس فقط فى الثقافة العربية وعلاقتها ببلاد المغرب، وإنما أيضاً وعلى الأخص فى النهضة الأوربية الحديثة، وفى هذه الناحية خاصة تتضح أهمية الدور الخطير الذى لعبته صقلية فى الميادين الفكرية والحضارية، إذ كانت إحدى النوافذ الهامة التى نقلت إلى أوربا حضارة العرب وأفكارهم كما كانت حلقة اتصال هامة بين الشرق والغرب وقد جاء فى كتاب تراث الإسلام ما نصه، أما حلقات الاتصال بين الشرق والغرب والطرق التى سلكتها الأساليب الفنية للوصول إلى أوربا فهى الأندلس وصقلية"[2]. وهذه حقيقة لا ينكرها الباحثون الغربيون وإنما يرددونها فى كتاباتهم بصورة أو بأخرى على نحو ما يرى جوستاف جرونيباوم إذ يقول:[3] "ولم يكن لاستيلاء الإسلام على الأندلس وصقلية إبان معظم تلك الحقبة تأثير عظيم فى التطور السياسى للعالم الغربى، وإن ظهر أنه كان حافزاً منشطاً له من الناحية الثقافية، ويقول د. أمبرتو ريزيتانو:[4] "وفى الحق أنه

(١) تاريخ جوهر الصقلى ص٢٠.

(٢) تراث الإسلام ٢/ ص٢.

(٣) حضارة الإسلام تأليف جوستاف جرونيباوم ترجمة عبدالعزيز جاويد ص٥٢.

(٤) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٤٩ - المجلد الثانى ص٤٩ مقال للدكتور أمبرتو ريتانو "صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى).

كـان للبحر الأبيض المتوسط فى فترة من فترات التاريخ فضل الاتصال بين برين هما من ناحية أرض صقلية وسواحل إيطاليا الجنوبية ومن الناحية الأخرى بلاد إفـريقية الشمالية. ومن الممكن أن يعترض معترض بقوله: إن هذه الاتصالات لم تكـن مقـابلات وديـة بـل كانت مصادمات حربية، وهذا حق لا ينكر إذ وقعت فعلاً حروب وغزوات وإغارات من كل ناحية من هاتين الناحيتين على الأخرى ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الشعوب لا تتعارف فقط فى ظل العلاقات السلمية ولكـنها قـد تتعارف أيضاً ويتصل بعضها ببعض من خلال الحروب التى تقرب بين شعب وآخر.

وعلـى هـذا الأسـاس فلم تكن الأندلس هى السبيل الوحيد الذى نفذت منه الحـضارة العـربية إلى أوربـا، وإنمـا شاركتها صقلية فى ذلك[1]، ولعلنا لا نـبالغ إذا قلـنا إن صـقلية بحكم موقعها كانت أكثر استعداداً من الأندلس لأداء هـذه المهمـة الخطـيرة، وفـى ذلـك يقول فيليب خورى حتى:[2] "كانت صقلية نقطـة الالـتقاء بـين بلـدين ذاتى ثقافتين، وهى بحكم مركزها هذا كانت مهيأة بـصفة خاصـة لـتكون وسيلة لنقل علم العصور القديمة والعصور الوسطى، وكان من بين سكانها بعض العناصر الإغريقية، وبعض العناصر الإسلامية التى تتكلم العـربية، وفريق من العلماء الذين يعرفون اللاتينية، وكانت هذه اللغات الثلاث شـائعة الاسـتعمال فـى الـسجلات الـرسمية والأوامـر الملكية كما كان يتدفق إلى الجزيـرة خـلال الحكـم العربـى لهـا، وهـى غاصة بذكريات المدنيات السالفة، تيارات الثقافة الشرقية التى كانت ممتزجة بالتراث النفيس لليونان والرومان".

وكـان مـن الطبيعـى أن تزدهـر حركة الترجمة فى صقلية نتيجة لتعدد اللغـات، وامتـزاج الـثقافات، وقـد حدث ذلك بالفعل ولكنه جاء متأخراً بعض

(1) قصة الأدب فى الأندلس ١/٣١.

(2) تاريخ العرب السياسى ص٧٩٢.

الوقت لأسباب لا نعلمها. يقول فليب حتى:[1] "ولم تتهيأ الظروف لظهور حركة الترجمة فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى أو أثناء حكم العرب لها، وإن كانت قد ظهرت فيما بعد فى عهد روجر الثانى وخلفه وليم الأول، فقد ترجمت فى تلك الفترة بعض الكتب العربية إلى اللغة اللاتنية مثل (كتاب البصريات Optica) المنسوب إلى بطليموس والذى ضاع أصله اليونانى، كما ترجم كتاب (كليلة ودمنة) العربى إلى الإغريقية".

الحركة العلمية:

نشط التعليم فى صقلية بشكل واسع، وتركزت الحركة العلمية فى المكاتب والمساجد، وكانت هذه المساجد عامرة بألوان الدراسات اللغوية والأدبية والفقهية وفيها كانت تعقد حلقات العلم والإقراء وغيرها.

وكان مما يلفت النظر فى صقلية كثرة المساجد بصورة غير عادية، وفى ذلك يقول ابن حوقل:[2] "وبصقلية من المساجد فى مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها .. نيف وثلاثمائة مسجد، يتواطأ أهل الخبرة منهم فى علمها ويتساوون فى معرفتها وعددها".

ويذكر ابن حوقل أنه شاهد فى قرية البيضاء المجاورة لبلرم ما يزيد على مائتى مسجد[3]، ويعقب على ذلك بقوله: "ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التى تستولى على ضعف مساحتها شبها ولاسمعت من يدعيه إلا ما يتذكره أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته فى موضعه على شك منى فيه، وأنا محققه بصقلية لأنى شاهدت أكثره"[4].

---

(١) تاريخ العرب السياسى ص٧٩٢ .
(٢) صورة الأرض ص١١٥.
(٣) المصدر نفسه ص١١٥.
(٤) المصدر نفسه ص١١٥.

هـذه الظاهـرة تـدل علـى حقيقـتين بارزتين، فهى تدل أولاً على رغبة المسلمين فى تثبيت الدين الإسلامى، وهى ظاهرة صاحبت الفتح الإسلامى فى أقطار أخرى، ولكنها كانت فى صقلية أشد وأعنف، لرسوخ المسيحية فيها عند الفتح، فالإكـثار مـن بـناء المـساجد خير ما يقنع الجماعة الإسلامية بانتصارها علـى كـل موروث صقلى، وخير ما يطمئن الأذهان إلى تثبيت الصبغة الإسلامية فى تلك البلاد، وهى طمأنينة لازمة فى بلد مجاور للعدو المتربص"[1].

وتـدل هـذه الظاهـرة أيضاً على انتشار التعليم فى صقلية بصور واسعة، ففـى هـذه المـساجد وفـى المكاتـب الملحقـة بهـا، كثـر عدد المعلمين كثرة هائلة وأصـبحوا يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الصقلى، حتى لقد بلغ عددهم فيما يذكر ابن حوقل ما يقارب ثلاثمائة معلم، ولم ينقص من ذلك إلا القليل، وليس كهذه العدة بمكان من الأماكن، ولا فى بلد من البلدان[2].

ولم تـسلم هـذه الطـبقة مـن لـسان ابـن حـوقل، فأنحـى عليهم بالذم، ورمـاهم بالجهل والغباء، وزعم أنهم دخلوا مهنة التعليم هرباً من الجهاد. يقول ابن حوقل[3]: "وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عـن الجهـاد، وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحاد العدو، والجهاد فـيهم لم يـزل قائمـاً، والـنفير دائماً منذ فُتحت صقلية، وولاته لايفترونه، وإذا نفروا لم يفتدوا بالبلد أحداً إلا من بذل الفدية عن نفسه أو أقام العذر فى تخلفه مـع رابطـة الـسلطان، وكـان قـد سـبق الرسـم بإعفـاء المعلمـين قديماً بينهم من الـنوائب وحملـت علـيهم المغارم، ففزع إلى التعليم بلههم وحسنه لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه، فإن فيهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جمـيع صبيانه وهم كثير عشرة دنانير، فأى منزلة أقبح وصورة أخس وأوقح من

---

(1) العرب فى صقلية ص٨٧، ٨٨.

(2) صورة الأرض: ١٢٠.

(3) المصدر نفسه: ١٢٠ - ١٢١.

رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزه بأخس منزلة وأوضح حرفة وأسقط صنيعة؟".

وهذا الهجوم الذى يشنه ابن حوقل على طبقة المعلمين لا تتوافر فيه سلامة النية أو حسن القصد، ولكن يخفى وراءه سببا هاماً، فهو لا يهاجم المعلمين لأنهم يتهربون من الجهاد كما يزعم، بل يهاجمهم لأنهم يتزعمون حركة المقاومة فى وجه المذهب الشيعى الذى كان ابن حوقل من أنصاره ودعاته[1].

ومما يؤكد هذا ما يذكره ابن حوقل نفسه فى سياق تحامله على هؤلاء المعلمين، فقد برر سبب كراهيته لهم بأنهم المتكلمون على السلطان فى سيره واختباراته والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعائبه وإضافة محاسنه إلى قبائحه[2]. وفى هذا الكلام تلميح خفى يؤكد مناهضة المعلمين للشيعة.

ولكن هذه الصورة المظلمة التى رسمها ابن حوقل لمعلمى صقلية، تقابلها صورة أخرى مضيئة، فقد احتل هؤلاء المعلمون فى نفوس الصقليين مكانة عظيمة، إذ كانوا "يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء والخطباء" [3].

ومهما يكن من أمر، فقد كثر المعلمون فى صقلية، واشتهر منهم كثيرون مثل أبى عبدالله محمد بن عيسى بن مطر المعلم فى مسجد الزهرى بالسماط، وكان من كبائر المذكورين من المعلمين بها فى السير والعدالة، وقد سافر يشرق،

---

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٤٨.
(2) صورة الأرض ص١٢٠.
(3) المصدر نفسه ١٢١.

ودخل المشرق وكتب الحديث، ومثل أبى الحسن على بن بانه المعروف بابن ألف سوط وهو إليه فى العدالة، ويراه قوم منهم فوقه فى العلم والفقه[1].

وعلى يد هؤلاء المعلمين وفى هذه المكاتب وفى حلقات الشيوخ بالمساجد كان الصقلى يتلقى علومه الأولى، فإذا نزعت به فى مستقبل حياته نزعة علمية غادر صقلية إلى المشرق فدرس على أساتذة مشهورين، ورجع يحمل إجازات كثيرة، أو كاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل، واستجازهم كتبهم، أو طمح إلى زيارة الكعبة فالتقى فى رحلته بالشيوخ المشهورين، فسمع منهم وتلقى عنهم، وعاد إلى بلده، وقد زادت الرحلة من مكانته واعتقد الناس أنه قد أصبح علماً يقصد لعلمه. وكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الراحلين فى طالب العلم لعلاقتها بصقلية، ولنشاطها العلمى، ولأنها على الطريق إلى الحجاز[2].

وكان المسجد الجامع ببلرم بمثابة كعبة يحج إليها طلاب العلم الصقليون، ويتحدث ابن حوقل عن هذا المسجد فيقول[3]: "ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم، وذلك أنى حزرت المجتمع فيه إذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا، لأنه يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة، وكل صف منها يزيد على مائتى رجل"

وأكبر الظن أن هذا المسجد قد أسهم بدور فعال فى تنشيط الحركة العلمية إذ كان ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة، وإليه كان يلجأ المسلمون والصقليون للاستفتاء، ويفد الطلاب الصقليون لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء[4].

---

(١) المصدر نفسه ١٢١.

(٢) العرب فى صقلية ص٩٠ - ٩١.

(٣) صورة الأرض ١١٤.

(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٥٢ - ٥٣.

المدرسة الفقهية :

اهتم الصقليون اهتماماً كبيراً بالعلوم الدينية ولاسيما الفقه، فأقبلوا على دراسته، وآثروه على غيره من العلوم، وقد شاع في صقلية المذهب المالكى لقربها من المغرب من ناحية، ولأن أغلب ولاتها وقضاتها الأوائل كانوا يعتنقون هذا المذهب، فأسد بن الفرات – الذى افتتحها – كان مالكياً "سمع على ابن زياد الموطأ وتعلم منه العلم ثم ارتحل إلى المشرق فلقى مالكا .. وطلب عليه العلم وسمع منه الموطأ .. ثم رحل من العراق بعد وفاة مالك بن أنس إلى مصر فلزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية وقدم بها إلى القيروان وسمعها منه خلق كثير من الموطأ وغير ذلك من العلوم، وانتشرت إمامته"[1].

ويروى أنه لما أراد أسد الخروج إلى صقلية قال له رجل: على من ترى أعتمد؟ فقال له: إن أردت الله والدار الآخرة فعليك بعلم مالك[2].

ولا شك أن أسداً كان أول من أرسى دعائم مذهب مالك بصقلية وقد ترك أسد للصقليين كتابه (المسائل الأسدية) فعكفوا عليه، وأخذوا عنه.

واستأثرت صقلية – بعد ذلك – بعدد من العلماء الأجلاء من تلامذة سحنون جامع المدونة، الذين وردوا إليها بعد الفتح، وعن طريقهم انتشر مذهب الإمام مالك فى صقلية، ومن هؤلاء العلماء القاضى سليمان بن سالم القطان المعروف بابن الكحالة "من أصحاب سحنون .. كان ثقة، كثير الكتب والشيوخ.. وله تآليف فى الفقه، وتعرف كتبه بالكتب السليمانية.. وتولى قضاء صقلية فخرج إليها ونشر بها علما كثيرا وكان خروجه إليها سنة ٢٨١هـ قال الشيرازى: وعنه انتشر مذهب مالك بها"[3].

---

(١) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية ١/١٧٣.

(٢) تراجم أغلبية ص١٦٠.

(٣) تراجم أغلبية ص٢٦٠ – ٢٦١.

ومـنهم ميمون بن عمر الإفريقى المالكى، كان قاضيا لصقلية، وكان آخر مـن روى بالمغـرب عن سحنون وعن أبى مصعب الزهرى وتوفى سنة ٣٢٠هـ[١].

ومنهم أيضاً أبو سعيد لقمان بن يوسف الغسانى. كان عالما باثنى عشر صنفاً من العلوم وأقام بصقلية أربع عشرة سنة يُدرِّس المدونة وتوفى سنة ٣١٨هـ[٢].

وعكـف هـؤلاء الفقهـاء وأمـثالهم علـى المدونـة يدرسونها ويشرحونها، وبجانب المدونة ألفت كتب أخرى فى الفقه مثل كتاب (تجديد الإيمان وشرائع الإسـلام) لأبـى جعفـر بن سعيد التميمى المعروف بالقصرى المتوفى سنة ٣٢٢هـ ويقول أحد الرواة "إنه كتاب عجيب يشتمل على نيف وستين جزءاً وقفت على جميعه وقرأته مراراً بصقلية وإفريقية"[٣].

وفـى الفـترة التـى خـضعت فـيها صقلية للفاطميين، تأثرت إلى حد ما بالخلافـات المذهبـية بـين دعـاة الـشيعة وأنصار السنة، وإن كان هذا التأثر لم يـصل إلى حـد الغلـو الـذى يذهب إليه د. أمبرتو ريزيتانو إذ يقول:[٤] "أما فى عهـد الأئمـة الفاطمـيين فكانـت صـقلية تنعكس عليها الاضطرابات السائدة فى إفـريقية، والخلافـات الدينية التى قامت فى القيروان، فأصبحت صقلية ميداناً للـشقاق الذريـع بـين أنـصار سنة النبى ودعاة الشيعة، أى بين الجموع العربية التـى كانـت قـوام الدولة الأغلبية، والعناصر البربرية التى كانت ترى أنها هى أقطاب الدولة أيام الفاطميين".

ونحـن نتـناول هـذا الـرأى بحـذر شـديد، فبالـرغم من أن الولاة كانوا يعتـنقون مـذهب الفاطمـيين، إلا أنهـم لم يتعصبوا لمذهبهم إلا فيما يخص باب الإمامـة[٥] ولم يـصل بهـم هـذا التعـصب إلى حـد محاربـة المـذهب المالكـى فى

(١) العبر فى أخبار من عبر للذهبى – المكتبة الصقلية ص٦٤٨.

(٢) رياض النفوس، المكتبة الصقلية ص١٩٢.

(٣) المصدر نفسه، المكتبة الصقلية ص١٩٣ – ١٩٤.

(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٥٣.

(٥) المسلمون فى صقلية تأليف ماركينو ماريو ص٣٧.

صقلية، بل ظل هو المذهب السائد حتى فى أيام الفاطميين، وإن كانوا قد رحبوا أيضاً بمعتنقى مذهب بنى عبيد، الذين كرههم علماء القيروان المتمسكون بمذهب مالك والمتعصبون له، فهاجر إلى الجزيرة من مشاهير الفقهاء: خلف بن أبى القاسم الأزدى، المعروف بالبرادعى، والذى كان من تلامذة أبى محمد أبى يزيد، وأبى الحسن القابسى وقد ألف فى صقلية بعض كتبه، ومنها كتاب (التهذيب فى اختصار المدونة)[1].

وكان للبرادعى وغيره من الفقهاء الفضل فى تكوين مدرسة فقهية صقلية فى القرن الخامس الهجرى، ويشير ابن حمديس إلى هذه المدرسة فيقول[2]:

ومدرسة أبناؤها فقهاؤها فمن عالم منهم ومن متعلم

وتميزت هذه المدرسة بظاهرتين بارزتين، الأولى أن أكثر أبنائها صقليون، والثانية أن أثرها قد امتد إلى خارج صقلية حيث حقق أبناؤها شهرة واسعة داخل صقلية وخارجها، فمن أبنائها الذين اشتهروا بمصر أبو عمر عثمان بن الحاج الشاقى الصقلى، وينسب إلى شاقة إحدى مدن صقلية، وقد تفقه على مذهب مالك على الكبر، وألف كتب كثيرة فى الفقه[3]، يقول السلفى:[4] "كان يحضر عندى كثيرا وقد علقت أنا عنه شيئاً يسيراً مما كان يحكيه، وكان أبو الضوء الكاتب يقرب منه ويكاتبه من صقلية، ووقفت على شيء من ترسله. وكان فاضلاً ذا أدب بارع وشعر فائق".

ومنهم عبد الجليل بن مخلوف الصقلى الفقيه المالكى. يقول السلفى إنه "أفتى بمصر ودرس مذهب مالك أربعين سنة وسمع عليه الحديث كثيرون

---

(1) الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب ص١١٢.
(2) ديوان ابن حمديس تحقيق إحسان عباس ص٤٨٤ ط. بيروت. ١٩٦٠م.
(3) معجم البلدان لياقوت جـ٣ ص٢٣٧ مادة (شاقة).
(4) معجم السلفى نسخة مصورة رقم ٣٩٤٢ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ١٨٧ - ١٨٨.

ومات بها سنة ٥٤٩هـ[١]. ومنهم كذلك أبو القاسم السرقوسى، وقد قرأ عليه الفقه كثيرون منهم: أبو محمد روزبة بن موسى الخزاعى[٢].

كما قدم إلى الأندلس كثير من أبناء هذه المدرسة مثل محمد بن سابق الصقلى وقد روى بمكة عن كريمة بنت أحمد المروزى وغيرها وأخذ عنه أهل غرناطة وكان من أهل الكلام مائلاً إليه ثم ترك الأندلس ورحل إلى مصر وظل بها حتى توفى سنة ٤٩٣هـ[٣]. ومثل على بن عثمان بن الحسين الربعى الصقلى الذى قدم قرطبة تاجراً وروى عنه أبو على الغسانى كتاب (اللمع فى أصول الفقه) لأبى عبدالله الحسين بن حاتم الأزدى[٤]، ومن هؤلاء العلماء أيضاً محمد بن عبدالله الصقلى وقد روى عن أبى الحسن اللخمى الفقيه كتاب (التبصرة فى الفقه) من تأليفه" وقدم غرناطة وأخذ الناس عنه بها وتوفى سنة ٥١٨هـ[٥]. ومنهم كذلك ثابت الفقيه الصقلى. أخذ بصقلية عن عبد الحق بن هارون الفقيه وغيره ثم دخل الأندلس وأخذ عنه بها[٦]. وكثير غير هؤلاء.

ونستطيع أن نميز من بين شيوخ هذه المدرسة ثلاثة فقهاء نالوا شهرة واسعة فى صقلية، وفى خارجها ويمكن أن نعتبرهم شيوخ هذه المدرسة وهم:

عبد الحق الصقلى :

ترجم له القاضى عياض فقال:[٧] عبد الحق بن محمد بن هارون السهمى القرشى. من أهل صقلية، تفقه بشيوخ القيروانيين والصقليين.. وحج مرتين، فلقى فى إحداهما القاضى عبد الوهاب المالكى وأبا ذر الهروى وحج

(١) معجم السلفى ورقة ١١٧.
(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٧.
(٣) الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ٢/ ٥٤٦.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٥٤٨.
(٥) نفسه ٢/ ٥٤٨ .
(٦) المصدر السابق ١/ ١٣٨.
(٧) ترتيب المدارك للقاضى عياض ص٣٧٦ – ٣٧٩.

أخرى بعد أن أسن وكبر وبعد صيته فلقى بمكة إذ ذاك أمام الحرمين أبا المعالى (عبد الملك بن يوسف الجوينى) العالم المتكلم وذلك سنة ٤٥٠هـ فباحثه وسأله عن مسائل إجابة عنها أبو المعالى وهى مؤلفة مشهورة فى أيدى الناس وكان عبد الحق يعترف بفضله ويقول: "لولا كبر سنى ما فارقت عتبة منزله" وكان الآخر يجله ويعترف بفضله .. وتكرر عبد الحق بعد هذا ببلاد مصر إلى أن توفى بها. وكان فقيها فهما صالحا دينا مقدماً بعيد الصيت، شهير الخير، مليح التأليف".

وفى صقلية ألف عبد الحق كتاب (النكت والفروق لمسائل المدونة)، ونال الكتاب شهرة واسعة ولكنه ندم على تأليفه وتغيرت نظرته إليه، فتولاه بالتغيير ورجع عن كثير من اختباراته وتعليلاته، وكان يقول: لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت[1].

وألف عبد الحق كذلك كتابه فى شرح (المدونة) المسمى (بتهذيب المطالب)، وله (استدراك) على (مختصر البرادعى) وله (عقيدة) وله جزء فى ضبط أو بسط ألفاظ المدونة، وتوفى سنة ٤٦٦هـ بالإسكندرية وكان قد هاجر إليها قبل ذلك بأعوام قليلة[2].

أبو عتيق السمنطارى :

ينسب أبو عتيق إلى قرية (سمنطار) إحدى قرى صقلية، وكان يجمع بين الفقه والتصوف، وترجم له ياقوت الحموى فقال:[3] أبو عتيق السمنطارى الرجل الصالح العابد. له كتاب كبير فى الرقائق سماه كتاب (دليل القاصدين) يزيد على عشرة مجلدات. ذكره ابن القطاع فقال: العابد أبو بكر عتيق بن على

(١) الديباج المذهب ص١٧٤.
(٢) ترتيب المدارك ص٣٧٩.
(٣) معجم البلدان لياقوت ٣/ ١٤٤ وما بعدها.

ابن داود المعروف بالسمنطارى. أحد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العالمين، وممن روض الأولى ولم يتعلق منها بسبب وطلب الأخرى وبالغ فى الطلب. وسافر إلى الحجاز فحج وساح فى البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان، ولقى بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد، فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع. وله فى دخول البلدان ومقيلة العلماء كتاب بناه على حروف المعجم فى غاية الفصاحة، وله فى الرقائق وأخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق إلى مثله فى نهاية الملاحة. وفى الفقه والحديث تأليف حسان، فى غاية الترتيب والبيان، وله سمعة فى الزهد ومكائد الزمان[1].

وذكر السلفى أن السمنطارى روى كتابا للفقيه السهيلى وهو (مختصر فى أصول الفرائض) وسماه (سهيل السهيلى)[2].

ويذكر السلفى أيضاً أنه كان مستجاب الدعوة، فعندما غزا النورمان الجزيرة قال: اللهم إنك قضيت على المسلمين بما قضيت، فإن تمت ولايته - يقصد دوقة الإفرنج - فسخره لهم، فلما ملكها صار عليهم أحن من الوالد على الولد[3].

الإمام المازرى :

هو الإمام أبو عبدالله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى الفقيه المالكى المحدث ولد بمدينة مازر بصقلية سنة ٤٤٣هـ، وتلقى علومه بها، وذاعت شهرته فهاجر إلى المهدية بعد أن احتل النورمان صقلية، وهناك تصدر للتدريس بجامعها الكبير. جامع عبيد الله المهدى، وبه بث ما وسعه صدره من

(١) معجم البلدان ٣/ ١٤٤.
(٢) معجم السلفى - ورقة ٣٤٦.
(٣) المصدر نفسه - ورق ٢٩٨.

العلم الغزير والمادة الواسعة فنشر العلوم الدينية والفنون على اختلاف أنواعها ومراميها، ومن ذلك الحين ذاع صيته في الأفاق، وطبقت شهرته المشرق والمغرب[1].

ودرس على المازرى كثير من علماء إفريقية، وشهد له بالعلم غير واحد، فقال ابن خلكان[2]: "هو أحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه .. وكان فاضلاً متفنناً".

وقال عنه القاضى أبو الفضل عياض السبتى[3]: "هو إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه وممن بلغ فيه رتبة الاجتهاد، ودقة النظر، ولم يكن فى عصره للمالكية فى أقطار الأرض أفقه منه ولا أقوى لمذهبهم، وسمع الحديث وطالع معانيه. واطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والآداب وغير ذلك".

وقال عنه آخر[4]: "كان آخر المشتغلين بإفريقية بتحقيق العلم، ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر وكان يفزع إليه فى الفتيا فى الطب كما يفزع إليه فى الفتيا فى الفقه .. وممن أخذ عنه بالإجازة القاضى عياض". كما شهد له بالعلم رجال من غير مذهبه مثل السبكى الذى يقول فيه[5].

"أما المازرى .. فكان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهنا، بحيث اجترأ على شرح البرهان لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذى لا يحوم حول حماه ولا يدندن حول مغزاه إلا غواص على المعانى، ثاقب الذهن، مبرز فى العلم".

(1) الإمام المازرى ص٥١ – نوابغ المغرب العربى – العدد الأول – ط. دار الكتب الشرقية بتونس.

(2) وفيات الأعيان ٣/ ٤١٣.

(3) كتاب (الغنيمة) للقاضى عياض فى ذكر مشيخته (مخطوط بمكتبة المرحوم الشيخ الصادق النيفر بتونس)، ونقلتها عن كتاب الإمام المازرى لحسنى عبد الوهاب ص٥٧.

(4) المختصر فى الفقه لخليل بن إسحاق. المكتبة الصقلية ص٦٧ – ٦٨ من الملاحق.

(5) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٤/٤.

وخير ما يصور روحه في الدرس والبحث وقفته من الجويني في شرح البرهان ونقده للإمام الغزالي في الإحياء، ولا ندري إن كانت هذه الروح الشديدة المحافظة هي روح المازري وحده أو هي طابع مغربي صقلي؟[1].

وكان المازري من متقدمي المتكلمين على مذهب الأشعري، وله مؤلفات في علم الكلام، منها كتاب (شرح الإرشاد وشرح البرهان) لإمام الحرمين واستأذنه فيه أبو على الحضرمي القروي[2].

وقد خلف لنا المازري آثاراً علمية قيمة منها (المعلم بفوائد كتاب مسلم) وقد شرح فيه صحيح مسلم شرحاً جيداً، وعليه بنى القاضي عياض كتاب (الإكمال)، وهو تكملة لهذا الكتاب[3]. وله في الأدب كتب متعددة، وله كتاب (إيضاح المحصول في برهان الأصول)، وهو شرح ممتع في أجزاء عديدة على برهان إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨هـ في أصول الديانة، وله نظم الفرائد في علم العقائد وهو من أجل مصنفات الإمام، وله أيضاً تعليق على مدونة سحنون[4].

ومع أن المازري هاجر من صقلية وأقام بالمهدية إلا أن صلته لم تنقطع بموطنه الأصلي، وعاش بروحه مع هذا الوطن، وشارك أهله في محنتهم، يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[5]: "ومما يؤثر عن الإمام المازري أنه كان يكرم من يفد على إفريقية من مهاجري صقلية، فيوسع على فقيرهم، ويساعد بالنصيحة الميسور منهم، عطفاً على أولئك اللاجئين المصابين بفقدان الوطن، وقد استقر منهم كثير في أحواز المهدية والمنستير وسوسة، فاشتروا الأرضين

---

(١) العرب في صقلية ص٢٢٩.
(٢) العرب في صقلية ص٢٢٩.
(٣) المقفى للمقريزي - المكتبة الصقلية - ص٦٦٨.
(٤) الإمام المازري للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ص٥٩.
(٥) المصدر نفسه ٩١.

لإثمارها بالعلم، فكان المازرى أكبر معين لهؤلاء على استقرارهم فى وطنهم الجديد".

وكان من أثر تعلق الإمام المازرى بصقلية أن شارك أهلها فى محنتهم مشاركة فعلية، فأصدر فتوى فريدة من نوعها لإعذار أهل صقلية عن مهاجرة بلادهم عندما ورد عليه — وهو بالمهدية — سؤال من جماعة المسلمين المقيمين تحت ذمة النصارى بصقلية بعد انجلاء حكم الإسلام عنها، ونصه: "سئل الإمام المازرى عن أحكام قاضى صقلية وشهادة عدولها، ولا يدرى إقامة المسلمين هنالك تحت أهل الكفر: اختيارية أم ضرورية؟ فكان جوابه رضى الله عنه: "القادح فى هذا على وجهين: الأول فى الكلام على القاضى من ناحية العدالة حيث أقام ببلد الحرب فى قيادة أهل الكفر وذلك لا يباح، والثانى من ناحية الولاية إذ هو مولى من قبل أهل الكفر، فالأول له قاعدة يعتمد عليها شرعا وهى تحسين الظن بالمسلمين ومباعدة المعاصى عنهم، فلا يعدل عن هذا الأصل لظنون قد تكون كاذبة .. وهذا المقيم ببلد الحرب إن كان اضطرار فلا شك أنه لا يقدح فى عدالته، وكذا إن كان اختيارا .. وأما الوجه الثانى وهو تولية الكافر للقضاء والعدول والأمناء وغيرهم فلا يقدح فى حكمه، وتنفذ أحكامه كما لو ولاه سلطان مسلم"[1].

ولا شك أن المازرى وغيره من شيوخ مدرسة الفقه أسهموا إسهاماً فعلياً فى تنشيط الدراسات الفقهية، ونستطيع أن نضع أيدينا على خصائص معينة تميز هذه المدرسة عن غيرها بعض التمييز، ولعل أول هذه الخصائص هى المحافظة والتشدد فى الأحكام والفتاوى، وكان من مظاهر هذا التشدد المقترن بمعنى التدين، أخذ الفقهاء بالأشد من كل حكم ولزومهم المدونة لا يحيدون

---

(١) الإمام المازرى لحسن حسنى عبدالوهاب ص٨٧ – ٨٩، وقد نقلها عن كتاب (الدكانة) مخطوطة للشيخ عظوم القيروانى.

عنها، وقول بعضهم وقد قدم إليه تلميذه خفه ليلبسه — وكان ذلك التلميذ ممن يفتى — اصفعنى به يا أبا القاسم ولا تفتنى[1]. وقد مرت بنا أمثلة تدل على تشدد الفقهاء فى الأحكام مثل وقفة الإمام المازرى من الجوينى فى شرح البرهان ونقده للإمام الغزالى فى (الإحياء)، وأورد لنا ابن مكى فتوى تدل على تشدد الفقيه عبد الحق الصقلى فى أحكامه، فقد أفتى بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر فى قراءته النون الخفيفة أو التنوين عند الباء والواو، وعدّ هذا من اللحن، قياساً على من يتكلم فى الصلاة متعمداً. يقول ابن مكى[2]: "وقال لنا الشيخ أبو محمد عبدالحق — أيده الله -: "أى بعض أهل العلم أن اللحن الذى لا يجوز مثل إظهاره هذه النون الخفيفة والتنوين عند الباء والواو، وتبديل الضاد ظاء، والظاء ضاداً، وأشباه ذلك، إذا كان فى غير أم القرآن، أن الصلاة خلف القارىء بذلك جائزة. قال : ومنع أبو الحسن بن القابسى — رحمه الله — من الصلاة خلفه، وإن كان لحنه فى غير أم القرآن". قال لنا الشيخ أبو محمد: ، وهذا صحيح، لأنه إذا غير القرآن كان متكلما فى الصلاة، إذ كلام الله — عز وجل — غير ملحون، فليس الذى تكلم به كلام الله تعالى، وإنما هو كلامه، فصار كمن تكلم فى الصلاة متعمداً".

ونجد فى الشعر الصقلى إشارات إلى سمة التشدد هذه كما فى قول ابن حمديس[3]:

خذ بالأشد إذا ما الشرع وافقه	ولا تمل بك فى أهوائك الرخص
ولا تكن كبنى الدنيا رأيتهم	أن أدبرت زهدوا أو أقبلت حرصوا

وقد لاتبدو هذه الظاهرة شيئاً غريباً إذا ربطنا بينها وبين طبيعة المجتمع الصقلى ذاته، ففى مجتمع مثل هذا يضم أجناساً مختلفة وأمشاجاً

(١) العرب فى صقلية ص٣٠٣.
(٢) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكى الصقلى تحقيق د. عبدالعزيز مطر ص٢٤٧.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٢٩٠.

مختلطة، رأى الفقراء أن تنفيذ الأحكام بدقة، والتمسك بكل ما جاءت به الشريعة هما خير وسيلة لتثبيت هذا الدين الجديد.

وهناك سمة ثانية اتسمت بها تلك المدرسة، وهى شدة الارتباط بينها وبين المدرستين الإفريقية والأندلسية فى المسائل الفقهية، فكثيراً ما كانت هذه المدارس تتبادل الآراء فى الأحكام والفتاوى، وقد احتفظ لنا النباهى بصورة مما كان يدور بينها فذكر أن الكلام كان قد استعظم بالأندلس فى حق القاضى أبى الوليد الباجى عندما أبدى رأيه فى مسألة من المسائل، فنسبوا كل تكذيب وتعطيل إليه، وكان من قوله أن النبى الأمى يجوز أن يكتب بعد أميته فيكون ذلك من معجزاته، وتفاقم الخلاف بين الناس فكتب أمير وطنه فى المسألة إلى صقلية وإفريقية، برغبة الباجى فى ذلك، فجاءت الأجوبة من هناك بتصديقه وتصويب مقالته[1].

أما السمة الثالثة التى نلحظها فهى ارتباط الفقه بالجهاد، إذ نجد غير واحد من فقهاء صقلية يجمعون بين الاشتغال بالفقه والمرابطة للجهاد على شاكلة الإمام أبى بكر محمد بن يونس التميمى الصقلى، فقد كان فقيهاً إماماً عالماً، فرضياً، أخذ عن أبى الحسن الحصائرى وعتيق بن أبى الفرضى وغيرهما، وكان ملازماً للجهاد، وتوفى سنة ٤٥١هـ[2]. ومثل الفقيه موسى بن عبدالله بن الحسن الذى انتقل من صقلية إلى الأندلس، وكان مجاهداً، وظل يجاهد حتى قتل سنة ٤٨٩هـ[3].

ومن الممكن أن نرد هذه الظاهرة أيضاً إلى طبيعة البيئة الصقلية، التى كانت دار جهاد منذ أن فتحها المسلمون، وقد وجد فيها الفقهاء وأهل الصلاح

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ص٢٠٩.

(٢) المختصر فى الفقه لخليل بن إسحاق المكتبة الصقلية ص٧٦ من الملاحق.

(٣) الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ٥٥٤/٢.

متنفساً طبيعياً يؤدون فيه حق الجهاد، ويدفعون عن وطنهم هجمات الأعداء والطامعين فينالون بذلك ثواب الجهاد وثواب العلم.

الحديث والقراءات

حف بالفقه علوم أخرى كالتفسير والحديث والقراءات، ولكن جهود الصقليين في هذه العلوم كانت أقل بكثير بالقياس إلى جهودهم في الفقه، فلم تحتفظ لنا المصادر بمعلومات ذات قيمة عن علم الحديث، وكل ما نعرفه أن بعض المحدثين كانوا يجمعون بين رواية الحديث والقراءة أو غيرها من العلوم، ومن المحدثين الذين ورد ذكرهم في المصادر العباس بن عمرو الصقلي، وقد روى "غريب الحديث" لقاسم بن ثابت السرقسطي[1]. ويقول الضبي عن هذا الكتاب "وهو كتاب حسن مشهور ذكره أبو محمد بن حزم وأثنى عليه"[2].

ويبدو أن دراسة الحديث كانت تدور إبان ازدهار الدراسات الدينية حول الموطأ أو ملخصات منه، وكان عبد الحق الصقلي والسمنطاري من أكبر من قاموا بهذه الدراسة في عصر واحد[3].

ومما يلفت النظر أن بعض المحدثين كانوا يتحرزون من رواية الحديث خشية الوقوع في الخطأ أو الاتهام بالكذب على شاكلة ابن الحذاء القيسي الصقلي، فقد أبى أن يروى لأبي طاهر السلفي شيئاً من الحديث للأسباب التي ذكرناها، وفي ذلك يقول السلفي[4]: "وجرى بيني وبينه خطب طويل في فضل الرواية وأن روايته أولى من امتناعه منها، فاعتل بعلل تكلمت عليها معه فوجدت عمدته في تجربة التحرز من الوقوع في الكذب على النبي ﷺ إذ لم تتقدم له قراءة للعربية".

(١) جذوة المقتبس ص٢٩٩.
(٢) بغية الملتمس ص٤١٧.
(٣) العرب في صقلية ص١٠٣.
(٤) معجم السلفي ورقة ١٢٠.

أما فـي القراءات، فالأمر يختلف بعض الشيء، إذ وردت في المصادر إشارات غير قليلة إليها، وهي تدل على أن الدراسات التي قامت حولها كانت علـى قـدر لا بـأس بـه مـن النـشاط، وكـان يتصدر حلقات الإقراء بصقلية قراء كـثيرون أمثال أبي محمد عبدالله بن فرج المديني ومحمد بن إبراهيم بن الشامي المديني، وأبي بكر محمد بن علي الأزدي بن بنت العروق، وأبي عبدالله محمد ابن عبدالله الفتال. يقول السلفي[1]: "وهؤلاء شيوخ المدينة بصقلية والمقدمون في الإقراء".

وقـد درس علـى هـؤلاء الـشيوخ قراء كثيرون مثل أبي البهاء عبدالكريم ابـن عـبدالله بـن محمـد المقـرىء الـصقلي. قـال عـنه السلفي[2]: "كان من أهل القـراءات والحديث. وروى لي شيئاً يسيراً من حفظه، وكتبت من أجزائه كذلك فـوائد مـن حكايـة وشـعر، ولـد سـنة ٤٤٠هـ بـصقلية، وتوفـي سـنة ٥١٧هـ بالإسكندرية".

واشـتهر من بين القراء إسماعيل بن خلف الصقلي المتوفى ٤٥٥هـ وكان إماماً في علوم الأدب، متقناً لفن القراءات[3] وقد صنف كتاباً في القراءات سماه (العـنوان في القراءات) قال عنه ابن خلكان "وهو عمدة في هذا الشأن .. وذكر فيه ما اختلف فيه قراءات السبعة بإيجاز واختصار لتقرب على المتحفظين دون الأغمـار وعلى المبتدئين والغلمان إذ جعل كتابه المترجم بالاكتفاء كافياً للمنتهي والمبـتدي وبـسطه بـسطاً لا يـشكل علـى ذي لـب سـوى فجعـل هـذا المختـصر كالعـنوان لــه والترجمـة" وشـرحه عبدالظاهـر بـن نشوان الرومي[4] كما اختصر

---

(١) معجم السلفي ورقة ٢٤٦ – ٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه ٢٤٦ – ٢٤٧.

(٣) بغية الوعاة ص١٩٥ .

(٤) كشف الظنون – المكتبة الصقلية – ص٧٠٤ .

الحجة للفارسي وانتفع به الناس، كما صنف إعراب القراءات في تسعة مجلدات[1].

وامتد نشاط هؤلاء القراء إلى خارج صقلية وبالذات مصر حيث وفد عليها بعض القراء الصقليين واستقروا بها، ونالوا فيها شهرة واسعة، وكان أكثرهم حظاً في الشهرة ابن الفحام الصقلي، واهتمت به كتب التراجم[2]، فقال عنه ابن الجزري[3]: "هو عبدالرحمن بن عتيق بن خلف بن الفحام الصقلي الأستاذ الثقة المحقق، شيخ الإسكندرية، والذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بها علواً ومعرفة". وقال عنه السلفي[4] "وهو من كبار القراء، وممن رحل من المغرب إلى المشرق في طلب القراءة على الشيوخ، فأدرك بمصر ابن هاشم وابن نفيس وعبدالباقي بن فارس، وأبا الحسين الشيرازي وآخرين سنة ٤٣٨هـ وتلمذ على طاهر بن بابشاذ في النحو وأملى عليه شرح مقدمته، وقد علقت عنه فوائد وله تأليف حسن سماه "التجريد في بغية المريد" كتبت أنا منه أسانيد كل قراءة، وكان حافظاً للقراءات صدوقاً متقناً، عالماً، كبير السن"[5].

ويقول ابن الجزري عن كتاب التجريد: "وكتابه التجريد من أشكل كتب القراءات حلا ومعرفة ولكني أوضحته في كتابي (التقييد في الخلف بين الشاطبية والتجريد) ومن وقف عليه أحاط بالكتاب علماً بيناً"[6].

---

(١) بغية الوعاة ص١٩٥ - ١٩٦.

(٢) راجع ترجمته في إنباه الرواه القفطي جـ٢ ص١٦٤ - ١٦٥ ترجمة رقم ٢٨٠ ومعجم السفر للسلفي - ل١٠٧، ولمعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعمار للذهبي، وطبقات النحاة لابن قاضي شهبة - جـ٢ ص٧٣، والنجوم الزاهرة ٢٢٥/٥.

(٣) طبقات ابن الجزري ٣٧٤/١ - ٣٧٥.

(٤) معجم السلفي ورقة ١٠٧.

(٥) المصدر نفسه ١٠٧.

(٦) طبقات ابن الجزري ١/ ٣٧٤ - ٣٧٥ وتوجد مخطوطة من كتاب التجريد بدار الكتب المصرية رقم ٦١٠ قراءات.

والواقع أن ابن الفحام الصقلي قد حظي بشهرة كبيرة حتى قال عنه أحد الرواة: "ما رأيت أعلم بالقراءات ووجوهها منه. لا بالمغرب ولا بالمشرق، وإنه ليحفظ القراءات كما نحن نحفظ القرآن"[1].

وظل ابن الفحام ينشر علمه بمصر حتى توفي سنة ٥١٦هـ وقد جاوز التسعين ونيف عليها[2].

ومن أشهر القراء الذين تتلمذوا على ابن الفحام وتصدروا حلقات الإقراء بمصر، عثمان بن علي بن عمر السرقوسي الصقلي قال عنه القفطي[3]: "كان عالماً نحوياً لغوياً مقرئاً، قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة، وغيرهما وله تواليف في القراءات والنحو والعروض، وكانت له في جامع مصر حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه، وكتبوا تصانيفه، وتنافس فيها أهل العلم، ولقيه الحافظ السلفي بمصر، وشاركه في السماع على بن صادق وابن بركات والفراء الموصلي. ومن مصنفاته التي شاهدتها (الحاشية) على كتاب (الإيضاح) وهي في غاية الجودة، ومختصر عمدة ابن رشيق، وشاهدت هذا المختصر بحلب بخطه عند ابن القيسراني وقد زاد فيه أبواباً أخل بها ابن رشيق، وهي واقعة موقعها من التصنيف، وله شعر".

المدرسة اللغوية :

حظيت العلوم اللغوية باهتمام الصقليين، وكان من الطبيعي أن يحدث هذا الاهتمام في بلد لم يكن عربي الأصل، ومن ثم أصبح أهله محتاجين إلى من يضبط كلامهم ويثقف ألسنتهم، وكان هذا — في حد ذاته — سبباً من الأسباب التي حفزت الصقليين إلى الاهتمام باللغة العربية، ولكن جهود الصقليين لم تتوقف عند هذا الحد ولم تقنع بمجرد البحث عن وسائل للمحافظة على سلامة

(١) معجم السلفي ورقة ١٠٧.
(٢) تعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعمار للذهبي المكتبة الصقلية ص٦٩ - ٧٠ من الملاحق.
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاه ٣٤٢/٢ وما بعدها .

اللغة، بل أبت هذه الهمم الوثابة والنفوس الطامحة إلا أن تعمل حيث كانت، فرحل الراحلون في طلب اللغة ومفرداتها وغريبها، وظهر الحفاظ واللغويون الكبار بصقلية، وما كان يرجى من أهل هذا البلد النائي أكثر من أن تكون العربية لغة كتابة وتدوين على قدر المكنة والضرورة[1].

وأكبر الظن أن الدراسات اللغوية بدأت في الجزيرة بعد مضى أكثر من قرن من الفتح، أي في الفترة التي نشطت فيها الدراسات في مجال الفقه والحديث والقراءات والتصوف[2].

ويبدو أن الصقليين عكفوا أول الأمر على كتب المشارقة فاهتموا بدراستها وشرحها واختصارها، وأسهم في هذا النشاط بعض اللغويين الذين هاجروا إلى صقلية على شاكلة موسى بن أصبغ المرادى القرطبي. كان بصيرا باللغة والإعراب شاعرا محسناً، خرج إلى المشرق ودخل العراق ولقى ابن دريد وغيره واستوطن صقلية ونظم (المبتدأ) في ثمانية آلاف بيت[3]. كما هاجر إليها أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي[4] الذي وصف بأنه كان متقدماً في علم اللغة ومعرفة العويص، وكان أحضر الناس شاهداً وأرواهم لكلمة غريبة[5].

وقد روى بالمشرق عن أبي سعيد السيرافي وأبي على الفارسي وغيرهما، ودخل الأندلس في أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور بن أبي عامر، وكان عالما باللغة والأدب والأخبار سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة

(١) الأستاذ أمين الخولى من مقال له بمجلة المقتطف عدد فبراير ١٩٢٣ بعنوان المدنية العربية في صقلية من سنة ٢١٣هـ - ٤٨٤هـ ص١٤٢.
(٢) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص٦٠.
(٣) بغية الوعاة ص٤٠٠.
(٤) راجع ترجمته في الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم٥٣٦ ص٢٣٥، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص ١٨١، وبغية الوعاة للسيوطي ص٢٦٧ - ٢٦٨ وجذوة المقتبس للحميدى ص٢٢٣.
(٥) بغية الوعاة ص٢٦٧ - ٢٦٨.

ممتعاً، فأكرمه المنصور وزاد فى الإحسان إليه، والأفضال عليه .. وجمع له كتاب الفصوص الذى نحى فيه منحى القالى فى أماليه وأثابه عليه خمسة آلاف دينار[1]. ولكنه خرج من الأندلس فى الفتنة وقصد صقلية واستقر بها حتى توفى سنة ٤١٠هـ[2] ويغلب على الظن أنه أسهم مع غيره من المهاجرين فى النشاط اللغوى بصقلية ولكننا لا نملك أية إشارات تدلنا على كيفية هذا الإسهام أو مداه.

غير أن هذه الجهود لم تلبث أن نضجت على يد جماعة من اللغويين الصقليين الذين وضعوا إلى حد كبير أساس ما يمكن أن نسميه مدرسة لغوية صقلية فى القرن الخامس الهجرى على غرار المدرسة الفقهية. وفى هذه المدرسة تخرج أشهر أعلام صقلية أمثال ابن القطاع وأبى العرب الصقلى وابن الخياط الربعى وعمر بن خلف بن مكى الصقلى وغيرهم. ومن ثم كانت مدرسة واضحة المعالم لأننا نعرف أصحابها بأعيانهم وببعض آثارهم، ونستطيع أن نتصور مبلغ نشاطهم وخطوط اتجاهاتهم وقد ضم ابن رشيق جهوده إلى جهود هذه المدرسة وقوى فيها الناحية الأدبية والنقدية[3].

وامتد تأثير هذه المدرسة إلى خارج صقلية، وبرز من أبنائها علماء كثيرون مثل محمد بن أبى الفرج المالكى الكنانى الصقلى المعروف بالذكى النحوى، كان فاضلاً عارفاً باللغة والأدب وكان آية فى النحو وعلومه[4]. وكان مولده بصقلية سنة ٤٣٧هـ وقرأ الفقه على محمد بن يونس، والنحو على أبى على الحيولى ولم يخرج من صقلية إلا وهو إمام فى الفقه والنحو[5].

---

(١) وفيات الأعيان ١٨١/٢.

(٢) الصلة ص٢٣٥ .

(٣) العرب فى صقلية ص١٠٨.

(٤) أنباه الرواة ٧٣/٣.

(٥) بغية الوعاه ص٩٠.

وقد خرج هذا العالم اللغوى من صقلية متوجهاً إلى العراق ثم خرج منها إلى خراسان، وجال فى أقطارها، وأقام بها مدة، ثم خرج إلى غزنة وبلاد الهند، وانصرف عنها إلى أصبهان وظل بها حتى توفى سنة ٥١٢هـ[1].

وجرت بينه وبين علماء البلاد التى زارها محاورات ومناظرات، وقرئ عليه كتاب (الشهاب) للقضاعى، وكان ينفرد بأشياء من تفسير الأخبار وغيرها، لا يتابعه فيها أحد[2]. ومن الطريف أنه كان يتتبع عثرات الشيوخ، وكانوا يضيقون به بسبب ذلك، فقد حضر مرة إملاء محمد بن منصور السمعانى فأملى المجلس فأخذ عليه الذكى شيئاً وقال: ليس كما يقول بل هو كذا، فقال السمعانى: اكتبوا كما قال فهو أعرف به فغيروا تلك الكلمة وكتبوا كما قال الذكى، وبعد ساعة قال: يا سيدى أنا سهوت والصواب ما أمليت فقال: غيروه واجعلوه كما كان، ففعلوا فلما فرغ من الإملاء وقام الذكى، قال السمعانى: ظن المغربى أنى أنازعه فى الكلام حتى يبسط لسانه فى كما بسطه فى غيرى فسكت حتى عرف الحق ورجع[3].

ومن أبرز أبناء هذه المدرسة الذين حظوا بشهرة واسعة خارج صقلية ابن القطاع الصقلى، فبعد أن قرأ الأدب على فضلائها كابن البر اللغوى وأمثاله، وأجاد فى النحو غاية الإجادة، رحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الفرنج واستقر بمصر، وبالغ أهلها فى إكرامه، وألف هناك تصانيف نافعة، منها كتاب الأفعال الذى أحسن فيه كل إحسان ووصف بأنه أجود من الأفعال لابن القوطية كما ألف كتاب أبنية الأسماء الذى جمع فأوعى، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه[4].

---

(١) أنباه الرواة على أنباه النحاة ٧٣/٣.

(٢) أنباه الرواة ٧٣/٣.

(٣) بغية الوعاة ص٩٠.

(٤) وفيات الأعيان ١١/٣ وما بعدها.

وكان من أشهر شيوخ هذه المدرسة أربعة علماءهم:

١- عمر بن حسن النحوى الصقلى وكنيته أبو حفص. قال عنه القفطى[1]:

"شيخ فى اللغة والنحو، طويل الباع فيهما، أخذا ورويا عنه، وتصدر للإفادة ببلرم".

وظل أبو حفص ينشر علمه فى صقلية ولم يغادرها حتى بعد أن انتثر عقدها، ولكنه أسر من قبل النورمان لأسباب لا نعرفها تماماً وإن كان يغلب على الظن أنه اشترك مع أبناء وطنه فى مقاومة الاحتلال النورمانى فأسر فى الحرب:

٢- يوسف بن الدباغ النحوى الصقلى وكنيته أبو يعقوب. قال عنه السيوطى:

"كان حافظاً لكتب المتقدمين، متنبهاً لأسرار المؤلفين، تقدم فى زمانه، وله مع ذلك شعر صالح أكثره فى مسائل النحو، ومنة قوله[2]:

إن هند المليحة الحسناء	وأى من أضمرت لخل وفاء
فعسى أن يكون يحسن من قد	كان من قبل ذاك أساء

٣- ابن البر اللغوى:

وهو شيخ هذه المدرسة غير مدافع، اسمه محمد بن على الحسن بن على التميمى الغوثى يكنى أبا بكر ويعرف بابن البر، ولد بصقلية وتلقى علومه الأولى بها ثم رحل عنها فى طلب العلم إلى المشرق[3]. وهناك درس على كثير من العلماء أمثال أبى يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمى، وأبى القاسم المالينى ومحمد بن عبدوس من أصحاب أبى منصور الثعالبى، وأبى سهل محمد بن المروزى من أصحاب أبى محمد الهروى[4]. وعرج فى رحلته على مصر وفيها

---

(١) أنباه الرواة ٣٢٨/٢.

(٢) بغية الوعاة ص٤٢٢.

(٣) أنباه الرواه ١٩٠/٣.

(٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ص٣٦٧.

سمع شعر أبى الطيب المتنبى من أبى على صالح بن رشيدين سنة ٤١٣هـ ولقى القاضى أبا محمد عبدالوهاب بن على[1] ثم عاد إلى صقلية سنة ٤١٥هـ بعد أن نال إجازات العلماء، وتزود بقدر كبير من العلم، وقد أشار التجيبى إلى علاقته بابن البر فقال[2]: "كان أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى الغوثى عقد لى على نفسه بمصر سنة ٤١٥هـ أنه يسافر معى فى بعض المراكب من الإسكندرية إلى المغرب وفارقته على ذلك وانحدرت إلى مدينة الإسكندرية واتفق له بعد مفارقتى أن صحب فتياناً من أهل القيروان فألفهم وآثر صحبتهم وسهل عليه حل ذلك العقد وقدر أن أقلعنا من الإسكندرية فى يوم واحد بريح طيبة شرقية وتغيرت من بعد فدخلنا مرسى يعرف بمرسى الشقراء، أرست السفينة التى هو بها قريباً من سفينتنا فنظرت نحوها فرأيته وهو يشير إلى بالسلام فرددت عليه إشارة وحركنى صنيعه فصنعت بديهاً أبياتاً أنفذتها إليه، والتقينا بعد الوصول بمدينة المهدية فقضى كل واحد منا من حق صاحبه ما انبغى له أن يقضيه".

واستقر ابن البر فى مازر، وذاع صيته فى الآفاق، واتصل بابن منكود صاحب مدينة مازر؛ فقربه وأدناه، وأكرم محله وأجل مثواه[3].

وأقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب، وأصبح اسمه علما على هذه المدرسة حتى عد شيخها غير مدافع، وأصبحت تعرف بمدرسة ابن البر اللغوى، وشهد له بالفضل غير واحد، فقال عنه ابن الأبار[4]، "وكان أحد الأئمة فى علم العربية واللغات والآداب، ويجمع إلى ذلك جودة الضبط وحسن الخط وكل ما وجد له من تقييد ففى غاية الإفادة والإمتاع".

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣٧.
(٢) شرح المختار من شعر بشار ص٢٥٣ – ٢٥٤.
(٣) إنباه الرواه ١٩٠/٣.
(٤) التكملة لكتاب الصلة ص٣٦٧.

ومن العلماء الذين درسوا عليه ونالوا إجازته أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر القصديرى وأبو محمد عبدالله بن إبراهيم الصيرفى وأبو الطيب عبدالمنعم القروى المعروف بابن الكماد وابن القطاع وأبو العرب الصقلى الشاعر وغيرهم[١] وكان أبو العرب الصقلى آخر من حدث عنه[٢].

ورحل إليه لطلب العلم من خارج صقلية طلاب كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال أبا الحسن على بن عبدالجباربن سلامه[٣]، ويذكر السلفى أنه كان إماماً فى اللغة حافظا لها حتى إنه لو قيل: لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد، وقد رأى ابن البر فى مدينة مازر ورغب فى أن يقرأ عليه لما اشتهر من فضله وتبحره فى اللغة[٤]. ولكن المقام لم يطب لابن البر فى مازر، فقد بلغ ابن منكود صاحب مازر عن ابن البر أنه يشرب الخمر سرا. فعز عليه ذلك وسير إليه: إننا إنما أردناك لعلمك ودينك وأردنا منك الصيانة، وإذا كان ولابد من شرب الخمر فهذا النوع ببلرم كثير، وربما يعز وجوده هاهنا، فخجل من قوله وارتحل إلى بلرم وأقام بها للإفادة، كان موجودا بها إلى سنة ٤٥٠هـ"[٥].

وظل ابن البر ينشر علمه فى بلرم حتى بدأت قلاع صقلية تتساقط أمام غزو النورمان فهاجر إلى الأندلس سنة ٤٦٠هـ وظل هناك إلى أن وافته المنية ويذكر القفطى أن ابن القطاع كان ممن أخذ عنه وأكثر، ويقول إن كتاب (الصحاح) بمصر لا يروى إلا من طريق ابن البر هذا[٦]. ويبدو أن ابن البر كان يعجب كثيراً بكتاب الصحاح، فقد روى عنه ابن القطاع قوله: "ما صنف فى اللغة كتاب مثل كتاب الصحاح للجوهرى"[٧].

---

(١) المصدر نفسه ص٣٦٧ - ٣٦٧.

(٢) المصدر نفسه ص٣٦٨.

(٣) راجع ترجمته فى بغية الوعاه للسيوطى ص٣٤٠، وانباه الرواه جـ٢ ص٢٩٢، معجم السلفى لوحة ٨٧.

(٤) معجم السلفى ورقة ٨٧.

(٥) إنباه الرواه ٣/ ١٩٠.

(٦) إنباه الرواه ٣/ ١٩٠.

(٧) معجم السلفى ورقة ٣٥١.

ابن مكي وكتابه تثقيف اللسان :

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي أفاض في وصفه المؤرخون وكتاب التراجم، فوصفه القفطي بأنه "فقيه محدث لغوي عالم بالعربية، مصنف في اللغة"[1]. ولقبه السيوطي بالإمام اللغوي المحدث[2]. ولقبه النووي بالإمام[3]، وقال عنه العماد الأصفهاني[4]. "وهو فقيه محدث خطيب لغوي، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مروي، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباته، وتعجب رواته". ويحتفظ له العماد في (الخريدة) ببعض المقطوعات الشعرية وتدور كلها حول الوعظ والزهد والقناعة[5].

ولد ابن مكي في صقلية، وتلقى علومه بها، وتخرج في مدرسة ابن البر اللغوي، وكان أهم شيوخه، ولكن الذين ترجموا لابن البر لم يذكروا أن ابن مكي من تلامذته على ما بينهما من صلة علمية قوية، إلا أن ابن مكي أشار إلى هذه الصلة في غير موضع من كتابه (تثقيف اللسان) الذي سنتناوله بعد قليل، فقال في مقدمة كتابه: "وعرضت جميع ذلك على الإمام الأوحد والعلم المفرد، أبي بكر محمد بن علي بن الحسن بن البر التميمي — أيده الله — فأثبت جميع ما عرفه وارتضاه، ومحوت ما أنكره وأباه، لأزول عن مواقف الاستهداف، وأريح نفسي من عهدة التغليط، وأقطع لسان كل حاسد، وأفل غرب كل مكابر ومعاند"[6].

ويدل هذا دلالة واضحة على وجود صلة عملية قوية بين ابن البر وابن مكي وتظهر هذه الصلة بشكل أوضح في مواضع كثيرة من الكتاب حيث ينقل

---

(١) إنباه الرواة ٢/ ٣٢٩.

(٢) بغية الوعاة ص٣٦١.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٩٨.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – الجزء الأول – القسم الرابع – ص١٢٦ – تحقيق عمر الدسوقي وعلى عبدالعظيم – ط. دار نهضة مصر للطبع والنشر – الفجالة – مصر.

(٥) المصدر نفسه ص١٢٦.

(٦) تثقيف اللسان لابن مكي ص٤٧.

ابن مكى كثيراً عن آراء أستاذه ابن البر، ويذكره بقوله: قال الشيخ أبو بكر[1]، أنشدنا الشيخ أبو بكر[2] .. إلخ.

وفى الكتاب ما يدل كذلك على أن ابن مكى درس على علماء آخرين بخلاف ابن البر مثل الفقيه عبد الحق الصقلى، وقد أورد له بعض الأمثلة التى تدل على آرائه فى الأحكام والفتاوى، ويذكر روايته بقوله: (ذكر لنا الشيخ أبو محمد عبدالحق) وقال لنا الشيخ أبو محمد عبدالحق[3]، كما درس أيضاً على ابن رشيق - الذى هاجر إلى صقلية - وأخذ برأيه فى روايات أبيات للمتنبى وجميل وكثير وغيرهم، وهو يذكر ابن رشيق بقوله: هكذا قال لى أبو على حسن بن رشيق وقال لى حسن بن رشيق[4].

وبعد أن تخرج ابن مكى فى مدرسة ابن البر وجه اهتمامه إلى الدراسات اللغوية وضم جهوده إلى جهود زملائه فى هذا المجال، وتوج جهوده بتصنيف كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان).

ونرجح أنه ألفه قبيل عام ٤٦٠هـ، وهو العام الذى رحل فيه ابن البر عن صقلية، لأن ابن مكى - كما أسلفنا - عرض مادة كتابه على ابن البر، ويرجع د. عبد العزيز مطر أنه ألف - على وجه التحديد - بعد سنة ٤٥٦هـ، وهى السنة التى توفى فيها ابن رشيق - على الأرجح - وذلك لأن ابن مكى يذكر بقوله: رحمه الله[5].

والسبب الذى دعا ابن مكى إلى تأليف كتابه يقترن بحياة اللغة العربية فى صقلية بل لعله يقترن بحياة اللغة العربية بصفة عامة. فمن المعروف أن اللحن قد تسرب إلى هذه اللغة بعد دخول الأعاجم فى الإسلام، واستوجب

(١) المصدر نفسه ص٥٤.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧٤.
(٣) تثقيف اللسان ص٢٤٧.
(٤) المصدر نفسه ص٢٧٧.
(٥) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة - د. عبدالعزيز مطر ص١٣٦.

الحرص عليها أن يعمل العلماء على تنقيتها وضبطها، فسارع فريق منهم إلى تأليف الكتب فى هذا الموضوع الخطير، دفعا لوقوعه، وتنبيها على ما وقع كى يتحرز من روايته مصحفا، ومن جملة تلك المؤلفات، لحن العامة لأبى الحسن على بن حمزة الكسائى، و(التنبيه على حدوث التصحيف) لحمزة بن الحسن الأصبهانى المتوفى سنة ٣٦٠هـ وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢هـ وغيرها. ويجيء كتاب ابن مكى ليصبح حلقة فى هذه السلسلة الطويلة من كتب التصحيف.

ويبدو أن اللغة العربية فى صقلية أصيبت باللحن بعد دخول الإسلام إليها بزمن قصير، وربما يكون ذلك أمراً طبيعياً لدخول عدد كبير من الصقليين فى الإسلام، وقد تنبه ابن حوقل إلى هذه الظاهرة فى زيارته صقلية، ولحظ أن اللحن يشيع على ألسنة عدد كبير من الناس وهم لا يأبهون لذلك فقال[1]: "ولقد رأيت ولدا كان لإسحاق بن الماجلى المعلم القاصى يخطبهم نحو حولين يجزم الأسماء مع الصلة ويجر الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وخاطبت أديباً كان من أهلها يسعى ويدعى الدراية بجميع الأحوال، وقد نصب هذا الخطيب مالم يسم فاعله أو رفع منصوباً، وأظنه كان مفعولاً به فقلت: أما سمعت هذا الخطيب وما كان منه؟ وذكرته له وقد ذهب عنى اللفظ فقال: كأنه والله يا سيدى كما تقول غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا".

وكان من نتائج هذا التساهل أو الإهمال أن فشا اللحن فى لغة الصقليين بصورة خطيرة وصفها ابن مكى فى عصره بقوله[2]: "فلما تمت الحجة ووضحت المحجة، هجم الفساد على اللسان، وخالطت الإساءة الإحسان، ودخلت لغة العرب، فلم تزل كل يوم تنهدم أركانها، وتموت فرسانها، حتى استبيح

---

(١) صورة الأرض ص١٢١.

(٢) تثقيف اللسان ص٤١.

حريمها وهجن صميمها، وعفت آثارها، وطفئت أنوارها، وصار كثير من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون، وكثير من العامة يصيبون وهم لا يشعرون، فربما سخر المخطئ من المصيب، وعنده أنه قد ظفر بأوفر نصيب، وتساوى الناس فى الخطأ واللحن إلا قليلاً، وإنما يتميز أولئك القليل – على ما بهم من تقصير – عند المباحثة والمكاتبة وقراءة الكتب ومواضع التحقيق. فأما عند المخاطبة والمحاورة فلا يستطيعون مخالفة ما تداوله الجمهور واستعمله الجم الغفير".

ويتضح من كلام ابن مكى أن اللغة العربية فى صقلية كانت تعانى من مشكلة "الازدواج" أو "الثنائية" حيث كانت تختلف اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة وهى المشكلة ذاتها التى تعانى منها اللغة العربية فى أيامنا هذه.

وقد أدى هذا التفاوت فى استعمال اللغة إلى نتائج خطيرة، "فلم يزل الغلط ينتشر فى الناس ويستطير، حتى وقع بهم فى تصحيف المشهور من حديث النبى ﷺ ، واللحن فى الواضح المتداول منه، وتعمد الوقف فى مواضع لا يجوز الوقف عليها، من كتاب الله عز وجل، وتغيير أشعار العرب وتصحيفها، وتصنيف كتب الفقه وغيرها ملحونة، تقرأ كذلك فلا يؤبه إلى لحنها، ولا يفطن إلى غلطها، بل إذا سمعوا الصواب أنكروه ونافروه لطول ما ألفوا فقده، وركبوا ضده"[1].

ويسوق ابن مكى بعض الأمثلة التى تدل على انتشار اللحن فى لغة أهل صقلية، ونلاحظ أن هذه الأمثلة كلها من أخطاء خاصة الناس وليس عامتهم. يقول ابن مكى[2]: "ولقد وقفت على كتاب بخط رجل من خاصة الناس وأفاضلهم فيه: "وأحب أن تشتهد لى فى كذا وكذا "بالشين يزيد

---

(١) تثقيف اللسان ص٤١ – ٤٢.

(٢) المصدر نفسه ص٤٢ – ٤٣.

(تجتهد). ورأيت بخط آخر أكبر منه وأعلى منزلة بيت شعر على ظهر كتاب، وهو قول الشاعر:

زوامــلُ للأصــفار لا علــمَ عــندهم بجــيّدها إلا كعلــمِ الأباعــرِ

كتبه "للأصفار" بالصاد. وأكثر الرواية فيه (للأشعار).

وكتب إلى آخر من أهل العلم رقعة فيه: قد عزمت على الإيتيان إليك بزيادة ياء. وشهدت يوماً رجلاً قبله تخصص وفقه وحفظ الأخبار، والأشعار وقد سمع كلاما فيه ذكر الشدق، فلما سمعه بالدال — غير معجمة — أنكره وتعجب من أن يجوز ذلك، وليس يجوز سواه، ثم سألنى، ورغب إلى أن أجمع له مما يصحف الناس فى ألفاظهم، وما يغلط فيه أهل الفقه، ما قدرت على جمعه، فأجبته إلى ما سأل".

ويدل هذا الكلام على أن الغرض الأساسى من تأليف الكتاب هو التصحيف ومعالجة أخطاء الفقهاء ولكن ابن مكى رأى أن ذلك ليس كافيا — فى ذاته لإصلاح ما فسد فى أمر اللغة فى بيئته، فأضاف إلى ذلك غيره من الأغاليط التى سمعها من الناس على اختلاف طبقاتهم، مما لا يوجد فى كتب المتقدمين التنبيه على أكثره لأن كل من ألف كتاباً فى هذا المعنى، فإنما نبه فيه على غلط أهل عصره وبلده وأهل البلدان مختلفون فى أغاليطهم، فربما يصيب هؤلاء فيما يغلط فيه أولئك وربما يصيب أولئك فيما يغلط فيه هؤلاء، وربما اتفقوا فى الغلط[1].

وفيما ذكره ابن مكى ما يدل بوضوح على أهمية كتابه، فلو كان قد اقتصر فيه على تناول ظاهرة التصحيف بصفة عامة لما أوليناه هذا الاهتمام، ولكنا قد نظرنا إليه على اعتبار أنه ترديد لكلام من ألفوا فى التصحيف قبله، ولكن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب تأتى من كونه كتابا متخصصا بلغة أهل

---

(١) تثقيف اللسان ص٤٢ – ٤٣.

عصرنا، يبحث فى موضوع يرتبط ببيئة معينة وليس بكل البيئات، وكان ابن مكى على صواب كبير بل لعله أصاب كبد الحقيقة عندما قال: "إن كل من ألف كتابا فى هذا المعنى، فإنما نبه فيه على غلط أهل عصره وبلده، وأهل البلدان مختلفون فى أغاليطهم"[1].

وقد سلك ابن مكى مسلكاً علمياً فى كتابه، واستطاع أن يطبق فكرة "التخصص البيئى" بشكل واضح، فاستقى مادة كتابه من الأخطاء التى سمعها تتردد على ألسنة أهل بلده، ويرى د. عبدالعزيز مطر أنه قد سلك طريقاً سليماً فى الملاحظة المباشرة لما ينطق به أهل بيئته[2]، وتأتى هذه الأخطاء التى جمعها على ثلاثة مستويات، أحدها مالا يجوز مطلقاً فى لسان العرب، والثانى ما يجوز ولكن غيره أفصح منه، والناس لا يعرفون هذا الأفصح، والثالث ما كان مستعملاً وهو غير فصيح ولكنه جائز وأنكر الناس جوازه، ويرى أن إنكار الجائز غلط[3].

ولم يقتصر ابن مكى على مجرد حصر الأخطاء ومحاولة تصحيحها بل أضاف إلى ذلك ما تعلق به من الأوزان والأبنية والتصريف، والاشتقاق، وشواهد الشعر، والأمثلة والأخبار[4] ثم أضاف إلى ذلك أبواباً مستطرفة، ونتفا مستملحة وأصولاً يقاس عليها ليكون الكتاب تثقيفاً للسان، وتلقيحاً للجنان، ولينشط إلى قراءته العالم والجاهل، ويشترك فى مطالعته الحالى والعاطل[5].

وعلى هذا النحو فقد أراد ابن مكى لكتابه أن يكون "تثقيفاً للسان" بما يضم من تصحيح للأخطاء اللغوية التى شاعت بين العامة والخاصة فى صقلية

---

(١) تثقيف اللسان ص٤٣.

(٢) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٣٤.

(٣) تثقيف اللسان ص٤٤ - ٤٥.

(٤) تثقيف اللسان ص٤٥.

(٥) المصدر نفسه ص٤٥.

فى القرن الخامس الهجرى، وأن يكون "تلقيحاً للجنان" بما تضمنه من شرح لما يجـرى على الألسنة من أمثال سائرة، ومن تفسير طائفة من أبيات الشعر ظاهر لفظهـا مخالـف لمعـناها، إلى غـير ذلـك مـن الموضـوعات التـى اشـتمل علـيها الكتاب[1].

وقسم ابـن مكـى كـتابه إلى خمـسين بابـا تحـدث فيها عن التصحيف والتـبديل والتأنـيث والتذكير والتصغير .. إلخ. وخصص أبواباً تحدث فيها عن غلـط قـراء القرآن وغلط أهل الحديث، وأهل الفقه، وأهل الوثائق، وأهل الطب وأهل السماع. [2].

وقد أودع ابن مكى فى كتابه خلاصة آرائه اللغوية وهى تدل بحق على اتـساع ثقافـته اللغـوية، كمـا أودع فيه آراء بعض العلماء الصقليين مما يزيد من أهمـية الكـتاب، وفـى رأيى أن الكتاب ما يزال جديراً بدراسة لغوية موضوعية تكشف لنا كثيراً من حياة اللغة العربية فى صقلية مما لايزال غامضاً حتى الآن.

وتـتردد طـريقة ابـن مكى فى عرض مادته بين الإيجاز والإطناب، وإن كـان يمـيل أكثـر إلى الإيجـاز، فهـو فـى حالات كثيرة يقتصر على ذكر الخطأ والـصواب، مـع حرصـه غالـباً علـى ضـبط العـبارة. وهـو يذكـر الخطأ بقوله: ويقولـون، ويـصححه بقـوله: "والصواب" وفى حالات أخرى كثيرة يتبع اللفظ الـصواب شـاهداً أو أكثـر مـن القـرآن أو الحـديث أو الـشعر، أو الأمـثال، أو الأقـوال، وقـد يـسوق بعض الأخبار المتعلقة بما ذكره من تصحيح، وقد تقتضى طبـيعة المـادة أن يطـنب فيها كالباب الذى عقده لما يجرى فى ألفاظ الناس ولا يعـرفون تأويلـه، فهـو يـشرح اللفـظ واشـتقاقه وموضـع استعماله، ويشرح المثل ويفصل مورده[3].

---

(١) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٣٩.
(٢) تثقيف اللسان ص٤٥ – ٤٧.
(٣) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٣٩.

ويميل ابن مكى فى أسلوبه إلى السجع وإن كان لا يطغى على الكتاب، كما نلاحظ تواضعه الجم فى مواطن كثيرة من كتابه.

ومن دراستنا لكتاب ابن مكى نخرج بنتيجة هامة، وهى أن صقلية كانت تنفرد بلهجة معينة تختلف عن لهجة المشارقة ولهجة الأندلسيين، ويرى د. عبدالعزيز مطر أن هذه اللهجة كانت تتميز بخصائص معينة فى الأصوات، وفى الصيغ، وفى دلالة الألفاظ[1].

ففى الناحية الصوتية نلحظ أنهم كانوا يخلطون بين الضاد والظاء فى النطق، كما يحدث فى بعض اللهجات العربية الحديثة. وقد نص على ذلك ابن مكى بقوله[2]: "حتى لا تكاد ترى أحداً ينطق بضاد ولا يميزها من ظاء، وإنما يوقع كل واحدة منها موقعها، ويخرجها مخرجها الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير، فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرقون بينهما فى كتاب ولا قرآن".

ومن مميزات هذه اللهجة أنهم كانوا ينطقون بالجيم الشديدة المجهورة التى تشبه الجيم القاهرية الآن، ولعل النطق بهذه الجيم جعل عامتهم وخاصتهم يختلفون فى كتابة اسم البلد الصقلى (جرجنت)، فالخاصة يكتبونها بالجيم والعامة يكتبونها بالكاف.

كما كانوا ينطقون بالباء المهموسة فى بعض الكلمات المُعَرَّبة، مثل: بليذ والبلاذة، وتميزت لهجتهم كذلك بترقيق الأصوات، فكانوا يقولون (منتقة) بدلاً من (منطقة) و(سراحا) بدلاً من (صراحا)، كما كانوا يتخلصون من الهمز بالحذف أو الإبدال، فيقولون: مليت الإناء، وخبيت الشىء بدلاً من ملأته وخبأته، ويقولون (فقعت عينه) بدلاً من فقأت"[3].

---

(1) المرجع السابق ص١٤٨.
(2) تثقيف اللسان ص٩١.
(3) المصدر نفسه ص٧٤ - ٧٦ (باب التبديل).

وكانوا يميلون الفتحة الطويلة نحو الكسرة الطويلة كما فى قولهم: خبيز وحميض ونيب بدلاً من خباز وحماض وناب[1]. ولا تزال هذه الكلمات تنطق ممالة فى اللهجات العربية المعاصرة[2].

أما فى الصيغ، فكانوا يحركون الاسم الساكن الوسط، بالفتح، فيقولون: السمن، والبقل، والضرع، والبحر، والبغل .. إلخ[3].

وكان المبنى للمجهول من الثلاثى الأجوف يصاغ عندهم — كأهل الأندلس — على وزن أفعل، فيقولون: أبيع الثوب، وأزيد فى ثمنه، والصواب بيع وزيد[4].

كما كانوا يضمون الميم من اسم الآلة الذى على وزن مفعال، فيقولون: مفتاح ومصباح، ومسمار، ومسواك[5].

وكانت لهم فى التصغير قواعد خاصة كأن يصغروا الثلاثى المذكر بتشديد ياء التصغير مثلا وما شابه ذلك مما ذكره ابن مكى فى باب غلطهم فى التصغير[6].

أما فى التأنيث فقد سلكت لغة العامة مسلكا موحداً فى التذكير والتأنيث بالنسبة للكلمات الواردة فى اللغة بالوجهين، وكانوا يلحقون الكلمات المؤنثة، التى وردت فى اللغة خالية من التاء، يلحقونها التاء، فيقولون : عروسة وعجوزة .. إلخ[7].

---

(١) نفسه ص٢٩.

(٢) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٥٥.

(٣) تثقيف اللسان ص١١٥ باب (ما جاء ساكنا فحركوه).

(٤) تثقيف اللسان ص١٥٣ (باب ما غيروه من الأفعال بالزيادة).

(٥) المصدر نفسه ص٣٢٤.

(٦) نفسه ص١٨٣.

(٧) تثقيف اللسان ص١٧٤ وما بعدها، وأنظر لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٥٩.

وفي دلالة الألفاظ تطورت عندهم معاني كثير من الكلمات، فخصص العام، أو عمم الخاص، أو تغير مجال الاستعمال[١].

ولابن مكي آراء واضحة محددة، ويتبين لنا من دراسته في هذا الكتاب أنه يميل إلى التوسع في قبول ما نطقت به العامة، وكان جارياً على لهجة عربية معروفة، ويتبين هذا المسلك بوضوح في الباب الذي عقده لما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر، كما يدل عليه باب (ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما) وباب (ما جاء فيه لغتان فتركوها واستعملوا ثالثة لا تجوز)، ومفهوم هذا كله إجازة ما جاءت به لهجة من اللهجات المعرفة، وأوضح هذه الأبواب دلالة على مسلك ابن مكي في التوسع في قبول كثير مما أنكره غيره، هو باب (ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر)[٢].

والواقع أن كتاب ابن مكي يعد من الأهمية اللغوية بمكان، وكما يقول د. إحسان عباس، "فليس لدينا ما هو أصدق من هذا الكتاب تعبيراً عن الشعور باستقلال صقلية في طابعها اللغوي في كل ما خلفه الصقليون وربما التزمنا هذا الثناء لأنه رمز لوعي قومي في نفس مؤلفه، ودليل على معاناته تجربة الرصد والتحري والإصغاء لما يقرأ ويسمع، وربما استحق صاحبه تقديرنا لخضوعه للإشراف العلمي الصحيح، وأخذه بتوجيه أستاذه"[٣].

وقد لقي كتاب ابن مكي تقدير كثير من العلماء، فوصفه القفطي بأنه "في نهاية الملاحة والبيان، يدل على وفور حظه من هذا الشأن"[٤].

ووصفه السيوطي بأنه "دال على غزارة علمه وكثرة حفظه"[٥]. وألف ابن هشام اللخمي كتابا سماه "المدخل إلى تقويم السان" علق فيه على كتابي

(١) المصدر نفسه ص١٩٧ وما بعدها باب (ما وضعوه في غير موضعه) وما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد) و(ما جاء لواحد فأدخلوا معه غيره) وانظر لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية ص١٦٠ - ١٦١.

(٢) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٤٣.

(٣) العرب في صقلية ص١١١.

(٤) إنباه الرواه ٣٢٩.

(٥) بغية الوعاة ص٣٦١.

تثقيف اللسان لابن مكى، ولحن العامة للزبيدى[1]. وقد نقل ابن هشام كثيراً مما جاء فى كتاب ابن مكى. ومما يدل على ثقة ابن هشام فى ابن مكى أنه استشهد بما جاء فى (تثقيف اللسان) أثناء رده على الزبيدى[2].

وقد ترك كتاب ابن مكى آثاراً عميقة فيمن جاءوا وبعده، ومن الكتب التى تأثرت به ونقلت عنه كتاب (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) للصفدى (ت ٧٦٤هـ)، كما نقل عنه ابن دحية الكلبى (ت ٦٦٣هـ) وذلك فى كتابه (المطرب من أشعار أهل المغرب) ونقل عنه يحيى النووى (ت ٦٧٦هـ) فى كتابه (تهذيب الأسماء واللغات)، والعماد الحنبلى فى كتابه (شذارات الذهب)[3] وغيرهم.

العلوم العقلية والطبيعية :

قبل أن نتعرف على حال العلوم الفلسفية فى صقلية نبادر فنقول إن موقف هذه العلوم فى كل من المغرب والأندلس كان ضعيفاً، ويحاول أحد الباحثين أن يعزو أسباب هذا الضعف إلى استمرار الثورات والفتن فى هذين الإقليمين مما جعل المجتمع لا يتمتع بفترة كافية من الاستقرار الذى لابد منه للنهوض والتقدم الحضارى والفكرى ويرى أن من هذه الأسباب كذلك انصراف المسئولين ورجال الدولة فى المغرب إلى تنمية القوة العسكرية للمحافظة على مراكزهم أكثر من انصرافهم إلى الاعتناء بالثقافة والفكر[4].

وهذه الأسباب التى يرددها الباحث لا يمكن أن تؤدى إلى انكماش الثقافة العلمية والفلسفية وحدها دون غيرها من الثقافات كما يزعم هذا الباحث ولو كانت هذه الأسباب صحيحة فى ذاتها لما أمكن أن تحرز العلوم الأخرى

---

(١) أنظر حولية كلية البنات - جامعة عين شمس - العدد السابع - ١٩٧٣ ص٨٥ وما بعدها.
(٢) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٦٥.
(٣) المرجع السابق ١٦٥.
(٤) عصر القيروان ص٣٦.

كاللغة والفقه ما أحرزته من تقدم وازدهار، بل ولما أمكن أن ينمو الشعر ويزدهر في هذه الأقاليم على هذا النحو الذى نعرفه.

والواقع أن هناك أسباباً أخرى أدت إلى تأخر الفلسفة فى الأندلس والمغرب، لعل أهمها موقف الحكام المتشدد ضد تيار الفلسفة، ومحاربة الفقهاء ورجال الدين لها، لأنهم كانوا يعتقدون بأنها تفسد عقائد الناس، وتزرع الشك فى نفوسهم، ولذلك فقد ظلت الفلسفة — لفترة طويلة — تُعد من ألوان النشاط الفكرى المحرمة، وكان المشتغلون بها يتهمون بالزندقة ويعاقبون بالقتل أو النفى خارج البلاد، وفى ذلك يقول المقرى فى نفح الطيب[1]: "إن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظا عند خواصهم، ولا يتظاهرون بها خوف العامة، فإنه كلما قيل — فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت".

وإذا كانت تلك هى نظرة الأندلسيين والمغاربة إلى الفلسفة، فلا شك أن صقلية قد تأثرت بتلك النظرة، وقد وضح هذا التأثر فى عدم الإقبال على الفلسفة ولكن نظرة الصقليين إلى الفلسفة لم تصل إلى حد الغلو على نحو ما رأينا فى الأندلس، والدليل على ذلك أنها لم تغلق أبوابها فى وجه من هاجر إليها من فلاسفة الأندلس الذين طردوا منها، وخير شاهد على ذلك هجرة أبى عثمان سعيد بن فتحون السرقسطى إليها، فقد امتحن من قبل المنصور بن أبى عامر فسجن ثم أطلق سراحه فهاجر إلى صقلية واستقر بها إلى أن وافته المنية سنة ٤١٠هـ وقد وصف ابن فتحون بأنه كان متمكناً من علوم اللسان، وألف فى

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٣٦.

العروض مختصراً ومطولاً، وله حظ من علوم الفلاسفة[1]، وله رسالة فى المدخل إلى علوم الفلسفة سماها (شجرة الحكمة)، ورسالة فى تعديل العلوم وكيف درجت إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض، ويبدو أنه كان من أساتذة ابن الكتانى مؤلف كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس)[2].

ولا نكاد نظفر بشيء من المعلومات عن فلاسفة من صقلية فيما عدا ما يذكره القفطى من أن فيلسوفاً صقلياً اسمه غراب كان من أهل جزيرة صقلية، وكان عنى من الفلسفة بصناعة الخطابة المنتجة للإقناع، وقام بها إلى أن مهر فيها وتقدم على أهل زمانه وسار إليه الطلبة لاستفادة ذلك منه[3].

ويحتفظ له القفطى بقصة طريفة يقول فيها: وكان من جملة قاصديه فتى من يونان يقال له تيسناس، ورغب إليه فى تعلم الخطابة وضمن له عن ذلك مالاً معيناً فأجاب برغبته وعلمه، فلما لقنها حاول الغدر به ورام فسخ ما وافقه عليه فقال له: يا معلم حد لى الخطابة، فحد بأنها مفيدة للإقناع، فتمسك بالحد وبنى عليه قياسا، وقال: إننى أناظرك الآن فى الأجرة، فإن أقنعتك بأنى لا أدفعها إليك لم أدفعها، إذ قد أقنعتك بذلك، وإن لم أقدر على إقناعك فلست أعطيك شيئاً لأنى لم أتعلم من الخطابة التى هى مفيدة الإقناع فأجابه المعلم وقال : أنا أيضاً أناظرك، فإن أقنعتك بأنه يجب لى حقى منك أخذته أخذ من أقنع وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك إذ قد أنشأت تلميذاً يستظهر على معلمه، فقال له بعض من حضر: بيض ردى لغراب ردى أى تلميذ نكد ومعلم نكد"[4].

(١) بغية الوعاة ص٢٥٦.
(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص٣٢٣.
(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٦٨.
(٤) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٦٨.

وهـذه القـصة واضـحة الدلالة على أنه كان للخطابة شأن غير قليل فى صقلية وإن كانت المصادر قد بخلت علينا بما يمكن أن يزيد الصورة وضوحاً.

أمـا العلـوم الطبيعية، فمن المؤكد أنها لم تكن مفقودة بالمرة فى صقلية، وتـشير المـصادر إلى أسمـاء بعـض مـن كانوا يزاولون مهنة الطب أو الهندسة أو التنجـيم ومـن هـؤلاء محمـد بـن عيسى بن عبدالمنعم من أهل صقلية، وكان من أصـحاب العلـم بعلمـى الهندسـة والـنجوم، ماهر فيهما، قيم بهما، مذكور بين الحكمـاء هـناك بأحكامهمـا[1]. وذكـر صـاحب الخـريدة أنـه كاتب شاعر ماهر مهـندس مـنجم[2] ومنهم أبو عبدالله محمد بن الحسن بن القرنى ذكر أنه منجم حاسـب كاتـب[3] وأبـو حفـص عمر بن الحسن بن العونى ذكر أنه لغوى شاعر كاتب منجم مهندس[4].

ونلاحـظ أن أولـئك جمـيعاً لم يتخصـصوا فـى علـم بعينه، وإنما كانوا يشتغلون بأكثر من علم فى وقت واحد. وكذلك كان الحال فى الطب أيضاً، فقد اطلـع المـازرى علـى علـم الطب، وكان يفزع إليه فى الفتيا فى الطب كما يفزع إلـيه فـى الفتـيا فـى الفقـه[5]. واشـتهر أبـو عبدالله بن الطوبى بأنه كان طبيباً مترسـلاً شـاعراً[6]، وذكـر ابـن القطـاع أنه أربى فى الطب على ماسويه[7]. كما جمـع ابـن المعلم الصقلى (المتوفى سنة ٥٣٢هـ) بين إجادة النحو والطب وتعبير الـرؤيا ويـبدو أنـه برع فى الأخيرة براعة كبيرة، وقد احتفظ لـه السلفى بتفسير

(١) المصدر نفسه ص١٨٩.
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر ٣٧/١/٤.
(٣) المصدر نفسه ١٠٩/١/٤.
(٤) نفسه ١٢٠/١/٤.
(٥) المختصر فى الفقه لخليل بن إسحاق، المكتبة الصقلية ص٦٧ – ٦٨.
(٦) الخريدة ٥٦/١/٤.
(٧) إنباه الرواه ٣/ ١٠٧.

طريف لأحد المنامات فقال: "قلت لابن المعلم الصقلى: رأيت فى المنام كأنى أطعم والدتى حلواء ثم ألصق أصابعى فلا أجد لها الحلاوة الصادقة، فقال:

هو خير يصل منك إليها وهو المخصوص به، فقلت: صدقت، فإنى بعد صلاة المغرب أصلى ركعتين أقرأ فى كل ركعة الفاتحة وسورة الإخلاص ست مرات، والمعوذتين مرة، وأهب ثوابها لوالدتى. فقال: هو ذاك"[1].

ولعل أشهر أطباء صقلية هو أبو عبدالله الصقلى الذى كان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص العقاقير والأدوية[2]، وقد هاجر هذا الطبيب إلى قرطبة فى زمان الخليفة عبدالرحمن الناصر، وأسهم مع بعض الأطباء فى ترجمة كتاب العقاقير لديوسقوردس[3]. وهو يعطينا فكرة عن مبلغ ما وصل إليه أزدهار العلوم — ولاسيما الطب — فى صقلية. وفى ذلك يقول أحد الباحثين: أنجبت صقلية كثيراً من العلماء والمثقفين وأصبحت فى عصر ازدهارها المتفق فى الزمان تقريباً مع الازدهار فى المغرب، أصبحت فى عصرها هذا يضرب المثل بمثقفيها جودة وعلماً، فيقال: "فلان تلقى علمه فى صقلية" وما يزال حياً إلى اليوم فى كلامنا العامى ما يؤكد هذه الحقيقة، حيث يقولون "الطبيب الصقلى" تعظيماً للطبيب الماهر وتقديراً لعلو مقدرته، ولا شك أن هذا منحدر من عصر الازدهار الذى وصلت إليه صقلية"[4].

---

(١) معجم السفر ورقة ٢٦١.
(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وانظر المكتبة الصقلية ص٦٢٢.
(٣) المصدر السابق ص٦٢٣.
(٤) عصر القيروان ص٣٥ – ٣٦.



الشعـــر

الفصل الأول : المؤثرات العامة فى الشعر الصقلى

الفصل الثانى : الطابع العام للشعر الصقلى

الفصل الثالث : موضوعات الشعر التقليدية

الفصل الرابع : السمات الفنية فى الشعر الصقلى





المؤثرات العامة فى الشعر الصقلى

- المؤثرات المشرقية
- المؤثرات المغربية
- المؤثرات الأندلسية

المؤثرات المشرقية

أولاً : أسبابها وبواعثها

ثانياً : مظاهرها

١- احتذاء القصيدة القديمة

- المطالع التقليدية
- الجو البدوى
- الصور والتشبيهات القديمة
- احتذاء الشكل

٢- المعارضات

٣- المناظرات



المؤثرات المشرقية

أسبابها وبواعثها :

خضع الشعر الصقلى فى بعض مظاهره للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً وساعد على ذلك عوامل كثيرة لعل أهمها أن الأساس الأول للثقافة والأدب فى المغرب والأندلس هو القرآن وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلى تماماً كما كان الأمر فى المشرق . ثم إن العنصر البشرى الذى كون الأدب فى المشرق كان هو نفسه الذى كونه فى المغرب والأندلس، ونحن نعلم أن الجيوش العربية التى فتحت المغرب والأندلس قد استقرت فيهما، ومالبثت القبائل العربية أن توافدت على المغرب والأندلس وظلت الهجرة أمامها مفتوحة طوال القرون الخمسة الأولى للإسلام، وكان فى طليعة الوافدين من قبائل عدنان وربيعة وغطفان وتميم وكنانة وقيس وتغلب. وكانت أغلبية العرب الوافدين عدنانيين[1].

فالعناصر الأساسية الأولى التى كونت الثقافة العربية وخاصة الأدب العربى فى المشرق والمغرب كانت واحدة، وهى العنصر الدينى والعنصر البشرى والعنصر السياسى واللغوى، وإذن فلا غرابة فى تشابه وحدة الثقافة والأدب فى المشرق والمغرب، ذلك أن المثال المحتذى قد كان واحداً هنا وهناك، فهو بمثابة الشجرة أصلها واحد فلا يمكن أن تختلف طبيعة ثمارها، وإن اختلفت ألوانها[2].

ومما أسهم فى هذا التشابه أيضاً هجرة عدد كبير من أدباء المشرق إلى صقلية وهجرة كثير من الصقليين إلى المشرق إما لتلقى العلم أو بحثاً عن المجد والشهرة هناك.

---

(١) عصر القيروان ص٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧ .

ومن تلك الأسباب أيضاً انتشار دواوين وأشعار الشعراء المشارقة بين شعراء صقلية وإقبال الصقليين على تلك الدواوين والأشعار بالحفظ والدرس والتحليل والشرح.

وربما أسهمت الأحوال السياسية فى صقلية فى تقوية هذا التأثير المشرقى فالصراع بين العرب المسلمين وبين الأعاجم النصارى كان شديداً، وكان الصقليون يشعرون بأنهم حماة للإسلام فى تلك الجزيرة النائية، فكان هذا الموقف السياسى والدينى يدعو إلى التمسك فى بعض المواقف بالتقاليد العربية الموروثة، والحفاظ على تراث المسلمين، ومن ثم استقر فى نفوس الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة، وحرصوا على أن يظل شعرهم موصولاً بماضيه.

يضاف إلى هذا ما لاحظه د. أحمد هيكل وهو بصدد دراسته للشعر الأندلسى من أن العرب كانوا ينتقلون إلى أى إقليم جديد، وفى مخيلاتهم عالم مثالى، هو ذلك العالم الذى عاش فيه آباؤهم الأقدمون، حيث الصحراء والبوق والبان والكثبان، والجآذر والآرام، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التى تؤلف لوحة البادية، عالم العرب المثالى الأسطورى، وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم فى عالمهم ذاك المثالى الأسطورى، وأن قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتى بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأوائل[1].

والحق أن الشعر المشرقى قد حظى بجاذبية غريبة فى البيئات الثلاث: المغرب والأندلس وصقلية، فوقع الشعراء فى أسر المشرق، وداروا فى فلك آدابه حتى لنجد ناقداً مثل ابن بسام يضيق بهذه الظاهرة فيقول:[2]

"إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام

(١) الأدب الأندلسى، د. أحمد هيكل ص٩٨ .

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ١/١ ص٢ .

والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكماً، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية، ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظنى منهم ذلك، وأنفت مما هنالك..".

ولقد وقف الباحثون المحدثون مواقف متباينة إزاء هذه الظاهرة، فالدكتور شوقى ضيف يرى أن انجذاب الشعراء إلى المشرق قد جعلهم يعيشون فى إطار الشعر العباسى العام، معيشة مضطربة ويرى أنه "كان حريا بالشعراء أن ينحوا عن شعرهم كل ما هو عتيق، غير أن التفكير الفنى عند العرب كان قد فقد مقدرته على الابتكار والتجديد"(1).

ويميل غرسيه غومس إلى مثل هذا الرأى، فيتهم الشعر العربى بقلة الصدق والتقليد والجرى على المألوف والمطروق "لأن شاعرهم يجد نفسه – قبل أن يبدأ فى صوغ أبياته – مقيداً بمثل ومواضيع وضعها له السابقون كما وضعوا الأوزان والبحور التى لا يمسها تعديل أو تغيير ولا يتعداها شاعر قط"(2).

ويقف د. جودت الركابى من هذه الظاهرة موقفاً آخر، فيرى أن تراثنا تراث إنسانى واسع، وأن عودتنا إلى آثارنا القديمة: إلى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى، إلى هذا الأدب الإنسانى الواسع دليل على رغبتنا فى المحافظة على إنسانيتنا الأدبية، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفنى هذا حق لنا أن نقول إن كل أديب عربى سواء أكان شرقياً أم أندلسياً، كان يرمى إلى هذه النزعة الإنسانية فى آثاره ودراساته، وقراراته إذا أراد لإنتاجه ولفنه النجاح(3).

وفى ظنى أن النظر إلى الشعر الصقلى أو الأندلسى على أنه مجرد محاكاة للشعر المشرقى أو صدى خافت له إسراف فى الرأى، فقد كان من الطبيعى أن يكون ارتباط هذين الإقليمين بالمشرق ارتباطاً قوياً، وصقلية – مثلها

---

(1) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٣٦.
(2) الشعر الأندلسى لغرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس ص٤١.
(3) فى الأدب الأندلسى، د. جودت الركابى ص٦٧.

مثل الأقاليم الأخرى التى فتحها المسلمون - كانت جزءاً من الدولة الإسلامية، وإذا كان موقعها الجغرافى فرض عليها أن تنفصل مكانياً عنها، فإن ذلك لم يكن يعنى أنها انفصلت عن التراث العربى، بل ظلت الصلة قائمة، والوشائج متصلة. ولا ينسحب هذا على صقلية وحدها ولكنه ينسحب أيضاً على الأقاليم الأخرى التى فتحها المسلمون "فهذه الأقاليم لم تنفصل عن الدولة الإسلامية كما تنفصل الأعضاء عن الجسد بل هى ثمرات ناضجة سقطت من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها"[1].

وما دمنا نؤمن بأن العناصر الأساسية التى كونت الأدب العربى فى المشرق والمغرب قد كانت واحدة، ومادامت الأقاليم العربية قد اتجهت نحو قبلة واحدة فى الدين والحياة الفنية، فمن الطبيعى أن يكون تأثرها بالمشرق قوياً، وأن يكون ماضيها موصولاً بحاضرها، ومن ثم فمن الخطل فى الرأى أن نتحدث عن تقليد المغرب للمشرق، وأن نرى فى تأثر أحدهما بالآخر مجرد تقليد ومحاكاة.

مظاهر التأثير المشرقى فى الشعر الصقلى:

نبع الشعر الصقلى من بحر الشعر المشرقى فلا غرو أن يتأثر به وأن يحتذيه وقد اتخذ هذا التأثر أشكالاً وصوراً متعددة، لعل أهمها المحافظة على نمط القصيدة العربية القديمة فى منهجها ومظهرها، فسار الشعراء على الطريقة القديمة فى البدء ببكاء الأطلال من مثل قول ابن حمديس:[2]

قفْ وقوف الحيا بدمنة ربع ... ضيعٌ الدمع فيه رسمٌ مُضيعْ

دارس لاتزال غير السوافى ... تفرق التربَ فيه لُمت تجمع

ويقف على الأطلال فى قصيدة أخرى يقول فى مطلعها:[3]

---

(1) المعجزة العربية تأليف، ماكسى فانتاجو، ترجمة رمضان لاوند ص٦٢.

(2) ديوان ابن حمديس ص٣٠٥ .

(3) نفسه ص٣٠٧ .

أيا جزعى بالدار إذ عن لى الجزع ... وقاد حمامى من حمائمه السجع
وعاودنى فيها رداعى ولم أشم ... ترائب عواد يضمخها الردع
وقفت بها والنفس فى كل مقلة ... تذوب بنار فى الضلوع لها لذع
طلول عفت آياتها فكأنما ... غرابيبها جزع وأدمانها ودع

ويسلك الفقيه عيسى بن عبد المنعم الصقلى مسلك ابن حمديس فى البدء بالوقوف على الأطلال، فيقول:[1]

قف باللوى المنعرج ... وناد يا ركب عج
واسأل سليمى أين با ... ن ركبها بالمدلج

ووجدت الثورة على المقدمات الطللية أصداء لها فى الشعر الصقلى، فرفع لواءها بعض الشعراء محاذاة للشعراء المشارقة على نحو ما نرى عند ابن القطاع إذ يقول:[2]

فلا تنفدن العمر فى طلب الصبا ... ولا تشقين يوماً بسعدى ولا نعم
ولا تندبن أطلال مية باللوى ... ولا تسفحن ماء الشئون على رسم

ويلتزم ابن حمديس بطريقة أبى نواس فى البدء بالحديث عن الخمر تاركا وصف الطلول فيقول:[3]

خلعت على بنيات الكروم ... محاسن ما خلعن على الرسوم
أخذت بمذهب الحكمى فيها ... وكيف أميل عن غرض الحكيم
وما فضل الطلول على شمول ... تمج المسك فى نفس النسيم

ومن مظاهر التأثير المشرقى أيضاً مجاراة القصيدة العربية فى تلك المطالع التقليدية التى يتكئ عليها الشاعر للوصول إلى غرضه المطلوب من مدح أو رثاء أو فخر ومن أمثلتها قول أبى يوسف يعقوب بن على الزبيدى فى مطلع إحدى قصائده[4].

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ٣١/١/٤.
(٢) نفسه ٥١/١/٤.
(٣) ديوانه ص٤٣٥. والحكمى هو أبو نواس، أى هو على مذهبه فى تفضيل وصف الخمر على الطلول.
(٤) عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب ١٣٥/١ ى.

أبيت وجفني من جفانك نائم | وقلت بما قالته فيك اللوائم
وعهدي بذاك الدر غير مثقب | فكيف أجادته بفيك النواظم

ويسير أبو الحسن البلنوبي في الاتجاه نفسه فيفتتح إحدى مدائحه بقوله[1]:

لحظات من شبيهات الدما | صرعتني بين ظلم ولمى
بعد ماقلت تناهت صبوتي | رجعتني مستهاما مغرما
لائمي أقصر فإني كلما | زدت لوما زاد سمعي صمما

ولم تكن تلك المطالع سنة متبعة أو صفة لازمة في جميع القصائد أو عند جميع الشعراء فكثيرا ما كان الشعراء يستغنون عنها حتى في قصائد المدح، فيتناولون موضوعاتهم دون تقديم أو تمهيد.

وكان من مظاهر هذا التأثير أيضاً التفات بعض الشعراء إلى الحياة العربية، والتقاط كثير من صورهم ومعانيهم وتشبيهاتهم من مادتها وعالمها البدوي، فأفاضوا في وصف الصحراء، والناقة، والأثافي، ورددوا كثيراً من الأسماء البدوية. وقد تنبه فون شاك إلى هذه الظاهرة في الشعر الصقلي فقال[2]:
"وحين انتقل الشعر العربي إلى صقلية من المشرق لم يتغير إلا تغيرا طفيفاً وبقي دائماً مشرقياً في مظهره، ففي هذه الجزيرة الجميلة نجد العرب يكتبون شعرا عن الصحراء والبدو والإبل بالرغم من أن هذه الأشياء لم تكن موجودة هناك. لقد تكلموا وهم في صقلية عن صنعاء، ولم يتكلموا عن بالرمو، وكتبوا عن الحيرة وغسان كما لو كانتا أجمل بقاع الدنيا".

ونستطيع مما يقوله شاك أن نتصور مدى تغلغل التأثير المشرقي في الشعر الصقلي. والشواهد على ذلك كثيرة، فابن حمديس يصف النوق وصفا

---

(1) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة لأبي إسحاق بن أغلب - نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ - تاريخ المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية - ورقة ١٠٧.

(2) Poesie and Kunst der Araber in Spanien and Sicilien, Vol. 2 - P. 13 - 14 by Schack.

يجعلنا نحس بأننا إزاء شاعر جاهلي يسترفد صوره ومعانيه من بيئته الجاهلية ، فمن ذلك قوله[1]:

وداخلات على الظلماء سبسبها ... بكل خرق عريق في العلى ندس
كأنها وهي ترمي المقفرات بهم ... من الوجيف نبال والهزال قسي
مثل الحواجب لاذت وهي ظامئة ... بأعين بالفلا مطموسة درس
لا يحبس الماء إلا في ثمائلها ... تيها فتحرس نقطا بالكبود حسي
من كل دامية الأخفاف مرملة ... ترتاع من صوت حاد خلفها شرس
مستوحش من كلام الإنس تؤنسه ... من جوع من ذئاب المهمه الطلس

ونتوقف أمام صورة أخرى يتحدث فيها ابن حمديس عن النوق أيضاً فيكرر تلك الصور والمعاني والتشبيهات القديمة ، فيقول: [2]

ركبت النوى في رحل كل نجيبة ... تواصل أسبابي بقطع السباسب
قلاص حناهن الهزال كأنها ... حنيات نبع في أكف جوانب
إذا وردت من زرقة الماء أعيناً ... وقفن على أرجائها كالحواجب

وفي قصيدة أخرى يصف ابن حمديس الأثافي فيقول[3]:

ومجموعة جمع الثلاث ولم تزد ... عليه صوالي النار أوجهها سفع
لبسن حداد الثكل وهي مقيمة ... على ميت نار لا يفارقها فجع

ومن الصور البدوية أيضاً قوله يصف الذباب الذي يقع على الإبل[4]:

ومودع في المطايا لسعة حمة ... فينزع الروح تعذيباً من الجسد
يغشى السوام مناقيرا فتحسبها ... مباضعا مدميات كل مفتصد
يحك من دمها القاني يدابيد ... حك الظريف بحناء بنان يد

وتتردد في الشعر الصقلي أسماء الأماكن العربية القديمة مثل منى والعقيق والحجاز، وأسماء النساء مثل سلمى وسعدى كقول أحد الشعراء[5]:

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٢٨٥ .
(2) ديوان ابن حمديس ص٢٩ – ٣٠ .
(3) ديوانه ص٣٠٧ – ٣٠٨.
(4) ديوانه ص١٣٤ – ق٨٥ .
(5) عنوان الأريب ١/ ١٢٧ .

أي طـيف مــن لامعــات الــبروق		بـات يـسرى بـين الحمـى والعقـيق

وقول أبى الحسن البلنوبى يصف البرق[1]:

بدا البرق من نحو الحجاز مذكرا		بـسلمى وسـعدى والتذكـر ينـصب
يلـوح علـى لـون الدجـى فكأنـه		سـيوف علـى زرق الثـياب تقلـب
فللـه بـرق عـذب القلـب لمعـه		أكـل محـب بالـبروق معـذب

وفـى هـذا الجـو الـبدوى الـذى كـان الـشعر الصقلى يتنفس فيه استمد الـشعراء كـثيراً من تشبيهاتهم من البيئة الصحراوية على الرغم من أنها لم تكن بيئتهم. من ذلك قول ابن حمديس فى المدح[2]:

ويمـتح نفـس القـرن عامـل رمحـه		كما يمتح المـاء الرشـاء مـن الجـد

كمـا اسـترفد الـشعراء كـثيراً مـن المعانـى القديمة التى تعاورها الشعراء قـديماً وقـد يغـيرون علـى بعـض المعانـى المعروفة التى ارتبطت بشعراء معينين وانتسبت إليهم فنحن إذا قرأنا هذين البيتين لأبى العرب الصقلى[3]:

كـأن فجـاج الأرض يمـناك إن يـسر		بهـا خائـف تجمـع علـيه الأنـاملا
فـأين يفـر المـرء عـنك بجـرمه		إذا كـان يطـوى فى يديك المراحلا

نتذكر على الفور بيت النابغة[4]:

فإنـك كالليـل الـذى هـو مدركـى		وإن خلـت أن المنتأى عنك واسع

ويردد ابن القطاع المعنى نفسه فيقول[5]:

أنـت كالمـوت تـدرك الخلـق طـرا		مـثل مـا يـدرك الـصباح المـساء
كـيف يـرجو الـذى أخفـت نجـاء		مـنك، هـيهات أيـن مـنك الـنجاء

---

(١) المصدر نفسه ١/ ١٢٩.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٥١ والجد : البئر القليلة الماء.
(٣) مخطوط الذخيرة لابن بسام ١١١/٢/٤.
(٤) أنظر ديوان النابغة – ط بيروت ص١١٤ .
(٥) خريدة القصر ٥٣/١/٤ .

ويختلف تأثر الشعر الصقلى بالشعر المشرقى سعة وضيقاً تبعاً لأغراض الشعر وموضوعاته ويتفاوت من غرض إلى آخر، فهو فى المديح والرثاء أقرب منه فى شعر الغزل والخمر والطبيعة.

وكان تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة فى كثير من نماذج الشعر الصقلى مظهراً من مظاهر التأثر بالشعر المشرقى ويكفى أن نلقى نظرة سريعة على ديوان ابن حمديس لنرى أن كثيراً من قصائده تشتمل على الغزل والوصف والمديح فى آن واحد، ولعل هذا ما جعل صفة الطول تلازم قصائده فى أغلب الأحيان.

وعلى نحو ما تأثرت القصيدة الصقلية فى مضمونها بالشعر المشرقى، تأثرت به من حيث الشكل أيضاً، فآثر بعض الشعراء الأسلوب القديم الذى يُعنى بجزالة الألفاظ، ومتانة اللغة، وفخامة العبارة.

أما من حيث الموسيقى الشعرية فقد مال بعض الشعراء إلى البحور الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة كالبحر الطويل والكامل والبسيط، كما آثروا استعمال القوافى القوية الفخمة.

معارضة الشعراء المشارقة:

وكانت معارضة شعراء صقلية لقصائد المشارقة مظهرا من مظاهر التأثر بالشعر المشرقى فابن حمديس يعارض أمرأ القيس والمعرى وأبا تمام، وأبو البشر البلنوبى يعارض معلقه طرفة بن العبد، وابن الخياط يحتذى الأعشى فى إحدى قصائده. وأصبح شعراء المشارقة يمثلون رافداً هاماً من روافد الثقافة المشرقية التى تأثر بها شعراء صقلية.

وكان لامرئ القيس مكانة عالية عند هؤلاء الشعراء فأقبلوا على لاميته، وأولعوا بتضمينها ومعارضتها مثل ابن حمديس الذى عارضها، فقال فى وصف الزرافة[1]:

(1) ديوان ابن حمديس – ص ٣٨٠.

ونوبية في الخلق منها خلائق — متى ما ترق العين فيها تسهل
إذا ما اسمها ألقاه في السمع ذاكر — رأى الطرف منه ما عناه بمقول
لها فخذا قرم، وأظلاف قرهب — وناظرتا رئم، وهامة أيّل

ويمضي ابن حمديس في وصفه فيتتبع الدقائق والجزئيات فيصف طريقة سيرها، ويصف شعرها وأنفها.. إلخ وهو في ذلك كله يحاكي امرأ القيس وينسج على منواله ثم يختمها بهذا البيت[1]:

وكم منشد قول امرىء القيس حولها — أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

ولم يكتف ابن حمديس بمعارضة الشعراء الجاهليين بل نراه يتجه إلى شعراء العصر العباسي فيعارض بعضهم كأبي العلاء المعري وأبي تمام، وفي ديوانه قصيدة يعارض بها إحدى قصائد المعري يقول في مطلعها[2]:

أجمل على بخل الغواني وإجمال — تفاءلت باسم لا تصح به الفال

ويطرق ابن حمديس في قصيدته هذه أغراضاً متعددة، فيصف الليل ثم يتغزل فيصف المرأة وصفا تقليدياً، ويذكر امرأ القيس فيقول[3]:

وفيك على الرواض إدلال صعبة — ينال بها عز امرئ القيس إذلال
ويقسم للتقبيل فوك مصدقا — بأن التي تحوى القسيمة متفال

ثم ينتقل إلى وصف إحدى المغنيات، وتذكره هذه المغنية بصقلية فيعبر عن حنينه إليها ولكنه لا يلبث أن ينتقل فجأة إلى وصف الذئب ويفتخر بنفسه ثم يعود فيصف الناقة ثم يذكر أبا العلاء المعري الذي يعارضه في هذه القصيدة فيقول[4]:

وأركب إذ لا أرض إلا غطا مط — مطية ماء سبحها فيه إرقال
حمامة أيك مالها فوق غصنها — غناء له عند المعري إعوال[5]

---

(1) نفسه – ص٣٨٢ .
(2) ديوان ابن حمديس ص٣٥٤.
(3) نفسه ص٣٥٦ .
(4) نفسه ص٣٥٨ .
(5) إشارة إلى قول المعري في قصيدته التي يعارضها ابن حمديس:

وفى قصيدة أخرى يعارض ابن حمديس أبا تمام فى إحدى قصائده، وتبدأ هذه القصيدة بمقدمة غزلية يقول فى مطلعها[1]:

أمسك الصبا أهدت إلى صبا نجد ... وقد ملئت أنفاسه لى بالوجد

ويشير فيها إلى أبى تمام فيقول:

أحب حبيبا نجل أوس لقوله ... فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد[2]

ويظهر فى هذه القصيدة تأثره بالقديم ولاسيما فى وصف الرحلة وترديد الألفاظ الجاهلية.

ولأبى البشر البلنوبى قصيدة فى المدح يبدو فيها تأثره الواضح بمعلقة طرفة بن العبد فى وزنها وقافيتها وبعض معانيها. يقول فى مطلعها[3]:

سرى طيف من أهوى فهل هو مسعدى ... فأطلبه عنه بإنجاز موعدى

وفيها يقول:

أحس بقلبى كلما رمت ضمة ... لهيب جوى من حبه المتوقد

ولولا بروق الثغر أخفى اجتماعنا ... دجى كحل ما مس جفنا بأثمد

تفرد لم يقصد بكحل وإنما ... ترادف تكرار الحديث المردد

أما ابن الخياط الربعى فله قصيدة يقول فى مطلعها[4]:

ليس إلا تنفس الصعداء ... وبكائى وما غناء بكائى

ومن الواضح أنه ناظر فيها إلى قصيدة الأعشى:

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى، وهل ترد سؤالى

دمنة قفرة تعاورها الصيف (م) ... بريحين من صبا وشمال

فقلت تغنى كيف شئت فإنما ... غناؤك عندى يا حمامة إعوال

(١) ديوان ابن حمديس ص١٤٩.

(٢) عجز بيت لأبى تمام حبيب بن أوس وصدره:
"وأنجدتم من بعد اتهام داركم". أنظر ديوان أبى تمام ص١٢٧ - ط. الخياط.

(٣) ديوان أبى الحسن الصقلى (ابن أبى البشر البلنوبى) رواية الفقيه الخريمى بمكتبة الاسكوريال رقم ٤٦٧ ومنه صورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية ٣ ظ - ٤ ظ.

(٤) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٧.

ويتصل بظاهرة المعارضة في الشعر الصقلي ظاهرة أخرى هي ترديد أسماء الشعراء المشارقة في الشعر مثل جميل بثينة وكثير عزة وجرير والفرزدق وغيرهم فمن أمثلة ذلك قول البلنوبي[1]:

بي من هوى الإنس الذين علقتهم ... ما لم يكن بكثير وجميل

ويقول الطرابنشي[2]:

أتدري ما يقول لك العذول ... وتدري ما يريد بما يقول

يريد بك السلو وهل جميل ... سلوك عن بثينة يا جميل

ويذكر ابن حمَديس قيس بن الخطيم في قوله يصف عقرباً[3]:

لها طعنة لا تستبين لناظر ... ولا يرسل المسبار فيها طبيبها

نسيت بها قيسا وذكرى طعينه ... وقد دق معناها وجلت خطوبها

ويذكر جريراً والفرزدق في قوله[4]:

كأن الفرزدق في طيرها ... يجيب على كل شعر جريره

ومدح ابن حمديس شاعراً مغربياً معاصراً، فذكر أنه لا يناظره سوى زهير[5]

فيا فارس الشعر الذي مات قرنه ... بموت زهير في ارتجال غرائبه

المناظرات :

ووجدت المناظرات التي كانت شائعة في شعر المشارقة صدى لها في شعر الصقليين، وصارت من مظاهر تأثر الشعراء الصقليين بالشعراء المشارقة. وقد أشار د. إحسان عباس إلى هذه الظاهرة فقال[6] "وفكرة المناظرة تنخر في

---

(١) ديوان البلنوبي – نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ٤ظ – ٠,٦.

(٢) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد – الجزء الرابع – مخطوطة رقم ٢٧١٢ – بدار الكتب المصرية – ورقة ٣٥٣.

(٣) ديوانه ص٤٣، وهو يعني قيس بن الخطيم في قوله "طعنت ابن عبدالقيس طعنة ثائر".

(٤) ديوانه ص١٨٤.

(٥) نفسه ص٢٧.

(٦) العرب في صقلية ص٣٠٨.

الشعر الصقلى – فمناظرة بين الشيب والشباب، والسوداء والبيضاء — وكلها تدور فى رأس الشاعر الذى يحاول أن ينتصر للشىء وضده، ويظهر بذلك براعته. وهى لوثة جاءته من المشرق أيضاً".

ومن أمثلتها قول ابن الطوبى يناظر بين الشباب والشيب[1]:

بكى الشباب رجال بئس ما صنعوا ... والشيب أفضل فى التحصيل والنظر
إن الشباب كليل ضل مسلكه ... والشيب كالصبح يهدى العين للأثر

ويقول فى المعنى نفسه[2]:

بعيشك ما أنكرت من ذى صبابة ... تحيل فى رد الصبا فأعاده
هب الشيب فى خدى بياض أديمه ... زمان شبابى فى الخضاب سواده

ويقول فى تفضيل السود على البيض[3]:

شبيهات المشيب تعاف نفسى ... وأشباه الشبيبة هن حور
سواد العين نور العين منه ... وما لبياضها فى العين نور

ومما تقدم يتضح لنا ما سبق أن ذكرناه من أن التأثير المشرقى كان واضحا بيناً فى الشعر الصقلى. ويرى بعض الباحثين أن هذا التأثير قد أضر بالشعر الصقلى ضررا كثيراً. وجنى عليه جناية كبيرة على نحو ما يرى أمبرتو ريزيتانو إذ يقول[4]. "إن ميول الشعراء الصقليين فى تقليد فحول شعراء الإسلام تذكرنا أستاذنا المغفور له أحمد أمين، الذى أراد أن ينوه بالتقليد السائد فى الأدب العربى فكتب مقالة قيمة عن "جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى". وفى وسعنا أن نحذو حذوه فنشير إلى "جناية الشعراء العباسيين على الشعراء الصقليين" لما جاء فى شعر هؤلاء الداحين من معان معروفة مألوفة لم

(1) خريدة القصر ٦٣/١/٤.
(2) المصدر السابق ص٧١.
(3) المصدر نفسه ص٨٥.
(4) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩١.

تكـن تلائـم البيئة الصقلية التى عاشوا فيها. بل تلائم البيئة السورية والعراقية التى عاش فيها شعراء بنى أمية وبنى العباس".

أما د. إحسان عباس فرأيه لا يختلف كثيراً عن هذا الرأى إذ يقول[1]:

"فالـصبغة العامـة للـشعر (الصقلى) هى الصورة التى نلمحها فى الشعر العربـى حـين أصـبح نمـاذج مكررة يسرى عليها التقليد، وتتمشى فيها المبالغة بقدم عنيفة، ويتوارثها الشعراء كأنها ملك عام لهم".

ويـسلك فـون شـاك ذلـك المـسلك فى النظر إلى الشعر الصقلى فيرى أن المؤثـرات المـشرقية كبلـته بـأغلال التقلـيد وحـرمته مـن التطلع إلى آفاق أخرى جديدة. يقول شاك[2]: "إن الشعر العربى فى الغرب كان نبتة من أرض بعيدة، يـتوقع لهـا أن تـستمد أنـواعاً جديـدة مـن الـتغذية، حـيث زرعـت فى التربة الجديـدة، ولكـنها تغـيرت قلـيلاً فـى شكلها فى هذا المناخ الغريب، ولم تتغير شـيئاً فـى أصـلها .. فكانـت الصحراء هى التى تمد الشعراء بالمادة والصور فى قـصائدهم، وإذا كـان شعراء أوربة الحديثة يفيئون إلى ما تلقوه فى دراستهم من أدب يونانـى أو رومانـى، فـإن الـشعراء العـرب كانـوا يرون مصادر وحيهم فى الحـياة الـبدوية ومـا فـيها مـن أبطـال وشـعراء، ومـنها استعاروا اصطلاحاتهم وتعـابيرهم. فإذا تصوروا "أركاديا" تمثلوا واديا مقفراً بين جبلين من الرمل تقوم فـيه أطلال مية .. إلخ. ولعب الجمل والغزال فى قصائدهم دوراً هاماً مع أنهما غـير موجـودين بـصقلية. ولعـل صـنعاء التـى لم تكـن خيرا من بلرم فى ازدهار عهـدها كانـت مـثال الحضارة ومحط السعادة فى نظرهم، وأمراء غسان والحيرة يتبدون لخيالهم أعلى ما بلغه العالم من أبهة وجلال".

---

(1) العرب فى صقلية ص٣٠٦.

(2) Schack. Poesie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien, vol. 2 P. 8 – 10.
نقلاً عن (العرب فى صقلية) ص٣٠٩ – ٣١٠.

وقـد يكـون فى هذه الآراء التى ذكرناها قسط من الحق فيما يتصل بقوة تـأثير التـيار المـشرقى فـى الـشعر الـصقلى، ولكننا لا نريد أن نتجنى على هذا الـشعر ونـزعم أن هـذا الـتأثير قـد أفقده شخصيته وألقى به فى أصفاد التقليد، وأزهـق فـيه روح التجديد، فذلك إسراف لا يرتضيه المنصفون، ومغالاة تتعارض مع واقع الشعر الصقلى نفسه، لأننا لو تعمقنا فى دراسة هذا الشعر لوجدنا أنه لم يخضع للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً، ولوجدنا أيضاً أن هذا التأثير لم يكن إلا مظهـراً مـن مظاهره، ولم يشكل إلا جانباً واحداً من جوانبه، فقد كان هناك جـوانب أخـرى ومؤثـرات كـونت هذا الشعر ووجهته وجهات أخرى ولعل أهم هـذه الجـوانب هو تأثير البيئة الصقلية ذاتها ومدى نجاح الشعر فى التأثر بها والتعـبير عـنها وهـذا مـا ينبغـى أن يتفرغ لـه الباحث فى هذا الشعر، ويرصده بالعناية والدرس ولا يضن عليه بأى جهد علمى.

حقـاً إن الـتأثير المشرقى كان قوياً ولكنه لم يكن من القوة بحيث تلغى فـيه الشخصية الصقلية إلغاء أو بحيث يطغى على الجوانب الأخرى فى الشعر الـصقلى. وسوف تتضح لنا هذه الحقيقة عندما نصل إلى الفصل الخاص بالطابع العام للشعر الصقلى ونرى بأنفسنا أثر البيئة الصقلية فى هذا الشعر.

وأغلب الظن أن آراء هؤلاء الباحثين قد بنيت قياساً على بعض نصوص الـشعر التى يتضح فيها التأثير المشرقى بدليل أن أمبرتو ريزيتانو قد ربط حكمه بمـا جـاء فـى شـعر المـديح لـيس غـير ولو أنه نظر إلى الشعر الصقلى من زاوية أخرى غير تلك الزاوية لعدل عن رأيه هو ومن لف لفه.

ولقد أخطأ بعض الباحثين في تصور حقيقة الصلات الثقافية بين صقلية والقيروان اللتين كانتا تعتبران قطبي الحركة الأدبية في المغرب فنرى الدكتور إحسان عباس — يزعم أن تأثر شعراء صقلية بإفريقية ربما كان يفوق تأثرهم بالمشرق[1]، ويشايعه في هذا الرأي (أمبرتو ريزيتانو) فيرى أن الشعر الصقلي خضع للقواعد عينها التي خضع لها الشعر القيرواني من الألغاز والاستعارات والتلاعب اللفظي[2]. ويسرف باحث آخر في الرأي فيعتبر صقلية امتداداً ثقافياً لبلاد المغرب[3].

ونحن لا ننكر أن الصلات كانت قوية بين هذين الإقليمين لامتزاج عناصر السكان، وكثرة الاتصال والانتقال والعلاقات المتشابكة المختلفة بينهما. ولكننا ننفي عن الشعر الصقلي صفة الخضوع للشعر القيرواني وذلك لأمر بسيط، وهو أن هذين الشعرين: الصقلي والقيرواني كانا ينبعان من منبع وهو الشعر المشرقي، فكانا يتشابهان في الخصائص والسمات العامة التي يتميز بها الشعر العربي في مختلف البيئات، وإذا كان ثمة اختلاف بينهما فهو في مدى تأثر كل منها ببيئته فحسب، ولذلك فمن المغالاة أن نزعم أن أحدهما قد تأثر بالآخر أو خضع له.

---

(١) العرب في صقلية ص١٩٠.
(٢) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص٨٦.
(٣) عصر القيروان ص٣٤.

وإذا كـان الدكـتور إحسان عباس قد اهتدى إلى بعض الملامح التى تميز الـشعر المغربـى، أو مـا يـسميه "بالمدرسـة الإفـريقية" فمن الخطأ أن نطبق هذه الملامـح علـى الشعر الصقلى، فليس يجوز مثلاً أن نصف هذا الشعر بالمحافظة والتـشدد لأن البيـئة المغـربية كانت تتميز بذلك، ولا يجوز أيضاً أن نجعل هذا الشعر مغربياً لأن شاعراً صقلياً يقول إن الشمس تطلع من المغرب لا من المشرق[1] ثـم إن الـشعر القيروانـى لم يتميـز وحـده بالإسـراف فـى الاسـتعارات والألغاز والـتلاعب اللفظـى، حتـى يمكـن القـول بـأن الشعر الصقلى قد تأثر به، فتلك ظاهـرة عامـة انتشرت فى كثير من البيئات الأدبية فى القرن الخامس الهجرى وفيما تلاه من عصور.

(١) العرب فى صقلية ص٣٦١، ٣١٧.

كانت أسباب التقارب والاتصال بين البيئتين الأندلسية والصقلية متاحة وميسرة، ولكنها لم تؤثر فى الشعر الصقلى ذلك التأثير الذى كان متوقعاً، فقد هاجر بعض شعراء صقلية أمثال ابن حمديس وأبى العرب وغيرهما إلى الأندلس بعد سقوط صقلية، وعاشوا فى أجواء البيئة الأندلسية بما فيها من ترف وبذخ، ولكنهم لم يتفاعلوا مع تلك البيئة الجديدة تفاعلا كاملا، ولم يتأثروا بها تأثراً واضحاً، فظل بعضهم مثل ابن حمديس يعيش فيها بجسده. أما روحه فقد كانت ماتزال تحلق هناك فى وطنه الأم وكأنما أبى عليه ولاؤه لوطنه وإخلاصه له ألا يذوب فى تلك البيئة أو يندمج معها. أما الشعراء الآخرون كأبى العرب الصقلى وغيره فقد اضطرتهم ظروف حياتهم أن يتكسبوا بشعرهم، وأن يشغلوا بالمديح، ولم تسمح لهم تلك الظروف بأن يتأثروا بتلك البيئة تأثراً ملموساً ولذلك فإن غاية ما يمكن أن نلاحظه من تأثر فى شعرهم لا يتعدى بعض المعانى السطحية التى تطفو على قصائدهم فى بعض الأحيان.

وقد لحظ فوق شاك أن الشعر الصقلى يشبه الشعر الأندلسى إلى حد بعيد ويشترك معه فى خصائصه الأساسية[1] وهذا ليس غريباً، فإن بيئتى الأندلس وصقلية كانتا تتشابهان فيما مر بها من أطوار، إذا امتزجتا جميعاً بالحضارتين اليونانية والرومانية ثم بالحضارة العربية فلا غرابة بعد ذلك إذا تشابهت فى شعرهما السمات والملامح، وتقاربت الخصائص والمقومات[2].

(1) Poesie und kunts der Arrbier in Spanien und Sicilien, Vol. 2 – P. 6 by Schack.

(٢) مقدمة كتاب رايات المبرزين ص ٣٤ .

والواقع أنه باستثناء استئثار الأندلس بالموشحات والأزجال، فإن الفارق بين الأدبين الأندلسي والصقلي كان ضئيلاً جداً، فهما يشتركان في الخضوع للمؤثرات المشرقية، كما يشتركان في التعبير عن بيئتيهما ولو نحينا جانبا ذلك الشعر البيئي أو الذى صدر فيه الشعراء عن بيئتهم فإنه يصعب علينا أن نميز بين ما هو صقلى وما هو أندلسى بل وبين ما هو مشرقى، فالتشابه واضح بين، ومهما تجولنا بأبصارنا فى ذلك الشعر فلن تقرأ إلا الشيء عينه، ولن نرى إلا صورة واحدة تتكرر هنا وهناك بما فيها من رسوم وألوان وظلال بل وما فيها من إطار عام.

ومع هذا فهناك بعض سمات معينة يتميز بها هذان الأدبان. وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أنهما ينفردان بتلك السمات دون غيرهما، ولكن معناه أنها تظهر فيهما بدرجة ملحوظة، وتكاد تكون قاسما مشتركا بينهما، فمن تلك السمات تميزهما بالناحية الغنائية، وربما كانت تلك السمة أكثر ظهورا فى الشعر الأندلسى عنها فى الشعر الصقلى. وتبدو هذه السمة بصفة خاصة فى قصائد الشعراء الصقليين الذين هاجروا إلى الأندلس وعاشوا فترة من حياتهم فيها.

وكان طبيعياً أن تؤثر تلك الغنائية فى موسيقى الشعر وإذا كان الشعر الأندلسى يتسم فى أكثره بخفة موسيقاه ورشاقتها. فإن الشعر الصقلى يجاريه أيضاً فى هذه السمة التى نلمسها بوضوح فى كثير من القصائد من مثل قول ابن الطوبى[1]:

---

(١) عنوان الأريب ١ – ٣٨.

أيـــا لائمـــى مهـــلا　　فمـــا لـــومك لى عـــدلا
كمـــا لا تقـــبل العـــذر　　أنـــا لا أقـــبل العـــذلا

وثمة ظاهرة أخرى يشترك فيها الشعران: الأندلسى والصقلى وهى ميل الشعراء إلى نظم المقطعات القصيرة التى تقتصر على عدد محدود من الأبيات، وتتناول فكرة واحدة أو غرضاً واحداً. وتشيع هذه الظاهرة فى الشعر الصقلى بصورة واضحة ومن أمثلتها هذه المقطوعة الغزلية للفقيه عيسى ابن عبدالمنعم الصقلى، وفيها يقول[1]:

يـــا أملـــح الـــناس وجهـــاً　　جـــاوزت فـــى الحـــسن حـــدك
للغـــصن مـــنك انعطـــاف　　يكـــاد يـــشبه قـــدك
قـــد كـــان قلبـــى عـــندى　　والآن أصـــبح عـــندك
وكـــنت مـــن قـــبل حـــراً　　فهـــا أنـــا صـــرت عـــبدك

وكما أولع ابن حمديس بمعارضة الشعراء المشارقة واحتذاء بعض قصائدهم نراه يميل أيضاً إلى احتذاء بعض شعراء الأندلس مع أنه لا يقل حظاً فى الشاعرية عنهم، فهو يحتذى ابن هانئ الأندلسى فى قصيدة يقول فى مطلعها[2]:

أ إن بكت ورقاء فى غصن بان　　تصدعت منك حصاة الجنان

وفى هذه القصيدة يصف ابن حمديس ليلة مظلمة وصفاً مطولاً مستخدماً أداة واحدة من أدوات التشبيه هى (كأنما) ويكررها إحدى عشر مرة تباعاً كما فعل ابن هانئ فى قصيدته. يقول ابن حمديس[3]:

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ٣٠/١/٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٠٥.
(٣) نفسه ص٥٠٦.

يـا لـيلة غـنت لعينـي شـج / للدمـع مـا بيـنهما لجـتان
سـوداء تخفـي بـين أحـشائها / مـن فلـق الإصباح طفـلا هجـان[1]
كأنمـا قـرط الثـريا لـه / فـي أذنهـا خفـق فـؤاد الجـبان
كأنمـا فـوق قـذال الدجـى / لجـام طـرف مالـه مـن عـنان
كأنمـا الإظـلام بحـر طمـا / والشرق والغرب لـه ساحلان .. إلخ

وهكذا يمضي ابن حمديس في قصيدته فيكرر (كأنما) كثيراً مصوراً الليل والنجوم صوراً متنوعة، فالنجوم تبدو في المساء كزهرة الأقحوان التي تنير الروض، والشهب التي تغرب في السماء تشبه شهب الخيول التي تسبق في رهان إلى آخر هذه الصور والتشبيهات. وهو في هذه القصيدة ينسج على منوال ابن هانئ ويحتذيه في قصيدة له يمدح بها جعفر ابن علي ويقول في مطلعها[2] :

أليلتـنا إذ أرسـلت وارداً وحفـا / وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

وفيها يحشد ابن هانئ عدداً هائلاً من التشبيهات معتمداً في ذلك على أداة تشبيه واحدة هي (كأن)، ويصف الليل والنجوم والسماء فيقول[3] :

كـأن رقيب النجم أجـدل مـرقب / يقلب تحت الليل في ريشه طرفا
كـأن سـهيلا فـي مطالـع أفقـه / مفـارق إلـف لم يجـد بعـده إلفـا
كـأن بنـي نعـش ونعـشاً مطافـل / بوجـرة قد أضللن في مهمه خشفا
كـأن سـهاها عاشـق بـين عـود / فآونـة يـبدو وآونـة يخفـى
كـأن ظـلام الليل إذ مـال مـيله / صريع مدام بات يشربها صرفا.. إلخ

(1) هجان : يغلب عليه البياض.
(2) أنظر نفح الطيب للمقري ٦٤/٢.
(3) نفسه ٢٦٤/٢ وما بعدها.

ومن الواضح أن ابن حمديس قد تأثر بابن هانىء فى هذه القصيدة، ويغلب على الظن أنه أراد بمحاكاته هذه القصيدة أن يحظى بثناء نقاد عصره، كما أثنى النقاد على قصيدة ابن هانىء لما فيها من تشبيهات بارعة خرق فيها المعتاد على حد قول المقرى[1].

وثمة مسألة أخرى تأثر فيها الشعر الصقلى بالشعر الأندلسى، فمن المعروف أن فقهاء الأندلس كانوا يقفون من الفلسفة موقفا عدائياً، فكانوا يكفرون المشتغلين بها، ويحاربونهم، ولذلك كانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هى الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها وصرفتهم بيئتهم المنمقة بألوان الجمال عنها، فرأوها عبثاً لا خير فيه، وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر[2]. وقد انعكس هذا الموقف على الشعر الأندلسى فأضعف فيه تيار الشعر الفلسفى فجاء هذا اللون من الشعر باهتا ضعيفاً. وتسللت هذه النظرة إلى الشعر الصقلى فلم يحفل الشعراء بشعر الحكمة أو الفلسفة ولم يتعمقوا فيه بل إن ما نجده من هذا الشعر لا يعدو أن يكون مجرد خطرات متناثرة هنا وهناك يبثها الشعراء فى قصائدهم فى حياء وحذر شديدين.

---

(١) نفح الطيب ٣٤٦/٢.

(٢) قصة الأدب فى الأندلس ص١٥٩.



الطابع العام للشعر الصقلى

أولاً : أثر البيئة الصقلية في الشعر

- الجزيرة البحرية وطبيعة الثغر
- شعر الحرب والفروسية
- الطبيعة في الشعر الصقلي



أثر البيئة الصقلية فى الشعر

رأينا فى الفصل السابق مدى تغلغل التأثير المشرقى فى الشعر الصقلى، ولكن هذا التأثير لا ينبغى أن يصرف أذهاننا عن حقيقة الشعر الصقلى نفسه، أو يجعلنا نعتبر هذا الشعر فى جملته محاكاة للشعر المشرقى وتقليداً له على نحو ما يرى بعض الباحثين كالدكتور إحسان عباس، فهو يتهم الشعر الصقلى "بغلبة الصبغة التقليدية عليه فى أدنى صورها حتى إنا قلما نعثر بشعر قد اخترق أسوار التقليد وشق لنفسه طريقاً جديدة، أو طريقاً فيها شىء كثير من الجدة"[1].

ومع تقديرى للدكتور إحسان عباس إلا أننى أخالفه فى هذا الرأى وأحسب أنه أسرف فيما ذهب إليه ، فقد كان من الطبيعى أن يتطور الشعر الصقلى وأن يختلف فى كثير من صوره واتجاهاته عن الشعر القديم الذى كان يستوحى أفكاره ومعانيه وصوره من البادية أو من البيئة العربية القديمة، وذلك لأن الشعراء الصقليين كانوا يعيشون فى بيئة مغايرة للبيئة العربية، وكانوا خاضعين لبعض الظروف والمؤثرات الجديدة، وهذا لا يتناقض مع ما قلناه من قبل من أن عناصر اللغة والدين والثقافة كانت عوامل مشتركة بين الصقليين والمشارقة، ولكن بجانب هذه العوامل كانت هناك عوامل أخرى أحدثت أثراً بارزاً فى الشعر الصقلى، لعل أهمها هو عامل البيئة أو أثر البيئة الصقلية ذاتها. فقد تأثر هذا الشعر بحياة الجهاد التى عاشتها صقلية، كما تأثر بالطبيعة الصقلية الجميلة، واستطاع هذا الشعر من ناحية أخرى أن يمثل لنا مظاهر الحياة فى المجتمع الصقلى بما فيها من تحضر وترف، كما استطاع هذا الشعر أن يصور مأساة صقلية وسقوطها فى يد الأعداء وأثر ذلك فى نفوس

---

(1) العرب فى صقلية ص٣٠٦.

شعرائها أصدق تمثيل. ويمكن أن نحصر هذه الملامح التى تميز الشعر الصقلى فيما يأتى:

الجزيرة البحرية وطبيعة الثغر:

كان لوضع صقلية كجزيرة بحرية أثر بارز فى الشعر الصقلى، يتمثل فى حديث الشعراء عن البحر، كما يتمثل فى جانب هام وهو وصف المعارك البحرية التى دارت بين مسلمى صقلية و الروم، وكان البحر مسرحا لتلك المعارك الضارية. وقد برع ابن حمديس فى هذا اللون من الشعر براعة كبيرة. فمن ذلك قوله يصف معركة بحرية انتصر فيها المسلمون على الروم[1]:

بنو الأصفر اصفرت حذاراً وجوههم	فأيديهم من كل ما طلبوا صفر
تنادوا كأسراب القطا فى بلادهم	وكان لهم من كل قاصية نفر
ولما تناهى جمعهم ركبوا به	قرا زاخر الآذى آفاقه غبر
تولت جنود الله بالريح حربهم	وليس لمخلوق على حربها صبر
فكم من فريق منهم إذ تفرقوا	له غرق فى زخرة الموج أو أسر
وظلت سباع الماء وهى تنوشهم	فلا شلو منهم فى ضريح ولا قبر
فإن سلم الشطر الذى لا سلامة	له من ظبا الهيجا فقد عطب الشطر

وتصور تلك الأبيات قوة بأس المسلمين فى البحر فى ذلك الوقت، وسيادتهم البحرية على شواطىء البحر المتوسط.

وأفاض ابن حمديس فى وصف السفن المقاتلة وتصويرها صوراً مختلفة من مثل قوله[2]:

ومنسوبة للحرب منشأة لها	طوائر بالآساد فى الماء عوم
كأن قسياً فى مواخرها التى	يفوق منها فى القوادم أسهم
وترسل نفطا يركب الماء محرقا	كمهل به تشوى الوجوه جهنم
مدائن تغزو للعلوج مدائنا	فتفتح قسراً بالسيوف وتغنم

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٥٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٤١٤ وما بعدها.

ويصف تلك السفن وهي تمخر عباب البحر كما لو كانت ثعبانا من ثعابين هذا البحر والريح تدفعها دفعاً قوياً فيقول[1]:

من كل ذي زبد علته سفنه	يخرجن من جسد بغير فؤاد
ثعبان بحر عضه بنواجد	خلعت عليه من الحديد، حداد
يبدى غراب منه سقط حمامة	ببياضه في البحر جرى سواد
وكأنما الريح التي تجرى به	روح يحرك منه جسم جماد

واستمد كثير من الشعراء الصقليين بعض صورهم وتشبيهاتهم من البحر، فنرى أحدهم ويدعى أبا القاسم السرقوسي يمزج بين البحر والصحراء، فيشبه البيداء بالبحر، ويشبه الظعن الطافية فوق السراب بالسفن فيقول[2]:

وبيداء قفر ذات آل كأنما	هو البحر إلا أنه غير آسن
ترى ظعنهم فيها غداة تحملوا	طوافي فوق الآل مثل السفائن

ويبدو أثر البحر واضحا في مثل قول ابن حمديس[3]:

وليل رسبنا في عباب ظلامه	إلى أن طفا للصبح في أفقه نجم

ويشبه شاعر آخر يدعى محمد بن الحسين القرني نفسه في حالة سقوط العرق على جسمه بغزارة بالغريق الذى يصارع الأمواج خشية الغرق فيقول[4]:

ينضح جسمي على الفراش لما	بالقلب من لوعة ومن حرق
بعارض يستهل واكفه	على فراش بالوابل الغدق
كأنني فوقه على رمث	أسبح في لجة من العرق
أو كغريق نجا بمهجته	يكابد الموج خشية الغرق

---

(1) نفسه ص١٤٦ - ١٤٧.

(٢) خريدة القصر ١٣٨/١/٤.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٤٠٦.

(٤) المحمدون من الشعراء ص٢٥٨ وما بعدها.

شعر الحرب والفروسية:

والواقع أن صقلية الإسلامية قضت حياتها فى جهاد متصل، وكانت أشبه ما تكون بقاعدة للنشاط الحربى، وكان المسلمون فى شتى بقاع الأرض يعتبرونها دار جهاد. ونجحت هذه الجزيرة فى أن تزود عن حياض الإسلام زمناً طويلاً، وأن تواجه هجمات الأعداء وهى أشد ما تكون منعة وصلابة، ولم يقدر لها أن تستريح من الجهاد يوما ما، فمنذ أن فتحها المسلمون وهم حريصون على التمسك بها، وكانوا يتخذونها قاعدة لمواصلة غزواتهم وتحقيق مزيد من الفتوحات. وكان الروم يدركون مدى ما تسببه لهم هذه لجزيرة من متاعب، فعملوا على ضربها، وشنوا عليها غارات كثيرة، وخاض المسلمون معارك ضارية ضد هؤلاء الأعداء الطامعين، ونظم فى هذه الحروب شعر كثير صور حياة الجهاد فى صقلية أصدق تمثيل، وبرع ابن حمديس، وغيره من شعراء صقلية فى تصوير هذا الجانب الهام من الحياة فى صقلية، فوصفوا المعارك الحربية التى خاضها المسلمون ضد الأعداء وأشادوا بشجاعة جند المسلمين وبسالتهم، وصوروا هزائم الروم تصويراً رائعاً، كما صوروا الجوارى المسيحيات اللائى غنمهن العرب فى هذه الحروب، وبرز لديهم الشعور الوطنى فى أصدق صوره. فمن ذلك قول ابن حمديس يصف غزوة خرجت من صقلية إلى بلاد الروم، وعادت ظافرة، وكان خروجها فى عقب غيث من زمن الشتاء والقر والأرض مجلودة[1]:

ومسبلة دمعاً يسوغ عذوبة ... على أن دمع المقلتين أجاج

مرتها صباها حين درت فأرضعت ... بسائط من أخلاقها وفجاج[2]

تخرق فيها لمع برق كأنما ... يشب ويخبو من سناه سراج

علت خيلنا منها جليداً فلم يتح ... سنا للعدى من عدوهن عجاج

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٧٥، ٧٦.

(2) مرتها: مسحت عليها لتدر.

بأسد وغى كم قيل عوجوا، نصرتم — على الموت من حرب العداة، فعاجوا
فــلا غــنم إلا كــل رأس كأنــه — علـى الـرمح مـن ضـرب المهندتاج
وخمـــصانة مـــنقادة بـــذوائب — لـسائقها خلـف الجـواد لجـاج[1]
كـأن وراء الخـيل مـنها جـآذرا — تـروع أخــصار لهــن دمــاج
فكـان لـنا فـى الـروم قـتل معجـل — وفيـنا لهـم بـين الوشـيج شـجاج[2]

وقد أفاض ابن حمديس فى وصف شجاعة الجنود المسلمين وثباتهم فى الجهاد وكثيراً ما كان ما يقارن بينهم وبين أعدائهم، فهم يضحون بأرواحهم فى سبيل أداء فريضة الجهاد ويبذلون أرواحهم رخيصة فى حومة الوغى حتى إذا ماتوا ماتوا أعزاء بل إنهم ليحشون وسائد من عجاجات الجهاد توضع تحت مناكبهم عندما يدفنون فى التراب. أما أعداؤهم فقد كانوا جبناء لا هم لهم إلا الانكباب على الملذات والارتماء فى أحضان النساء الكواعب[3]:

إذا ما غزوا فى الروم كان دخولهم — بطون الخلايا فى متون السلاهب
يموتون موت العز فى حومة الوغى — إذا مات أهل الجبن بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائدا — تعد لهم فى الدفن تحت المناكب

ويصف ابن الخياط الربعى جيش المسلمين فيقول[4]:

وجـيش حلـبة الفرســان فـيه — ســراة الـناس والخـيل العـراب
أسـود خفـية فـى حـسن خلـق — علـيها مـن رمـاح الخـط غـاب

ويصف هزيمة الأعداء وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت واستبد بهم الخوف والذعر والفزع فيقول[5]:

فـى مـثل يـوم الحـساب تحـسبهم — سـكرى وكالـسكر بعـض مـا شـربا
كأنمـــا أرضـــهم قلـــوبهم — فكلــها قــد أحـيل فاضــطربا

---

(١) خمصانة: ضامرة الحشا، ويعنى بها السبية من الروم أو الأسيرة.
(٢) الوشيج: الرماح، شجاج: جراح.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٣٢.
(٤) شرح المختار من شعر بشار ص٥.
(٥) العرب فى صقلية ص٢١٢.

وكان الشعراء الصقليون يواكبون جيش المسلمين فى فتوحاته وغزواته، وكانوا يسجلون هذه الانتصارات ويشيدون بشجاعة الأمراء والقواد والجنود. وفى مدحهم للأمراء كانوا يثنون على انتصاراتهم وحسن بلائهم فى إعداد الجنود، ونجاحهم فى تحطيم المعاقل والحصون ويصورون هزائم الروم وارتدادهم خاسرين أمام جنود الله. فمن ذلك قول أبى عبدالله الحسين بن أبى على يمدح الأمير ثقة الدولة ويصف غزوة من غزواته[1]:

على العادات فاجر مع الأعادى ... وناد يجبك منهم كل ناد
فما لحصونهم منك امتناع ... ولو أن البناء بناء عاد
فكم من معقل للعين سام ... سلكت إليه منهاج الرشاد
وقد حارت نفوس القوم فيه ... إلى أن قام فيهم منك هاد
فأصعدت الخيول إلى الروابى ... وأنزلت الوعول إلى الوهاد
وكم أخرجت منها من كمين ... ومن عضب ومن طرف جواد
يغل يديه خوفك عن شباه ... فيضحى كالموثق فى صفاد

ويصف الشاعر هزيمة الروم فيقول[2]:

لقد أوردتهم بالسيف ماء ... به ارتوت الطلى وهم صوادى
كأن رءوسهم كانت نباتا ... أبادته سيوفك بالحصاد
وكم أهدى إليك من الدرارى ... حسامك حين مر على الهوادى

ويعبر الشاعر عن تطلع المسلمين إلى غزو الروم فى عقر دارهم، وأمانيهم بفتح عاصمتهم ودخول بلادهم فيقول:

وأما رومة فإلى قريب ... يصبّحها بداهمة الحداد

ومن يتتبع تلك الأشعار التى نظمت فى حروب أهل صقلية مع الروم يلاحظ أن الشعور الدينى قد امتزج مع الشعور الوطنى فى نفوس الصقليين، فقد كانوا يحسون أنهم يؤدون فريضة الجهاد التى فرضها الله على المسلمين فكانوا

---

(١) عنوان الأريب ١/ ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ١/١٣٠ وما بعدها.

يحاربون من أجل العقيدة ولكنهم كانوا يشعرون أيضاً أنهم يدافعون عن وطنهم الذى يدينون بالولاء له ويحسون بالانتماء إليه. ولذلك فكثيراً ما نلحظ أنهم يصفون أنفسهم ببنى الثغر ويتردد هذا الوصف فى شعر ابن حمديس كثيراً تعبيراً عن الشعور الوطنى، فمن ذلك قوله[1]:

ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم	إذا عبست حرب لهم تتبسم
ومن حلب الأوداج يغذى فطيمنا	بحجر من الهيجاء ساعة يفطم
لنا عجز الجيش اللهام وصدره	بحيث صدور السمر فينا تحطم
يضاعف إن عد الفوارس عدنا	كأن الشجاع الفرد فينا عرمرم

ويردد تعبير "بنى الثغر" فى قصيدة أخرى فيقول[2]:

ونحن بنى الثغر الذين نفوسهم	ذكور بأبكار المنايا تعرس
فمن عزمنا هندية الضرب تنتضى	ومن زندنا نارية البأس تقبس

وكان من أثر استمرار الحرب والجهاد فى صقلية أن ظهر فى الثغر لون يعبر عن روح الفروسية فكان الفرد الصقلى يحرص على تجهيز نفسه بآلات الفروسية والحرب كما كان يحرص دائماً على أن يأخذ للأمر أهبته، فنجد ابن الطوبى يقول مثلاً[3]:

أعددت للدهر إن رابت حوادثه	عزما يحل عليه كل ماعقدا
وصارما تتخطى العين هزته	كأنما خاف من حديه فارتعدا
وذابلا توضح العليا ذبالته	كأنها نجم سعد لاح منفردا[4]
ونثرة ليس للريح المضىء بها	إلا كما عرضت للنهى فاطردا[5]

(١) ديوان ابن حمديس ص٤١٢ - ٤١٤.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٢٧٩.

(٣) جريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى ٧٦/١/٤ - ٧٧.

(٤) الذابل : الرمح الدقيق.

(٥) النثرة : الدرع السابغة .. المفىء: الراجع - النهى: بفتح النون وكسرها: الغدير والمعنى أن الدرع تشبه الريح التى تمر على سطح الغدير.

وسابحا لا تروغ الأرض أربعة   كأنه ناقد مالا قد انتقدا[1]

وقد انتقلت روح الفروسية هذه إلى كثير من أغراض الشعر ولاسيما الغزل فكثيرا ما نرى المحب قوياً يزور حبيبته آخر الليل كما يتمثل فى مثل قول ابن حمديس[2] :

قالت وقد عانقتها سحراً   لم زرتنا فى آخر الليل
فأجبتها وغمرتها قبلاً   هذا أوان إغارة الخيل

وقد أثرت حياة الحرب والجهاد هذه فى كثير من صور الشعر وتشبيهاته فأخذ الشعراء يرددون ألفاظ القتال والطعن والضرب فى موضوعات الشعر كالغزل والخمر وغيرها على هذا النحو الذى نراه عند ابن حمديس عندما يتحدث عن الخمر فيمزج بينها وبين التعبيرات الحربية مزجاً لطيفاً فيقول[3] :

مالى أكافح قرن كأس جال فى   ميدان نشوته وجال كفاحا
ومجدل شاكى السلاح من الصبا   من لم يبق له المشيب سلاحا

ونلتقى بمثل هذه التعبيرات الحربية عند البلنوبى فنجده مثلاً يشبه عينى محبوبته بسيفين ويقول إنها تقتل عاشقيها وتسفك دماءهم[4] :

أمجرد السيفين أغمد واحداً   والق الكماة بواحد مسلول
أسرفت فى قتل النفوس وأسرها   فكفاك من دم هالك مطلول

ويصف شاعر آخر الخمر، فيتخيل أن ثمة حربا طاحنة تدور بين جحافلها وجحافل الظلام ويتحدث عن مبارزة لطيفة تدور بين نصل البروق ونصل الراح فيقول[5] :

---

(١) تروغ : تطلب، انتقد الدراهم: قبضها - والمعنى أن له جوادا يكاد يطير فوق الأرض فلا تطلب أرجله الأرض كأنه صير فى قبض ما يريد فلا يطالب به.

(٢) ديوانه ص٣٦٣.

(٣) المصدر السابق ص٨٠.

(٤) ديوان البلنوبى ٤ ظ-٦ و.

(٥) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١١٠.

وليل أتى فى جحفل من ظلامه ... فقدت له من أسره اللهو جحفلا
وسل علينا منصلا من بروقه ... فسلت له كفى من الراح منصلا

وتتردد مثل هذه التعبيرات الحربية فى غزل ابن حمديس كثيراً، كأن يتصور مثلاً أن ثمة حربا لا تتوقف بين شباب محبوبته ومشيبه ويقابل بين الحرب والسلم مقابله لطيفة فيقول[1]:

من أين أرجو أن أفوز بسلمها ... والحرب بين شبابها ومشيبى

ويمزج بين معانى الحب ومعانى الحرب مزجاً طريفاً فيقول[2]:

يا بنى الحرب ما بنو الحب إلا ... مثلكم فى لقاء صرف المنون
أنتم بالكفاح صرعى العوالى ... وهم بالملاح صرعى العيون
فسيوف القيون، أقطع منها ... بين أهل الهوى، سيوف الجفون

وتطرد هذه الظاهرة فى الشعر الصقلى اطراداً قوياً حتى ليتبين لنا عند استقصائها أنها ليست مجرد صور تقليدية يأخذها الشاعر من غيره، فقد تكون كذلك ولكن لا ريب فى أن للحقيقة المستمدة من البيئة أثرها فى تصور الشاعر وتصوره[3].

• • • • •

(1) ديوان ابن حمديس ص٥٨.
(2) نفسه ص ٤٨٦.
(3) العرب فى صقلية ص ٣١٣.

الطبيعة فى الشعر الصقلى

اشتهرت صقلية منذ القدم بطبيعتها الساحرة. وقد أفاض المؤرخون والرحالة القدماء من أمثال ابن جبير والإدريسى فى وصف بساتينها الوارفة، وأنهارها الجارية وكثرة ينابيعها، وروعة قصورها وفتنة مبانيها، وسحر مناظرها وقد حبت الطبيعة عاصمتها "بلرم" سحراً خاصاً بهر كل من رآها حتى ليقول عنها ابن جبير[1]: "وهى بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كأنها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن، قرطبة البنيان".

وقد جذبت هذه الطبيعة الساحرة أنظار الشعراء الصقليين، فهاموا بها، وأقبلوا عليها فى شغف، يتغزلون بها، ويفتنون فى أوصافها، ويصورون محاسنها ومفاتنها، فوصفوا الرياض والبساتين والأزهار والفواكه والجداول والأنهار والمتنزهات والقصور والفوارات وغيرها من مظاهر طبيعتهم الجميلة.

الرياض والبساتين :

كانت الرياض مسرح حياة الشعراء اللاهية، فكانو يستسلمون فى أحضانها للهوهم وحبهم، ويتخذونها مجالس أنس وسمر ويفيئون إليها ليستريحوا من صخب الحياة وضجيجها، فيمتعون أنظارهم بجمال ورودها وأزاهيرها، ويتنسمون عبيرها الفواح.

وقد رسم الشعراء الصقليون لوحات فنية كثيرة تصف هذه الرياض، وتنطق بما فيها من سحر وجمال، منها تلك اللوحة لأبى الحسن الطوبى[2]:

---

(١) رحلة ابن جبير – المكتبة الصقلية ص٩١.

(٢) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٤.

روض يحار الطرف فى زهراته ويهيج المشتاق من زهراته
يبدى بأصفره بوادي عاشق ويرى بأحمره لظى زفراته
إنى إذا ذقت المدامة خلتها ريق الحبيب ومجتنى رشفاته
وأرى العروضى البديع إذا شدا يهدى إلى الإنسان روح حياته

ويرسم ابن حمديس لوحة أخرى لروضة غناء تتغنى الطيور على أشجارها، وتتثنى أغصانها فتشبه قدود الغيد الملاح، وتعبق أرجاؤها بعبير فواح يسرى شذاه إلى الرياح فيضمخها طيباً ورائحة، يقول[1]:

يا حبذا ما تبصر العين من أنجم راح فوق أفلاك راح
فى روضة غناء غنت بها فى قضب الأوراق ورق فصاح
لا يعرف الناظر أغصانها إذا تثنت من قدود الملاح
كأن مفتوت عبير بها مطيب منه هبوب الرياح

ويطوف بنا ابن حمديس أيضاً على روضة أخرى تعبق برائحة المسك، ويغدق عليها الحيا من خيراته فتتمايل سكراً كما لو كان ذلك الحيا ينادمها، وتنتشر فى أنحائها مختلف الأشجار التى تعكس ثمارها أشعة الشمس، وتتساقط عليها قطرات الندى التى تشبه حبات اللؤلؤ المنثورة التى لا يجمعها عقد أو حلي، يقول ابن حمديس[2]:

فى روضة نفحتها مسكة تهدى إلينا فى جيوب الرياح
تميس سكرا فكأن الحيا بات يحييها بكاسات راح
كأنما أشجارها مندل إن لذعته جمرة الشمس فاح
كأنما القطر به لؤلؤ لم يجر منه ثقب فى نصاح

ويرسم البلنوبى لوحة فنية جميلة لروضة من تلك الرياض التى كان يتردد عليها مع رفاقه. إنها روضة ناضرة تكتسى بباقات الورود على اختلاف ألوانها، فمن نرجس تتساقط عليه قطرات الندى كما تتساقط دموع العشاق،

---

(1) ديوانه ص٩٠.
(2) ديوانه ص١٠٠.

ومن أقحوان ناصع البياض، تفتُّر له المباسم، ومن ورود حمراء تخر أمامها الخدود حياء وخجلا.. إلى آخر هذه الألوان والصور التى تضمها تلك اللوحة. يقول البلنوبى[1]:

وروض حديق كالشباب طرقته	وللنجم فى أفق السماء ركود
ترقرق فى أحداق نرجسه الندى	كما استعبر العشاق وهو جليد
وتفتر فيه للأقاحى مباسم	فتخجل فيه للشقيق خدود
وترتج من فوق الغصون ثمارها	كما ارتج من باب القدود نهود
يسيل عليها المشرفيات جدول	له ثغب عذب الرضاب برود
وقامت عوارى النخل من كل جانب	حواسر فى لباتهن عقود

الأزهار والفواكه :

وكان طبيعياً وسط هذا الجو الساحر أن يلتفت الشعراء إلى الأزهار والورود فيتغنون بأريجها وألوانها الزاهية، وعبقها الفواح، وعطرها الشذى، ويخلعون عليها صفات الحسن والبهاء والجمال.

وقد التفت الشعراء إلى الأزهار على اختلاف ألوانها، فوصفوا النيلوفر، والبنفسج، وشقائق النعمان، والورد، والياسمين وغيرها.

وقد أكثر ابن حمديس من وصف النيلوفر، ووقف أمامه غير مرة، وأحس بأن ثمة ما يربط بينه وبينه، فكان يتصوره من نبت بيئته، وعندما كان يراه فى وطن آخر غير وطنه كان يحس أنه يعانى آلام الغربة ولوعة الفراق مثله سواء بسواء يقول ابن حمديس[2]:

ونيلوفر أوراقه مستديرة	تفتح فيما بينهن له زهر
كما اعترضت خضر التراس وبينها	عوامل أرماح أسنتها حمر
هو ابن بلادى كاغترابى اغترابه	كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

(١) اختيار الصيرفى من الدرة الخطيرة ص ٢٠، ٢١.

(٢) ديوانه ص١٨٥.

ويقف أمام النيلوفر مرة أخرى فيقول[1]:

إشـــرب علـــى بـــركة نيلوفـــر ... محمـــرة الـــنوار خـــضراء
كأنمـــا أزهارهـــا أخـــرجت ... ألـــسنة الـــنار مـــن المـــاء

وتستوقفه زهرة الشقائق فيشبهها في حالة سقوط المطر عليها بالقيان اللائى يمشطن شعورهن ثم يرقصن في غلائل حمراء، يقول[2]:

نظرت إلى حسن الرياض، وغيمها ... جرى دمعه منهن فى أعين الزهر
فلـــم ترعينـــى بيـــنها كـــشقائق ... تبللها الأرواح فى القضب الخضر
كما مشطت غيد القيان شعورها ... وقامت لرقص فى غلائلها الحمر

ويصف الكاتب أبو الفضل دابق النرجس، فيقول[3]:

كـــف مـــن الفـــضة مبـــسوطة ... فـــى وسـطها نثـر مـن العـسجد

ويصف أبو عبدالله بن الطوبى الخشخاش، فيقول[4]:

حـــق مـــن العـــاج وفـــى وســـطه ... رق[5] مـــــن اللؤلـــــؤ منـــــثور

وعلى نحو ما التفت الشعراء الصقليون إلى الورود والأزهار، التفتوا أيضاً إلى الفواكه والثمار فوصفوا النارنج والرمان والليمون والكمثرى وغيرها من أنواع الفواكه. فالبلنوبى مثلاً يستهويه النارنج فيصفه غير مرة كما فى قوله[6]:

تـــنعم بـــنارنجك المجتنـــى ... فقـــد حـــضر الـــسعد لمـــا حـــضر
فـــيا مـــرحبا بقـــدود الغـــصون ... ويـــا مـــرحبا بخـــدود الـــشجر
كـــأن الـــسماء همـــت بالنـــضار ... فـــصاغت لهـــا الأرض مـــنه أكـــر

وينظر إلى نارنجة بين الرياض تتمايلها الرياح فتبدو فى اصفرار لونها واخضرار عيدانها مثل ذهب فى صولجان زمرد[7]:

---

(١) نفسه ص٥.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٩٢.
(٣) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) ٣٤٦/٤.
(٤) خريدة القصر للعماد الأصفهانى ٦٢/١/٤.
(٥) الرق : الرقيق ولعلها مصحفة عن كلمة (عقد).
(٦) اختيار ابن منجب الصيرفى ص٢٠.
(٧) حلبة الكميت ص٢٣١.

ونارنجة بين الرياض نظرتها … على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت بأكرة … بدت ذهبا فى صولجان زمرد

أما ابن القطاع فيستهويه الرمان بزهاء ألوانه وجمال شكله فيصفه بقوله[1] :

رمانة مثل هذا العانق الريم[2] … يزهى بلون وشكل غير مسئوم
كأنها حقة من عسجد ملئت … من اليواقيت نثرا غير منظوم

وللقاضى أبى حفص ابن أبى الطيب قصيدة كاملة يصف فيها ليمونة لم يوردها صاحب مختصر الدرة الخطيرة بتمامها ولكنه اكتفى بإيراد هذه الأبيات[3] :

وقلت لها لما رأيت اصفرارها … أبينى لنا من شأنك المتعلل
فقالت ولم تنطق ولكن سقمها … أتى بجواب يكشف الأمر فيصل
عرانى فراق من غصون منيفة … فقربنى من فينها المتظلل
فأصبحت فى حزن وساورنى الضنا … كما أنت فى حزن من البين مثكل
فأعجبت منها بالجواب بديهة … وإيضاحها عن غربتى وترحلى
وقلت لها إنى بك اليوم باعث … إلى من له محضا ثناى ومقولى

وتوضح هذه الأبيات مدى المشاركة الفعالة بين الشاعر وموضوعه الذى هو جزء من الطبيعة، فهو لا يهتم بوصف الليمونة وصفا تقريرياً ميتاً كما يفعل كثير من الشعراء ولا يعنى باستجلاب تشبيهات مجردة لا طائل من ورائها غير جمع أجزاء باردة لا حياة فيها، ولكنه يقف من موضوعه موقفا آخر تبدو فيه مقدرته على الإيحاء والتصوير والتشخيص، فهو يتخيل تلك الليمونة إنساناً مريضاً أصابه الهزال، وبدت عليه علامات الاصفرار والشحوب وما ذلك إلا لأنها تقاسى لوعة الفراق بعد انفصالها عن غصونها، وبعد أن حرمت من تفيؤ

---

(١) خريدة القصر ٥٣/١/٤.

(٢) العانق: الحسن. ونلاحظ أن وجه الشبه هنا ضعيف، ولعل الصواب: (رمانه مثل هذا العانق الرومى) وهو بهذا يشبه الرمانة بوجه فتى رومى أحمر الوجه، أصفر الشعر.

(٣) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٦.

ظلها الظليل. ولكننا نرى أن المعنى لا يتوقف عند هذا الحد، ولا يجمد عند هذا التفسير، فما هذه الليمونة الصفراء الحزينة سوى مرآة يرى الشاعر فيها نفسه، وما هذه الأغصان المنيفة سوى أهله الذين فارقهم وأصبح بعيداً عنهم وبمثل هذه الصورة الموحية يعبر الشاعر عن إحساسه بالغربة وحنينه إلى وطنه أصدق تعبير، وبمثل هذه الصورة أيضاً وغيرها من الصور يخرج الشعر الصقلى من ربقة التقرير والجمود إلى آفاق أوسع وأرحب فيها كثير من التخييل والإيحاء.

المتنزهات والفوارات والقصور:

وتغنى الشعراء الصقليون أيضاً بالمتنزهات التى كانوا يترددون عليها للاستمتاع بسحر مناظرها وهدوئها. وتتردد فى أشعارهم بعض أسماء لتلك المتنزهات والأماكن الجميلة مثل (المعسكر) فى بلرم، وهو موضع اشتهر بكثرة عيونه. وتدل الأوصاف التى أسبغها عليه الشعراء أنه كان حافلاً بالأشجار والأزهار. وفيه يقول الحسن بن أحمد الكاتب[1]:

أنظر إلى ورد المعسكر قد كسا	أشجاره نورا يخيل نارا
جاد الربيع لنا به فكأنما	سلب الخدود وألبس الأشجارا

ويصفه أبو على الحسن بن محمد الأضبطى الكاتب فيقول[2]:

أنا فى المعسكر مفرد فى جحفل	من نوح قمرى ورنة بلبل
فكأنما يلقى على بصوته	نغمات معبد فى الثقيل الأول
وإذا تكاملت المسرة للربى	فأليفه متخلف لم يكمل[3]

ويقول فيه أبو عبدالله الحسن بن أبى على القار[4]:

أرى المعسكر قد صفت مواكبه	فجمعت كل أمحال تحاربه
قضبانها الملد أرماح أسنتها	ثمارها وسواقيها قواضبه

---

(١) مختصر الكتاب المنتخل ورقة ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه ورقة ١٠٠.

(٣) فى المخطوط (وأليفه متخلف لم يكمل) ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٤) مختصر الكتاب المنتخل ورقة ١٠٥.

ومن الأماكن الأخرى التى تتردد فى الشعر الصقلى مكان يسمى (البروج) وفيه يقول أحد الشعراء[1]:

ألا رب يوم لنا بالبروج بخيل الضياء جواد القطار
كأن الشقيق بها وجنة بآخرها لمعة من عذار
كأن البنفسج فى لونه اخـ ـتلاط الظلام بضوء النهار
وسوسنها مثل بيض القباب بأوساطها عمد من نضار
ترى النرجس الغض فوق الغصون كمثل المصابيح فوق[2] المنار
وأترجها كحقاق النضار تصفف أو كثدى الجوارى

ووقف الشعراء أيضاً أمام الفوارات التى كانت تنتشر فى المتنزهات وفى خارجها فافتنوا فى وصفها، وتصوير جمالها فى لوحات جميلة مثل هذه اللوحة لأبى بكر محمد بن سهل، فقد استهوته فوارة ترفع مياهها إلى أعلى فتخيل أن لها ثأرا فى السماء تحاول أن تأخذه كما تخيلها ترد على المزن تلك المياه التى أغدقتها على الأرض مدرار، يقول[3]:

وفوارة ثأرها فى السماء فليست تقصر عن ثأرها
ترد على المزن ما أسبلت إلى الأرض من صوب مدرارها

ويرسم مجبر بن عبدالعزيز الصقلى لوحة أخرى لفوارة يستمد السحاب منها، ويتخيل أنها تسقى السماء خوفاً على الجو أن يلتهب بسبب القيظ الشديد الذى يكاد يشعل الجو بنيرانه، يقول[4]:

وفوارة يستمد السحاب من فضل أخلافها المحتلب
رأت حمرة القيظ محمرة لها شرر كرجوم الشهب
فظلت بها الأرض تسقى السماء خوفاً على الجو أن يلتهب

(١) المصدر السابق ورقة ١٠٦.
(٢) فى المخطوط (مثل المصابيح) والوزن يقتضى ما أثبته.
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر ١٠٠/١/٤.
(٤) نفسه – قسم شعراء مصر ٨٩/٢.

ويقف الشاعر عبدالرحمن الأطرابنشى أمام متنزه المعتزية المعروف بقصر الفوارة الذى بناه الأمير جعفر قرب بلرم. وكان هذا القصر يطل على فناء ذى أروقة جليلة وعلى بحيرة تجتمع فيها مياه فوارتين: الكبرى والصغرى، وتنعكس فيها النخيل المغروس على ضفافها، وكان يقال لهذه البحيرة "البحر الحلو" Mare dloca وكانت تبارى بجمالها بحر خليج بالرمو الأزرق[1]. وقد قام روجار – فيما بعد – بتوسيع هذا القصر واتخذه منزهة يتمتع فيها بالحياة الناعمة الرغدة، يستظل تارة بأشجاره، ويتجول طورا على متن فلك مع حريمه فى بحيرته وبحره، وأشجار النخيل تتراءى فى المياه كأنها تنوى مداومة إظلاله برا وبحرا، وأشجار النارنج الخضراء ترسل إليه أشعة حمراء من ثمارها. يقول الأطرابنشى فى وصف هذا المتنزه[2]:

فوارة البحرين جمعت المنى	عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك فى جداول تسعة	ياحبذا جريانها المتقسم
فى ملتقى بحريك معترك الهوى	وعلى خليجك للغرام مخيم
لله بحر النخلتين وما حوى	البحر المشيد به المقام الأعظم

ويحاول الشاعر أن يستكمل رسم لوحته ولكن مناظره تأتى متفرقة، وألوانه تبدو باهتة فنراه يقف أمام صورة أغصان الرياض المائلة إلى البحيرة فيتخيلها ترنو مبتسمة إلى ما بها من أسماك ويقابل مقابلة مفككة بين صورة الحوت الذى يسبح فى مياهها، وبين الطيور التى تترنم بين رياضها ويشبه أشجار النارنج الخضراء التى تنبعث من ثمارها أشعة حمراء بنيران تضرم على قضيب الزبرجد ويشبه صفرة الليمون بصفرة العاشق الذى أضر به النوى فبات متألماً يقول[3]:

---

(١) المسلمون فى صقلية ص٥٢ – ٥٣.

(٢) خريدة القصر ٢٦/١/٤.

(٣) خريدة القصر ٢٦/١/٤.

وكـأن مـاء المفـرغين وصـفوه ... در مـذاب والبـسيطة عـندم
وكـأن أغـصان الـرياض تطاولـت ... تـرنو إلى سمـك المـياه وتبـسم
والحـوت يـسبح فـي صفاء مـياهها ... والطـير بـين رياضـها تـترنم
وكـأن نـارنج الجزيـرة إذزهـا ... نـار علـى قـضب الزبـرجد تـضرم
وكأنمـا الليـمون صـفرة عاشـق ... قـد بـات مـن ألم الـنوى يـتألم

ثم يطيل الأطرابنشي الوقوف أمام نخلتي بحرى بلرم لأنهما كانتا مسرح لهوه وغرامه، فيدعو لهما بالسقيا ودوام الوصال – وهو دعاء غريب حقا، ولعله يعنى بذلك نفسه وصاحبته، وإلا فما معنى أن يدعو لهاتين النخلتين بأن تنالا كل الأماني؟ وأى أمان تلك يمكن أن تنالاها نخلتان جامدتان لا تحسان ولا تشعران بما حولهما إلا أن يكون المقصود بذلك الدعاء الشاعر نفسه، وحتى إن كان هذا هو ما يقصده الشاعر حقاً فإنه معنى باهت مهلهل وكأنى بالشاعر قد فقد القدرة على التخييل والتصوير فاضطربت الريشة فى يده واهتزت فاختلت ألوانه ورسومه ولم يجد ما يستر به ضعفه غير أن يكيل الدعوات لهاتين النخلتين البائستين وكأنه لا يملك من ألوان الخيال غير هذا الدعاء السقيم.

يقول الشاعر[1]:

يـا نخلتـى بحـرى (بلـرم) سـقيتما ... صـوب الحـيا بتواصـل لا يـصرم
هنئـتما أمـد الـزمان، ونلـتما ... كـل الأمانـى، والحـوادث نـوم
بـالله فيـنا واسـترا أهـل الهـوى ... فـبأمن ظلكمـا الهـوى يتحـرم

ومن العبث أن نجهد أنفسنا فى البحث عن القيمة الفنية أو الصدق العاطفى أو جمال الأسلوب فى هذه الأبيات. وكل ما يسترعى انتباهنا فيها هو تلك الثنائية التى يلاحظها د. إحسان عباس، والتى تأسر الشاعر أسراً قوياً: فالفوارة هى فوارة البحرين أو الخليجين، والبحر بحر النخلتين، والماء يجرى فى مفرغين والماء يذكر مع البسيطة كالدر على العندم، والحوت فى الماء يقابل

(1) خريدة القصر ٢٦/١/٤ وما بعدها.

الطير فى أعلى الشجر، والنخلتان؟ هذه الثنائية تفسر ذلك الهوى المكبوت، فالشاعر يرى الازدواج فى الطبيعة ويفقده فى حياته[1].

وعلى نحو ما أعجب الشعراء بالمتنزهات والفوارات، أعجبوا أيضاً بالقصور، فوقفوا أمامها، وحاولوا أن يبدوا إعجابهم بعظمتها وجلالها ولكن مقدرتهم على رسم الصورة كانت ضعيفة فى الغالب فاكتفوا بأن يعبروا عن إعجابهم وانبهارهم بتلك القصور دون تخييل عميق أو تصوير رئع. من ذلك قول البثيرى يصف قصراً بناه روجار[2]:

وقصور منصورية ... حط السرور بها المطية
أعجب بمنزلها الذى ... قد أكمل الرحمن زيه
والملعب الزاهى على ... كل المبانى العندسية
ورياضه الأنف التى ... عادت بها الدنيا زهية
وأسود شاذروانه[3] ... تهمى مياها كوثرية
وكسا الربيع ربوعها ... من حسنه حللا بهية
وغدا وكل وجهها ... بمصبغات جوهرية
عطرن أنفاس الصبا ... عند الصبيحة والعشية

فالشاعر كما هو واضح من الأبيات يبدو عاجزاً عن التصوير أو الوصف. وليس أدل على عجزه من أنه لا يستعين بأى لون من ألوان البيان أو البديع لتقريب الصورة وتجميلها، فلا تشبيه ولا استعارة ولاشىء من العاطفة أو الخيال. وغاية ما يقف المرء عنده أن شاعرنا معجب بالقصر ليس غير. إنه يريد أن يصف وأن يصور ولكنه يفقد القدرة على الوصف والتصوير فارتعشت الريشة فى يده وجمدت الألوان عنده ونضب معين الشعر لديه.

---

(١) العرب فى صقلية ص٢٧٣.

(٢) خريدة ٢٤/١/٤ وما بعدها.

(٣) الشاذروان: ما ترك خارجا عن مستوى جدار البيت ويسمى تأزيراً لأنه مثل الإزار للبيت.

ونستطيع أن نستخرج من هذه الأبيات ما شئنا من مظاهر الضعف والقصور، فما معنى قوله: "حط السرور بها المطية"؟ ثم انظر إلى سذاجة التعبير في قوله: "إن رياضه عادت بها الدنيا زهية، وأن وجهها مكلل بمصبغات جوهرية"؟

إن هذه القصيدة لم تكتب لتغذية العواطف أو المشاعر، ولا لكى يجد القارىء فيها متعة أدبية، فهى أبعد ما تكون عن ذلك. وإذا كان لها من قيمة فلن تكون قيمة فنية على أية حال ولكن قد يكون لها بعض الأهمية التاريخية، لأنها تعطينا بعض التفاصيل المعمارية لقصر من قصور روجار[1]. قد أفادتنا هذه القصيدة بأن هذا البناء كان يوجد فيه شادروان ذو أسد منحوتة مثل شادروان قصر الحمراء فى أسبانية، وتدلنا أيضاً على أن هذا القصر والأبنية التى تليه كانت تشبه قصور أمراء الأندلس وإفريقيا الشمالية فى خطوطها الهندسية وزخارفها الفسيفسية ونقوشها العربية arabesques وبركها وشادرواناتها وأسدها المرمرية وتتم التشابه تلك الرياض الكثيفة الأشجار والبساتين المتلونة الأزهار التى كانت فيها الطبيعة تمد يدها إلى البنائين والنحاتين للتعاون على خلق الجمال[2].

وقد اتصل بهذا الجانب من شعر الطبيعة وصف البرك الصناعية وغير الصناعية التى تحيط بنافورات القصور وما يحيط بها من تماثيل على هيئة سباع أو فيلة تمج الماء على أفواهها. يقول أبو الحسن على بن محمد الصقلى فى تصوير بركة ماء ينعكس فيها ضوء القمر فيبدو فى ارتعاشه مثل قلب عاشق يرتعد[3]:

بركة الماء تطرد	للصبا فى متنها زرد
بات فى أحنائها قمر	مثل قلب الصب يرتعد

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص١٣٥.
(2) المسلمون فى صقلية تأليف مارتينو ماريو ص٥٤.
(3) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٤.

ويصور ابن حمديس بركة شقها نهر فيقول[1]:

وزرقاء في لون السماء تنبهت / لتحبيكها ريح تهب مع الفجر
يشق حشاها جدول متكفل / بسقي رياض ألبست حلل الزهر
كما طعن المقدام في الحرب دارعا / بعضب فشق الخصر منه إلى الخصر

وقال ابن الخياط الربعي يصف عين ماء جلبت إلى بركة بدار الإمارة، وفيها يشبه الماء حين اجتماعه في الجدول بالسيف، وفي استقراره في البركة — إذ ضربته الريح — بالدرع وأوجز فيه وأحسن كل الإحسان على حد تعبير التجيبي البرقي صاحب شرح المختار من شعر بشار[2]:

حتى استقرت لديه في قرارتها / ثم استمرت به في مرمر سرب
لها على الجمع والتفريق أمثلة / في الدرع مسرودة والسيف في الشطب

الجداول والأنهار :

وأنعمت الطبيعة على صقلية بالأنهار والجداول الكثيرة، وتغنى الشعراء بهذا الجانب الجميل من الطبيعة، فقال ابن حمديس يصف نهراً جارياً على حصى[3]:

ومطرد الأجزاء يصقل متنه / صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى / عليها شكا أوجاعه بخريره
كأن حبابا ريع تحت حبابه / فأقبل يلقي نفسه في غديره

وعلى هذا النحو فتن الشعراء الصقليون بالطبيعة، وهاموا بها، وامتزجوا معها، ورسموها في لوحات كثيرة، وصور بارعة.

• • • • •

(1) ديوان ابن حمديس ص١٨٧.
(2) شرح المختار من شعر بشار ص٢١٩.
(3) ديوان ابن حمديس ص١٨٦.

ثانياً : المجتمع الصقلي كما يصوره الشعر

- الغناء والموسيقى
- الرقــص
- الخمريـات
- الشعر الاجتماعي
- شعر الزهــد

على الرغم من حياة الجهاد والحروب التى عاشتها صقلية، فإن بعض الصقليين قد أقبلوا على الحياة، فاستمتعوا بالرقص والغناء، وشغفوا بالخمر، وكلفوا بالجوارى والقيان، وترك ذلك كله أثره فى الشعر، فواكب تلك الحياة العابثة وصور هذا الجانب اللاهى من المجتمع أصدق تصوير.

الغناء والموسيقى :

كان للغناء شأن كبير فى صقلية حتى إن أحد ملوك الأندلس استقدم من الجزيرة مغنياً صقلياً افتتن به وهذا على تقدم ذلك الفن فى الأندلس مما يشهد بكبير تقدمه فى صقلية[1].

وقد خصص ابن مكى فى كتابه تثقيف اللسان بابا فى غلط أهل السماع[2]، وهذا فى حد ذاته يدل على ازدهار الغناء هناك. وقد أورد أمثلة كثيرة مما كان يتغنى به الصقليون وإن كان أكثرها لشعراء مشارقة. ومن أمثلتها قول قيس بن الخطيم[3]:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب   لعمرة وحشا غير موقف راكب

وقول آخر[4]:

لو عرفت الهوى عذرت ولكن   هان لما خفى عليك عليك

---

(1) الأستاذ أمين الخولى. من مقال بمجلة المقتطف بعنوان "المدنية العربية فى صقلية" ص١٤٧ - عدد نوفمبر ١٩٢٣.

(٢) أنظر : تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكى الصقلى ص٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه - ص٢٧٤.

(٤) تثقيف اللسان ص٢٧٥.

وقول جميل[1]:

راحت بثينة في الخليط الرايح   فانهل دمعك مثل غرب المانح

وأمثلة أخرى كثيرة لذى الرمة والبحترى وقيس بن الملوح وابن الرومى وغيرهم.

ولكن هذا لا ينفى أن كثيراً من الشعر الصقلى كان ينظم للغناء بدليل قول ابن حمديس وهو يصف مغنية ويشير إلى أنها كانت تتغنى بشعره[2]:

وتناول نشوة من روضة   طلعت كالشمس بالنجم عليك
تتغنى بنسيب قلته   فهواها راجع منك إليك

ويشير البلنوبى إلى بعض ما كان يتغنى به الصقليون فيقول[3]:

فغن لمحزون جفا النوم جفنه   فليس له حتى الوصال غموض
"شجانى مغانى الحى وانشقت العصا   وصاح غراب البين: أنت مريض"

ويحتفظ البلنوبى فى قصيدة أخرى باسم مغن صقلى يدعى "القفاص" ويبدو أنه نال حظاً من الشهرة فى صقلية، بدليل إعجاب البلنوبى به، فصوته يشبه السحر، وعزفه يتجاوب مع نغماته فتسكر السامعين بغير خمر. إلى آخر هذه الصفات التى يرددها، يقول[4]:

نبئتكم من حالنا كل ما كانا   فما كان سراً دونكم عاد إعلانا
ظللنا بحكم الراح نغنم لذة   من العيش صرف الدهر فيها تناسانا
وعارضنا (القفاص)[5] يعرض سحره   وناهيك بالقفاص خدنا وإحسانا
إذا قارنت أوتاره نغماته   ظللت-إن لم تشرب الراح-سكرانا

وكان المغنون يستعملون أنواعاً كثيرة من آلات الغناء والطرب، ولعل أكثرها ترددا فى الشعر الصقلى العود والمزمار والطار أو الدف. وكانت هذه

---

(1) المصدر نفسه ص٢٧٨.

(2) ديوان ابن حمديس ص٣٤٣.

(3) خريدة القصر ١/٤/ص١٠.

(4) ديوانه، رواية الفقيه الخريمى – نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ورقة ٨.

(5) اسم المغنى، ولم نجد شيئاً عنه فى المصادر التى اطلعنا عليها.

الآلات تصاحب المغنين والراقصات فى أغانيهم ورقصاتهن. يقول ابن حمديس يصف عوادا يضرب على العود[1]:

وذى دلال كـــأن وجنـــته	مـــن خجـــل بالـــشقيق منتقـــبة
فـــى حجـــره أجـــوف لـــه عـــنق	نـــيطت بظهـــر تخالـــه حدبـــه
يمـــد كفـــا إلـــيه ضـــاربة	أعـــناق أحـــزاننا إذا ضـــربه
تحـــسب لفظـــاً بأخـــتها نغمـــا	ويـــودع المـــسمعين مـــا حـــسبه
قلـــت ألا فانظـــروا إلى عجـــب	جـــاء بـــسحر فأنطـــق الخـــشبة

ويصف نايا أو مزماراً ذا ثقوب يعزف عليه أحد الزامرين فيقول[2]:

وذى حـــنين تحـــن أنفـــسنا	إلـــيه مـــنقادة ومـــنجذبة
يفـــشيه ذو حكمـــة أناملـــه	مـــنغمات بزمـــرة ثقـــبة
يرســـل عـــن منخـــريه مـــن فمـــه	ريحـــا لهـــا نغمـــة مـــن القـــصبة
كـــأن ألحانـــه الفـــصيحة مـــن	صـــرير بـــاب الجـــنان مكتـــسبة

ويبدو أن هؤلاء المغنين كانوا كثيرين كثرة مفرطة، حتى أنهم كانوا يتنافسون فيما بينهم. وفى الشعر الصقلى ما يدل على أنهم لم يكونوا يمارسون الغناء فى الحانات ومجالس الأنس فحسب، بل كانوا يدعون إلى الأفراح أيضاً.

ومن الطريف أن بعضهم كان يبدو فى صورة تشبه إلى حد بعيد تلك الصورة التى نحتفظ بها فى أذهاننا لبعض المغنين القدماء فى عصرنا الحاضر الذين كانوا يغشون الأفراح والحفلات ويغنون بصوت أجش فيقابلون بالاستهزاء والتهكم. هذه الصورة الكاريكاتورية الساخرة للمغنين تتردد كثيراً فى الشعر الصقلى ولاسيما فى شعر ابن الطوبى من مثل قوله[3]:

يغنـــى فـــنهوى انـــسداد الـــصماخ	ونبـــصره فـــنحب العمـــى
دعـــاه رجـــال إلى عرســـهم	فـــصير عرســـهم مأتـــا

(1) ديوان ابن حمديس ص٢٠.
(2) ديوان ابن حمديس ص٢١.
(3) خريدة القصر ١/٤/ص٦٩.

ويقول فى ذم مغن آخر[1]:

ومغـــن لـــو تغنـــى ... لـــك صـــوتين لمـــتا
سمـــج الخلقـــة غـــث ... يـــنحت الآذان نحـــتا
ويغنـــى مـــا اشـــتهاه ... لا يغنـــى مـــا أردتـــا
كلمـــا قـــال أقـــترح ... قلـــت اقتراحـــى لـــو ســـكتا

ويقول فى مغن آخر[2]:

ومغـــن نحـــن مـــنه ... بـــين أســـقام وكـــربه
يـــضرب العـــد ولكـــن ... ضـــربه يـــوجب ضـــربه

ويقول فى مثله[3]:

لـــنا مغـــن غـــناه ... يعـــود شـــرا علـــيه
لم يـــأت منـــزل قـــوم ... فعـــاد قـــط إلـــيه

وتتردد هذه الصورة الساخرة أيضاً عند غير ابن الطوبى من شعراء صقلية ، فيقول البلنوبى[4]:

ولـــنا مغـــن لا يـــزال ... يغيظـــنا مـــا يفعـــل
صـــلف وتـــيه زائـــد ... وتبظـــرم وتمحـــل[5]
غنـــى ثقـــيلاً أولاً ... وهـــو الثقـــيل الأول

ويقول أبو الفضل بن راشد فى مغن آخر على تلك الشاكلة[6]:

غنـــى فكـــد وعنـــى ... منـــى فـــؤادا معنـــى
فقلـــت مـــاذا غـــناه ... فـــنح بـــالله عـــنا

على أن هذه الصور بما فيها من سخرية لاذعة تشير إلى كثرة هؤلاء المغنين كما سبق أن أشرنا. ولكننا لا نلتقى بمثل هذه الصورة الساخرة فى

(١) خريدة القصر ص٦٨ - ٦٩.

(٢) نفسه المصدر ١/٤/ص٦٩.

(٣) نفسه ١/٤ ص٦٩ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه ١٢/١/٤ وما بعدها.

(٥) التبظرم : العجب والتيه فى حمق. ويصح أن تكون تبرطم وهو الغضب فى الكلام. والتمحل: التكلف.

(٦) خريدة القصر ١/٤/ص١٠٣.

وصف المغنيات بل على العكس من ذلك، فالمغنية فى الشعر الصقلى هيفاء، ممشوقة القد، معشوقة، تعذب أنفس عشاقها، وتسكر الندماء بغنائها وجمالها، وسحر ألحانها، وإذا ما تغنت تمايل القوم طربا، وركع المعجبون تحت أقدامها.

وقد أفاض الشعراء فى ترديد هذه الأوصاف فقال أحدهم[1]:

هيفاء يكفينا المدام غناؤها	وجمالها التفاح والريحانا
فإذا بصرت بوجهها لم أنتقل	وإذا تغنت لم أزل سكرانا

ويتغزل ابن حمديس فى مغنية أخرى فيقول[2]:

أذابل النرجس فى مقلتيك	أم ناضر الورد على وجنتيك
لا تنكرى أنك حورية	فنفحة الجنة نمت عليك

ثم يقول :

لو شئت حييت نشاوى الهوى	من لون خديك بتفاحتيك
وإن تغنيت لنا لم نزل	نخلع أفواها على أخمصيك
لاصبر لى عنك وإن كان لى	على جناياتك، صبر عليك

ويقول أيضاً فى مغنية[3]:

وممشوقة القد معشوقة	تعذب أنفس عشاقها
بعين إذا سحرت بالفتور	بدا للمها بعض أحداقها
وشدو يقوم لفرط السرور	بنفس الحزين على ساقها
تهيم به الهيم عن شربها	زلالا لإحياء أرماقها
وتخلع إن سمعته الحمام	عليها قلائد أطواقها
فمن لشج سهل أخلاقه	يعذبه وعر أخلاقها

(١) مختصر الكتاب المتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١١٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٤٥.
(٣) المصدر نفسه ص٣٢٢.

الرقص في الشعر الصقلي :

وعلى نحو ما برع الصقليون في الغناء، برعوا في الرقص أيضاً، وتفننوا فيه تفنناً عجيباً. ويحتفظ الشعر الصقلي بصورة حية لهذه الظاهرة الطريفة.

وفي هذا الشعر ما يدل بوضوح على أن البيئة الصقلية مهدت لظهور مذهب جديد في الرقص يكاد يشبه ما نسميه في عصرنا الحاضر "الرقص التعبيري" أو "الحركي" وذلك أن الراقصة فيهم كانت تعبر بالحركة عما تريد، وكانت توافق النغمات بقدميها وتومىء إلى كل عضو بما يحل فيه من أثر الحب، فإن ذكرت دمعاً أشارت إلى العين، وإن وصفت وجداً أشارت إلى القلب، وهي مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب، وتذلل المحب بما يليق بهما من الإشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت[1]. وقد أشار غير شاعر صقلي إلى هذه الظاهرة. فقال ابن حمديس[2]:

وراقصة بالسحر في حركاتها ... تقيم به وزن الغناء على حد
منغمة ألفاظها بترنم ... كسا معبدا من عزه ذلة العبد
تدوس قلوب السامعين برخصة ... بها لقطت ما للحون من العد
بقد يموت الغصن من حركاته ... سكوناً، وأين الغصن من برة القد[3]
وتحسبها عما تشير بأنمل ... إلى ما يلاقي كل عضو من الوجد
بنا لا بها ما تشتكي من جوى الهوى ... وأدمع أشواق مخددة الخد

ويشير ابن حمديس إلى تلك الظاهرة في قصيدة أخرى يصف فيها الراقصات فيقول[4]:

---

(1) أنظر مقدمة القصيدة رقم ٨٤ من ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(2) ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(3) البرة : البضاضة والامتلاء.
(4) ديوان ابن حمديس ص١٣.

وسـود الـذوائب يـسحبنها	كـسعى الأسـاود فـوق الكثـيب
توافـق بالـرقص أقـدامهن	يطـأن بهـا نغمـات الذنـوب
يـشرن إلى كـل عـضو بمـا	يحـل بـه فـى الهـوى مـن كـروب
بـسطنا لهـا - وهـى مـثل الغـصون	تمـيس بهـب الـصبا والجـنوب
علـى الأرض مـنا خدودالوجـوه	وبـين الـضلوع خـدود القلـوب

ويقف الدكتور إحسان عباس حائر إزاء هذه الظاهرة، فلا يدرى ما إذا كان هذا اللون من الرقص نشأ فى صقلية أم فى الأندلس، وإن كان يميل إلى أنه ربما يكون مشتركا بين البلدين ولكنه على أية حال لا يقطع بشيء فى هذه المسألة[1].

ولكننى أعتقد أن هذا اللون من الرقص نشأ فى صقلية وانتقل منها إلى الأندلس لأن الخبر فى ديوان ابن حمديس يؤكد هذا، فهو يروى أن أديبا أندلسياً سأله أن يصف له راقصة على مذهبهم — أى الصقليين — فى رقص قيناتهم، فأجابه ابن حمديس على سؤاله بالمقطوعة الدالية التى ذكرناها آنفاً[2]، ويفهم من صيغة السؤال أنه يقصد الصقليين لا الأندلسيين، ومما يعضد رأيى أن هذه الظاهرة تشيع فى الشعر الصقلى بصورة كبيرة، ويرددها الشعراء كثيرا فى وصفهم للراقصين والراقصات. ومن ناحية أخرى فقد نشر الأستاذ أحمد زكى أبو شادى مقالا فى مجلة أبوللو بعنوان "الرقص الفرنجى فى شعر ابن حمديس" ذهب فيه إلى أن هذا اللون من الرقص إنما هو أثر من آثار اختلاط العرب بالمسيحيين وأنه قد تسرب إلى شعراء صقلية عن طريق اتصالهم بالبيئة الأعجمية[3].

---

(١) العرب فى صقلية ص٢٠٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(٣) أنظر مجلة أبوللو - المجلد الأول - ص١٠٣، ١٠٥ مقال بعنوان (الرقص الفرنجى فى شعر ابن حمديس) للأستاذ احمد زكى أبو شادى .

مهما يكن من أمر، فقد انتشر الرقص فى المجتمع الصقلى انتشاراً كبيراً، ووجد الراقصون أيضاً بجانب الراقصات، وغالباً ما كان رقصهم مصحوباً بالأنغام، فالراقص يمزج الغناء بالرقص، والرقص بالغناء، ويحرك رجليه ويعتمد عليهما فى أداء رقصه كأنهما مزمار وعود مثلما يرددون فى أشعارهم، فمن ذلك قول ابن الجهار الكمونى يصف رقصاً[1]:

مـــا أن رأيـــت كـــراقص	مـــستظرف فـــى كـــل فـــن
يحكـــى الغـــناء برقـــصه	كمـــراقص يحكـــى المغنـــى
رجـــلاه مـــزمار وعـــو	د فـــى نهايـــة كـــل حـــسن
فهـــو الـــسرور لكـــل عـــيـ	ـــن والنعـــيم لكـــل أذن

ويمكن أن نرسم صورة واضحة للراقصة كما تبدو فى الشعر الصقلى، فهى خفيفة الوطء هيفاء، رشيقة، لو جالت بخطوتها فى جفن ذى رمد لم يشتك الوصبا، تأسر قلوب من حولها ولاسيما إذا كانت تجمع بين الرقص والغناء. يقول البلنوبى[2]:

هيفاء إن رقصت فى مجلس رقصت	قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطوتها	فى جفن ذى رمد لم يشتك الوصبا

ويقول ابن الطوبى فى راقصة أخرى[3]:

راقـــصة كالغـــصن مـــن فـــوقه	بـــدر يـــنير تحـــت ظلمـــاء
تلـــهب مـــثل الـــنار فـــى رقـــصها	وهـــى مـــن الـــنعمة كالمـــاء
كأنمـــا فـــى رجلـــها عـــودها	وزامـــر يقـــبع بالـــناء[4]
ســـاحرة الـــرقص غلامـــية	مـــنها دوالـــى، وبهـــا دائـــى
إذا بـــدت تـــرقص مـــا بينـــنا	يـــرقص قلبـــى بـــين أحـــشائى

(١) خريدة القصر ١٢٢/١/٤.
(٢) نفسه ١/٤ ص٦.
(٣) خريدة القصر ٦٦/١/٤.
(٤) الناى والناء هو المزمار، والكلمة أعجمية الأصل معربة.

وعرفت صقلية لوناً آخر من الرقص هو "الرقص الجماعى" وكان مصحوباً بالغناء فى الغالب أيضاً. ويصف ابن حمديس جماعة من الراقصات يؤدين رقصة جماعية فيشبههن – وهن ساحبات ذيولهن، شاديات بأعذب الأنغام – بحمائم الأيك فى هديلها، وبالطواويس فى جمال هيئتها وصورها يقول[1]:

ومن راقصات ساحبات ذيولها	شواد، بمسك فى العبير تضمخ
كما جررت أذيالها فى هديلها	حمائم أيك أو طواويس تبذخ

ويصف ابن حمديس أيضاً لوناً آخر من ألوان الرقص، وفيه كانت الراقصة تحمل طاراً تنقر عليه، ومن حولها المغنيات الملحنات يحملن الآلات الموسيقية، فواحدة تحتضن العود، وأخرى تقبل المزمار، وثالثة توقع بقدميها على الأرض، وتوائم بين ذلك وبين النقر على طارها، فتتجاوب النغمتان أو الأنغام، والراقصات الأخريات حولها أشبه بجوقة غنائية، وقد صفقت الشموع حولهن فى منظر بديع. وفى ذلك يقول ابن حمديس[2]:

وقد سكنت حركات الأسى	قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها	وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها	حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة	تريك من النار نوارها

(١) ديوان ابن حمديس ص١١٢.

(٢) ديوان ابن حمديس ص١٨٢.

الخمر فى الشعر الصقلى

كان للبيئة المسيحية أثر كبير فى شيوع شرب الخمر فى صقلية شيوعاً كبيراً، وقد تخصصت بعض المدن الصقلية فى إنتاج الخمور مثل سرقوسة ومسينى، وفيها يقول أحد الشعراء[1]:

يـا سـيدى قـد جـاء مـسينى	أرق مـن حـالى ومـن دينـى
جـاء بـه (مـرتين) فـى دنـه	لا عطـبت أجفـان (مـرتين)

ولقد لعب الذميون أو أهل البلاد الأصليون دوراً كبيراً فى انتشار الخمر، فهم الذين كانوا يمتلكون الدساكر والحانات، ويملأون أديرتهم بالخمر المعتقة والجوارى والغلمان، ويفتنون فى تهيئة ضروب الفتن والملذات افتناناً عظيماً، وانعكس هذا الواقع الصقلى على الشعر، فأقبل الشعراء على الخمر، وشغفوا بها حباً، وافتنوا فى وصفها والتغنى بذكرها.

ومن يمعن النظر فى أشعارهم التى نظموها فى الخمر، يكاد يظن أن كثيراً منهم كانوا "يقدسون الخمر" ويعتبرونها جزءاً من حياتهم المتحضرة يألفونه ويلذونه، حتى لنجد أحدهم – وهو ابن الخياط الربعى ليتمنى أن يمتلك الأرض بما حوت، لا ليعمرها أو يصلح ما فسد منها، ولكن ليزرعها كرماً حتى تصبح خمراً يؤثرها الظامئون على الماء الزلال يقول[2]:

ولـو أن ملـك الأرض تحـت يـدى	لجعلـت كـل نـباتها كـرما
حتـى تكـون الأرض مـنهلة	تغنـى الـصوادى عـن زلال المـا

أما ابن حمديس فهو على استعداد لأن يضحى بشبابه فى سبيل اللذة، ويرى أنه لا يشفى الروح إلا كأس من كئوس الراح، يقول[3]:

---

(1) الروض المعطار فى خبر الأقطار للحميرى ص١٢٠.
(2) المختار من شعر بشار – ص٣٥.
(3) ديوان ابن حمديس ص٨٣.

علـــل الـــنفس بـــريحان وراح وأطـــع ســـاقيها واعـــص اللـــواح

خلنـــى أفـــن شـــبابى مـــرحاً لا يـرد المهـر عـن طـبع المـراح

إنمـــا يـــنعم فـــى الدنـــيا فتـــى يدفـع الجـد إلـيها فـى المـزاح

فاسـقنى عـن إذن سـلطان الهـوى لـيس يـشفى الـروح إلا كـأس راح

ويحـذو أبـو العـرب الـصقلى حذو زميليه فى الهيام بالخمر، والحرص علـى تعاطـيها واعتـناق فكرة تقديسها، حتى إنه يدعو إلى هجر العقل والرشاد فـى وصـل ابـنة العـنب، ويـرى أن الهموم شياطين لا تزول إلا بقذفها بأشهب الصهباء يقول[1]:

أهجر رشادك فى وصل ابنة العنب ولا تعقـــن أمـــر اللهـــو واللعـــب

مـــتع شـــبابك واســـتمتع بجدتـــه فهـو الحبـيب إذا مـا بـان لم يـؤب

من ضيع اللهو فى بدء الشباب طوى كشحا على أسف لم يغن فى العقب

والحلم قيد فدعه واخط فى مرح والجـد داء فـداو الـنفس باللعـب

والهـم للـنفس شـيطان يوسوسـها فاقذفه من أنجم الصهباء بالشهب

أمـا ابـن القطـاع فـيدعو إلى الخمر لأنها — فى نظره — تجدد الحياة، وتعـيد للـشيخ شـبابه، وللكهـل صباه. وما دام المرء رهينة فى تلك الحياة، وما دامـت تلـك الـرهينة مؤداة لا محالة، فلا شىء أجدى من اغتنام غفلة الزمان، والعكوف على كئوس الخمر، ويعبر عن هذه المعانى فيقول[2]:

قهـــوة إن تبـــسمت لمـــزاج خلـت ثغـراً فـى كأسـها لؤلـؤيا

فاصـــطحبها ســـلافة تـــترك الـــشـ ـيـخ إذا مـا أصـاب مـنها صـبيا

واغتـنم غفلـة الـزمان فـإن الـــ ـمـرء رهـن مـا دام يـوجد حـيا

وتـتردد فـى الـشعر الـصقلى أوصاف كثيرة للخمر، منها ما هو تقليدى يحذو فيه الشعراء حذو المشارقة، ومنها ما يقترن بجو صقلية وطبيعتها البحرية والحربية.

---

(١) خريدة القصر ٢/٢٢٠ (ط. تونس)

(٢) خريدة القصر ٥٢/١/٤ (ط. مصر).

فمن الأوصاف التقليدية وصف الخمر بالقدم والعتاقة، وقد أكثر الشعراء من ترديد هذه الصفة، وبالغوا فيها، فمن ذلك قول ابن حمديس[1]:

ومدام قدمت فهي إذا ... سئلت تخبر عن عاد إرم

سكنت أجوف في جوف الثرى ... نسج الدهر عليها ورقم

خالفت أفعالها أعمارها ... فأتت قوتها بعد الهرم

ويعبر شاعر آخر عن فكرة القدم هذه فيقول[2]:

ووردية من بنات الكروم ... كساها النحول مرور الحقب

رأت أيدي الشرب من فضة ... فصاغت أناملهم من ذهب

وتحدث الشعراء أيضاً عن فكرة سورة الخمر في الدن وما لها من هدير قوى يشبه هدير الفحل بين اللقاح، وكيف أن السنين قد صفتها ورققتها وحبستها حتى فكت عقالها الليالي، فخرجت من حبسها صافية صرفة. وفي ذلك يقول أحد الشعراء[3]:

ثوت في دنها ولها هدير ... هدير الفحل ما بين اللقاح

وصفتها السنون ورققتها ... كما رق النسيم مع الرواح

إلى أن كشفت عنها الليالي ... ونالتها يد القدر المتاح

فأبرزها نزال الدن صرفا ... كما انبعث النجيع من الجراح

ومن الأوصاف التقليدية للخمر أيضاً التي نلتقي بها في الشعر الصقلي فكرة الثأر التي طالما رددها الشعراء القدماء، فالخمر تصرع شاربها كما لو كانت تأخذ بثأرها منه لقتله إياها حين مزجها بالماء. ويعبر ابن القطاع عن هذه الفكرة بقوله[4]:

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٤٣٩.

(2) المغرب ٢٥٣/٤ (مخطوط). والشاعر هو سليمان بن محمد الطرابنشي.

(3) مختصر الدرة ورقة ٩٩.

(4) الخريدة ٥٤/١/٤.

شـــربت درياقـــة للـــ همـــــوم إذ لبـــــستني
دبـــت بجـــسمي فـــأردت همـــــومه، وشـــــفتني
قتلــــتها بمــــزاج وبعــــد ذا قتلتنــــي
كأنهـــا طلبتنـــي بالـــثأر إذ قتلتنـــي

أثر البيئة الصقلية في شعر الخمر:

وكـان للبيئـة الصقلية أثرها فى شعر الخمر، فقد استرفد الشعراء كثيراً مـن أوصـافهم ومعانـيهم مـن تلـك البيئة، فمـن الأوصاف التى اقترنت بالبيئة البحـرية تـصوير الحـباب فـوق كـأس الخمـر بالشبكة التى تمنعه من الطيران، وتتردد هذه الصورة كثيراً فى أوصافهم فمن ذلك قول أبى العرب الصقلى[1]:

بكـر حـصان إذا مـا المـاء واقعهـا أبـدت لـنا زبـداً فـى سـورة الغـضب
كانـت تطـير نفـارا حـين نافـسها لـولا الـشباك التى صيغت من الحبب

ونجد تشبيه الحباب بالشبك عند ابن الطوبى أيضاً إذ يقول[2]:

والمـاء يحـذر مـنها أن تطـير، فقـد صـاغ الحـباب علـيها صبغة الـشبك

ويقول شاعر آخر فى المعنى نفسه[3]:

كـــأن حـــبابها شـــبك مقـــيم لـــصيد الألـــسن المتطايـــرات

وتتردد هذه الصورة فى شعر ابن حمديس بكثرة، فمن ذلك قوله[4]:

كـــأن لهـــا مـــن نـــسيج الحـــباب شـــباكا تعقـــل أطـــيارها

ولكـنه يـزيد علـى هـذه الـصورة فيـشبه المـاء الـذى يـصب على الخمر بالغائص فى البحر ليستخرج الدر الذى يرتفع على السطح. وفى ذلك يقول[5]:

إذ صـــب مـــاء علـــى صـــرفها رأيــت لــه غوصــة فــى اللهــيب
فتخـــرج مـــن قعـــرها لؤلـــؤاً يـــنظم للكـــأس فـــوق التريـــب

(1) خريدة القصر ٢/ ٢٢٠ (ط. تونس).
(2) نفسه ٨٣/١/٤ (ط. مصر).
(3) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ٩٨.
(4) ديوان ابن حمديس ص١٨١.
(5) المصدر نفسه ص١٣. وانظر العرب فى صقلية ص١٩٧.

واستمد الشعراء بعض أوصافهم من البيئة الحربية، فمزجوا بين الخمر والحرب، على نحو ما يتمثل فى قول ابن حمديس[1]:

كأن الكئوس بأيدى السقاة خيول على الهم منا مغيرة

ويصف ابن الخياط الخمر بأنها تطرد الهموم وتحيى السرور فى النفوس، وذلك فى قوله[2]:

ذخيرة قوم يسبكون عقارهم عقارا إذا ارتاحوا وإن كان تالدا
ترى همهم فيها طريد سرورهم وأحبب بشىء كان للهم طاردا

كما أدار الشعراء أوصافهم حول فكرة أخرى هى مزج الخمر بالماء، واجتماع العنصرين: الماء والنار فى مكان واحد. ويكثرون من ترديد هذه الصفة بصورة كبيرة. فمن ذلك قول الكاتب أبى على الحسين بن أحمد[3]:

وكأس من الماء مخروطة تنير لنا مثل نور النهار
تبدت وفى وسطها جمرة تكاد تصدعها بالشرار
فحسبك من عجب ما تراه بتأليف ما بين ماء ونار

ويقول ابن القطاع فى المعنى نفسه[4]:

أنظر إلى الماء حاملاً لهبا واعجب لنار تضىء فى ماء

ويعبر شاعر آخر يدعى أبا الحسن بن محمد عن فكرة المزج هذه ويصف تناثر الخمر لحظة المزج وهى تتجمع فى أسفل القدح ثم تتكاثف وتتماسك لتصبح أشبه بالدر المنظوم فى أعلاه فيقول[5]:

وقهوة كشعاع النار فى قدح قد شجها بمزاج الماء ساقيها
يريك دراً نثيرا فى أسافلها يعود درا نظيماً فى أعاليها

ويردد ابن حمديس أيضاً هذه الفكرة فيقول فى إحدى خمرياته[6]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٨٤.
(٢) المختار من شعر بشار ص١٦٦.
(٣) عنوان الأريب ١/١٢٩.
(٤) الخريدة ٤/١/٥٤.
(٥)الخريدة الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٤.
(٦) ديوان ابن حمديس ص٨٣.

علل النفس بريحان وراح	وأطع ساقيها واعص اللواح
وأدر حمراء يسرى لطفا	سكرها من شمها في كل صاح
واعلها بالماء تعلم منهما	أن بين الماء والنار اصطلاح

وصف أدواتها وسقاتها :

ولم يقتصر الشعراء على وصف الخمر أو الدعوة إلى معاقرتها، وإنما التفتوا أيضاً إلى أدواتها كالكئوس والدنان فوصفوها، وأفاضوا في الحديث عن السقاة ومجالس الشراب. فابن حمديس يصف الكأس فيتحدث عن شفافيته واحتوائه للخمر، ويشبهه بالجسم وروحه الخمر، وأنه يخف وهو ملآن بالخمر، ويثقل وهو خال منها. يقول[1]:

ومضمن راحاً يشف زجاجه	عن ماء ياقوت بدر يزبد
جام يجمع شربه لذاتنا	وعقولنا بالسكر منه تبدد
ويخف ملآنا ويثقل فارغا	كالجسم تعدم روحه أو توجد

ويصف زجاجة خمر رسمت عليها صور فرسان يمتطون ظهور الجياد، ويتلاعب بهذه الصفة تلاعباً جميلاً، فيتخيل حرباً تدور بينها وبين كف الساقي، ويندمج ابن حمديس في تصوره فيمزج الخمر بالحرب مزجا نكاد نحس معه أننا بإزاء معركة حربية حقيقية بما فيها من سيوف تضرب، ودماء تسيل، وأعناق تخر صريعة. يقول[2]:

بزجاجة صور الفوارس نقشها	فترى لها حربا بكف الساقي
وكأنما سفكت صوارمها دما	لبست به غرقا إلى الأعناق
وكأن للكاسات حمر غلائل	أزرارها درر على الأطواق

وتغنى الشعراء بمفاتن السقاة من الغلمان والجواري وأفاضوا في وصف محاسنهم وصوروهم بأرق الصور وألطفها. يقول أبو العرب الصقلي واصفاً أحد هؤلاء السقاة[3]:

---

(1) نفسه ص١٣٦.

(2) ديوان ابن حمديس ص٣٢٦.

(3) الخريدة – قسم شعراء المغرب والأندلس ٢٢١/٢ (ط. تونس).

أيها المناظر فى عينى وأحسنها ... كأس بكف رخيم الدل سحار
كأنه إذ يسقى سادة زهرا ... نجم يوزع نجما بين أقمار

ويصف أبو الحسن ابن الطوبى ساقيا يوزع الصهباء على الشاربين فيقول[1]:

وساقياً تسكب الصهباء نظرته ... إلى صريع من الفتيان منبتك[2]
غدا يصرفها فينا ويخرجها ... فنحن وهى من الأيام فى ضحك

ويصف أبو العباس محمد بن القاف ساقياً آخر ويقابل مقابلة حسنة بين لون الخمر ولون خديه فيقول[3]:

وسقانا الراح ساق ... ماله فى الحسن ند
فهى فى الكأس أقاح ... وهى فى خديه ورد

أما الساقى عند ابن حمديس فهو مليح الدل، جميل المحيا، يعله بالخمر مرة فى إثر مرة، وينادمه فى الشراب[4]:

ومليح الدل إن عل بها ... قلت نجم فى فم البدر غرب
شعشع القهوة فى صوب الحيا ... وسقانى فضلة مما شرب
فتلاقى فى فمى من كأسه ... ماء كرم وغمام وشنب

أما البلنوبى فيحتفى بساقيه احتفاء عظيما حتى إنه ليؤثره على الراح، فهو ليس كلفا بالراح بقدر ما هو كلف بساقيها سواء أكان ذلك الساقى غلاماً أم جارية، وهو يصرح بأن الخمر ذاتها لا تسكره، ولكن خمر مقلتيه هو الذى يسكره ويذهب بعقله. يقول[5]:

لست بالراح مستهاما ولكن ... بغزال سعى إلى براح
بغلام مثل الفتاة غرير ... أو فتاة مثل الغلام رداح
أنا صاح من خمرة غير أنى ... لست من خمر مقلتيه بصاح

---

(١) الخريدة ٨٢/١/٤ (ط. مصر).
(٢) منبتك: سكران.
(٣) الخريدة ٩٥/١/٤.
(٤) ديوان ابن حمديس – ص٤٦.
(٥) ديوان البلنوبى – نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية – ورقة ١ – ٢.

والساقي عند البلنوبي لا يقتصر عمله على تقديم الخمر فحسب، ولكنه مدرب تدريباً جيداً على اصطياد الزبائن وإيقاعهم في حبائله، ولا يجد حرجاً في أن يبيع جسده لمن يريد. يقول البلنوبي[1]:

وساق كمثل الغزال الربيب	بصير اللحاظ بصيد القلوب
جسرت عليه فقبلته	مجاهرة في جفون الرقيب
فلما توسد كف الكرى	وأهداه لي سكره من قريب
تعجلت ذنباً بفتكي به	ولكنه من مليح الذنوب

كما التفت الشعراء الصقليون إلى الساقية أيضاً فوصفوا محاسنها، وخفتها ورشاقتها وعذوبة حديثها، وما تبديه من تدلل أحياناً، وتبذل أحياناً أخرى. فمن ذلك قول ابن حمديس[2]:

أقبلت تسعى بها خمصانة	عم منها حسنها خلقاً عميم
كلما قامت تثنى جعلت	ميل التيه على خوط قويم
سحر هاروت وما روت بها	في فتور اللحظ واللفظ الرخيم
تودع الكف شهابا محرقا	كل شيطان من الهم رجيم

ويزعم الدكتور إحسان عباس أن الشعراء الصقليين اقتصروا على وصف الساقي فحسب ولم يتطرقوا إلى وصف الساقية باستثناء ابن حمديس. وفي ذلك يقول "إن الساقي في الشعر الصقلي غلام، إلا عند ابن حمديس فهو ساقية جميلة رخيمة اللفظ ساحرة المقلتين"[3].

وهذا غير صحيح، فهناك شعراء آخرون غير ابن حمديس وصفوا الساقية وأكثروا في ذلك على شاكلة أبي الحسن ابن الطوبي الذي يصف ساقية فيقول[4]:

---

(1) الخريدة ٤/١/ ص٦.

(2) ديوان ابن حمديس ص٤٤٩.

(3) العرب في صقلية ص١٩٦.

(4) الخريدة ٤/١/٨٥.

يـا حـبذا كـأس يكـون بهـا	ريـق كـأن خـتامه مـسك
باتـت تعللنـي بهـا، وبـه	حسناء مـا فـي حسنها شـك
هاتـيك كالدنـيا، فـلا أحـد	إلا لهـا بفـؤاده فـتك

ويتغزل ابن الخياط فى ساقية هيفاء مجدولة فيقول[1]:

جئـنا بهـا صـفراء دريـة	كأنهـا فـي البـيت قـنديل
تـسعى بهـا هـيفاء مجدولـة	كأنهـا أهـيف مجـدول

وكما وصف الشعراء السقاة، وصفوا أيضاً بائع الخمر، وتحدثوا أحياناً عن رحلتهم إليه فمن ذلك قول ابن الخياط يصف خماراً باللطف واللين والتفنن في إغراء زائريه على الشرب[2]:

هـذا وأشمـط رب دسـكرة	رحـب الفـناء لكـل مـن أمـا
مـستنزل جلـباب زائـره	ببـشاشة تـستنزل العـصما
ضـقنا بـه ذرعـا فهـب لـنا	بـزجاجة خلـنا بهـا نجمـا

ولم يكن ابن الخياط وحده هو الذى وصف بائع الخمر كما يزعم الدكتور إحسان عباس حين يقول: "إن كل هم الشاعر فى الوصف هو الخمر نفسها. فلا يلتفت كثيراً إلى بائع الخمر نفسه، ولا يصف رحلته، إلا فى مثال واحد نجده عند ابن الخياط"[3].

وهذا غير صحيح أيضاً لأن هناك أشعاراً أخرى تتحدث عن بائع الخمر، وتصف الرحلة إليه من مثل هذه الأبيات لابن حمديس، وفيها يصف رحلته ليلاً إلى أحد الخمارين، ويصف هذا الخمار بالفراسة فى تمييز الخمر ومعرفة جيدها من رديئها، ويصف قلبه بالقسوة، وأن الخمر استمدت قسوتها منه. يقول[4]:

---

(1) المختار من شعر بشار ص٢٥٩.
(2) المختار من شعر بشار ص٣٥.
(3) العرب فى صقلية ص١٩٦.
(4) ديوانه ص٢١٤ - ٢١٥.

وأشمط خضنا نحوه الليل بالسرى	وقد خاط منه النوم شفرا على شفر
لـه بـيعة مـازال فـيها محلـلا	حـرام الـربا فـى بـيعه التبر بالتبر
بـسطنا لـه الآمـال عـند انقباضـه	لأخـذ عجـوز مـن بنـياته بكـر
إذا شمهـا أعطـاك جملـة وصـفها	ففـى أنفـه علـم الفراسـة بالخمـر
لهـا قـسوة مـن قلـبه مـستملة	لعـنف نـداماها كـذا قـسوة الكفـر

وصف مجالس الشراب :

وكـان من الطبيعى فى تلك البيئة المعبقة برائحة الخمر، المحتفية بها أى احـتفاء، أن تكثـر مجـالس اللهـو والـشراب، وأن تنتـشر انتـشارا واسـعا، ويحـتفظ الـشعر الـصقلى بـصور كـثيرة لهـذه المجـالس التى شاع فيها القصف واللهـو ومعاقـرة الخمـر، والتفـنن فى نـيل الملذات، وكان الشعراء يشاركون فى هـذه المجـالس ويخوضـون فـيما يخـوض فـيه القوم من لهو ومتعة. ويرسم ابن الطوبى صورة مجلس من هذه المجالس فى رسالة يدعو فيها صديقاً له لمشاركته فى لهوه ومجونه. فيقول[1]:

قـد شـربنا المـدام مـن كـف خـود	أقـبلت كـالهلال والـليل داج
ونعمـنا لـولا مغيـبك عـنا	بـسماع الأرمـال والأهـزاج
وعجبـنا للمـاء يحمـل نـاراً	فـى قـنان كأنهـا خـرط عـاج
وفـتاة تكـشفت للندامـى	وعجـوز تـسترت بالـزجاج
فاغتـنم لـذة الـزمان وبـادر	كـل ضـيق تخافـه لانفـراج

ويصف شاعر آخر مجلساً من تلك المجالس التى كان يرتادها ليستمتع فيها بشدو القيان، ويجنى نهود العذارى كما تجنى الثمار، ويعب من كئوس الخمر كيف يشاء، فيقول[2]:

أقمـنا نـسابق صـرف الـزمان	ـدارا إلى عيـشنا المـستعار
نجـيب بـصوت القيانـى القـيان	إذا مـا أجابـت غـناء القمـارى
وتـصبح عيدانـنا فـى اصـطخاب	تلـد وأطـيارنا فـى اشـتجار

(1) الخريدة ٦٣/١/٤ (ط. مصر).

(2) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ٩٦.

نشم الخدود شميم الرياض ... ونجني النهود اجتناء الثمار

ونسقى على النور مثل النجوم ... ومثل البدور اعتلت للمدار

عقار هي النار في نورها ... فلولا المزاج رمت بالشرار

نعمنا بها وكأن النجوم ... دراهم من فضة في نثار

إذا ما لقيت الليالي بها ... فأنت على صرفها بالخيار

ولم تكن تلك المجالس ترتبط بوقت معلوم، فقد تنصب قبل انبلاج ضوء الفجر أو تقام فى الليل تحت ضوء النجوم أو على لمعان البرق فى السماء. وفى ذلك يقول ابن حمديس[1]:

يا شقيق النفس، أنفاس الصبا ... بردت والصبح لاشك اقترب

قم أمتعك بعيش لم تقع ... فى صفاء منه أقذاء النوب

فلقد حان لضوء الفجر أن ... يضرب السرحان فيه بذنب

فأدرها تحت ليل سقفه ... ظلمة فيها من الليل ثقب

أو على برق سماء ضاحك ... غيمه بالدمع منه منسكب

سكر الروض وغنى طيره ... أفلا ترقص قامات القضب

وقد يحلو للشاعر أن يقطع الليل كله فى شرب الخمر حتى يميط الصبح لثامه وفى هذا الظلام الحالك تقوم الخمر مقام النيران التى تشب للقصاد، ويستمتع السمار بالقصف واللهو غاية الاستمتاع، وفى ذلك يقول أبو عبدالله ابن الصباغ[2]:

وليل قطعناه بأخت نهاره ... إلى أن أماط الصبح عنه لثامه

إذا ما أردنا أن نشب لقاصد ... ضراما، سكبناها فقامت مقامه

ليالى نوفى اللهو منا نصيبه ... ونعطى الصبا مما أراد احتكامه

ويرسم أبو الحسن ابن الطوبى صورة طريفة لليلة قضاها وأصحابه فى معاقرة الخمر وقد ظلوا يشربون حتى لعبت بعقولهم، فأخذوا يترنحون والنوم يداعب جفونهم، ويصف ابن الطوبى مشيته إلى بيته بعد أن انفض ذلك

---

(١) ديوانه ص٤٥.

(٢) الخريدة ٩٠/١/٤.

المجلس وقد دارت الخمر برأسه فسار يتخبط في طريقه لا يدرى له مسلكاً كما لو كان يمشى على الأشواك مع أنه يجيد السير في تلك المسالك. يقول[1]:

ولـــيلة بـــتها والأرض عامـــرة	حـولى بالجوهـرين: المـاس والبـنك[2]

ثم يقول واصفاً أثر الخمر في أصحابه[3].

والكأس تخدعهم عنى وقد نـدروا	بأننـى غـير مأمـون علـى الـتكك[4]
حتـى إذا قـبلوا مـنها ومـال بهـم	أخـذ الكرى وتداعـى كـل ممتسك
دببت أكـتم فـى أنقاضـهم قدمـى	كأننـى بيـنهم مـاش علـى الحسك
وقد تخلص غيى مـن يدى رشدى	فيهم، وأطلق فتكى من عرى نسكى
فـبت أنفـد ممـا حولـوا سـككاً	وكـنت قـدما أجـيد الـنفذ للـسكك
وقـد وثقـت بعفـو الله عـن زللـى	فمـا أبـالى بمـا خطـت يـد الملـك

ويصف ابـن حمـديس مجلساً آخـر مـن مجـالس الشراب اجتمع فيه وأصحابه في رياض خضر وظلوا يشربون من الخمور المعتقة حتى سكروا وفيها يصف السقاة والقيان والكئوس فيقول[5]:

لله در عـــــصابة نـــــزلوا	بـين الـرياض مجالـسا خـضرا
شـــربوا بكاســـات معـــتقة	شـربت عقـــولهم بهـــا ســـكرا
وكأنمـــا الأقمـــار تلـــثم مـــن	أيـدى الـــسقاة كواكـــبا زهـــرا
وكأنمـــا صـــور القـــنان وقـــد	ملـــئت إلى لهـــواتها خمـــرا
بـيض الحسان وقفـن فـى عـرس	لمـــا لبـــسن غلائـــلا حمـــرا

(١) خريدة القصر ٤/١/٨٢ ص وما بعدها.

(٢) البنك. طيب مشهور.

(٣) الخريدة ٤/١/ ص٨٢ وما بعدها.

(٤) التكك: أربطة السراويل.

(٥) ديوان ابن حمديس ص١٨٠.

كان هذا اللون من الشعر وليد الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى عاشتها صقلية فى القرن الخامس الهجرى. وقد نبالغ إذا زعمنا أن الشعراء الصقليين نجحوا فى تصوير كل ما كان يدور فى مجتمعهم أو أنهم برعوا فى التعبير عن تلك الظروف براعة كبيرة، فذلك إسراف فى القول ومبالغة لا تستقيم مع واقع الشعر الصقلى الموجود لدينا. وغاية ما يمكن أن نقوله فى هذا الصدد ونحن بمأمن من الغلو والإسراف أنه قد تسللت إلى هذا الشعر بعض الأفكار والتقاليد الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع الصقلى فى ذلك الوقت كما استطاع هذا الشعر أن يعبر إلى حد ما عن بعض الظروف النفسية الصعبة التى عاشها الصقليون آنذاك.

ولعل أول ما يلفت انتباهنا فى هذا المجال أن الظروف السياسية التى مرت بها صقلية كانت لها آثاربعيدة فى نفوس الناس، فلقد قدر لتلك الجزيرة أن تعيش فى حروب وفتن متصلة لا يخمد أوارها مما جعل أهلها يعيشون فى قلق دائم وخوف مستمر، فالحياة أصبحت فى نظرهم حلماً خاطفاً، والمستقبل أصبح يخفى فى طياته المفاجآت المزعجة، وأصبح الناس يتمنون أن يعيشوا كغيرهم معيشة آمنة، ويتطلعوا إلى السكينة والاستقرار فى هذا المجتمع الذى لا يعرف غير الفتن والحروب. ولذلك فليس غريبا أن نسمع شاعرا مثل ابن حمديس يقول[1]:

إنى لأرجو السلم من زمن ... قامت على ساق له حرب

ولم يكن هذا الشعور بالخوف والقلق إلا أثراً من آثار تلك الظروف السياسية التى عاشتها صقلية، وكان من الطبيعى فى ظل هذه الظروف أن

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٨.

تتفكك العلاقات الاجتماعية وتنهار الصلات والوشائج، ويصبح الغدر من شيم الزمان وأهله، وهذا ما يفسر ظاهرة الإكثار من شكوى الزمان، وفساد الأحوال في الشعر الصقلي، ويعبر أبو القاسم السرقوسي عن هذه المعاني فيقول[1]:

لا تبغ من أهل الزمان تناصفا … والغدر من شيم الزمان وأهله
فإذا أردت دوام ود مصاحب … فاغضض جفونك جاهدا عن فعله

وإزاء هذه الظروف القاسية التي أدت إلى تفكك الصلات بين الناس، لم يجد بعض ذوي النفوس الطيبة بداً من اعتزال الناس حتى يكونوا بمنجاة من شرورهم وآثامهم. وفي ذلك يقول أبو عبدالله الطوبي[2]:

يا لائمي في انتزاعي … عن الورى وانقطاعي
لا أستطيع على أن … أكون بين الأفاعي

ويقول الكاتب أبو علي بن القاف[3]:

ولما رأيت الناس لا خير عندهم … صددت وبيت الله عن صحبة الناس
وصرت جليس الفكر مادمت فيهم … وأعملت حسن الصبر فيه مع الياس

ولم يكتف الشعراء بالدعوة إلى التنفير من الناس، بل نجد منهم من يدعو إلى إعلان الحرب عليهم، ويحذر من الاغترار بتبسمهم وتملقهم، وفي ذلك يقول أحدهم[4]:

إخوان دهرك فالقهم … مثل العدا بسلاحكا
لا تغتـرر بتبسم … فالسيف يقتل ضاحكا

وفي هذا المجتمع الذي تنهار فيه القيم، وتختلط فيه المبادىء والمثل، يصبح من السهل اليسير أن ينقلب ميزان الأمور، فيرتفع أهل الجهل على أهل

---

(١) الخريدة ١٣٨/١/٤.

(٢) الخريدة ٦١/١/٤.

(٣) المصدر نفسه ص٩٤.

(٤) الخريدة ١/٤/ص٢١ والبيتان لشاعر يدعى عبدالرحمن بن رمضان.

العلم، ويصبح العالم جاهلا، والجاهل عالماً، والخامل مرفعا. وفى ذلك يقول البلنوبى[1]:

زمانـــنا مـــنقلب فاســـد	يـرفع أهـل الجهـل والعجـب
كالـنقش فـى الخـاتم لا يـستوى	خـتم بـه إلا مـع القلـب

ويعبر شاعر آخر عن هذه المعانى فيقول[2]:

وكم خامل فى الناس أمسى مرفعا	ترقـى إلى العلـياء كـل سـنام
فتعسا لدهـر حـط علـو مراتبـى	وقلـل إخوانـى، وأكثـر ذامـى
إذا اخـضر يـوما مـنه للمـرء جانـب	غـدا فجـلا للعـين كـف لـئام

وكان لتدهور الأحوال الاقتصادية أثر كبير فى نفوس الناس، فانتشر الفقر بين أغلب طبقات المجتمع، وتفاوت حظ الناس فى النظر إلى المال، فمنهم من شغل نفسه بجمعه وحفظه خشية ألا يجد ذات يوم ما يقيم به أوده، وحتى يكفى نفسه مؤونة سؤال البخلاء. وفى ذلك يقول أبو عبدالله بن الطوبى[3]:

يـا لائمـى باشـتغالى	بحفـظ مـال قلـيل
الـبخل أجمـل بالحـر	مـن سـؤال البخـيل

ومنهم من كان ينظر إلى المال نظرة أخرى، فيرى أنه لا طائل من وراء جمع الأموال ما دمنا نموت ولا نأخذها معنا، وهنا يصبح التوسط هو خير الأمور. ويعبر عن هذا المعنى الكاتب أبو على الحسن بن محمد فيقول[4]:

ذرونى وأموالى التى قد جمعتها	أقدم لى نصفا وأرتع فى النصف
إذا كـان أمـوالى علـى حـسابها	فمـالى إذا ولـيت أتـركها خلفـى

---

(١) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ص١٠٧.

(٢) الخريدة ٢٨/١/٤.

(٣) الخريدة ٦٤/١/٤.

(٤) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) ٤/ ورقة ٣٤٥.

وقد نسمع شاعراً يصف عجزه وضيق يده عن مساعدة صديقه فيما يقيم به أوده، فيعتذر إليه بأنه لا يملك إلا مالا قليلاً يغنيه عن سؤال الناس، ولكنه لا يسعفه بقضاء حاجته. وفي ذلك يقول محمد بن قاسم اللخمي[1]:

ولي مـال مـن يغنـي بـه فـيكفه ... ويعجـز عـن بـر الـصديق الملاطـف
فلا البخل أرضاه، ولا الجود أنتهي ... إلـيه. لقـد أوقفـت شـر المواقـف
وما حيلة الحر المساعف إن سعى ... ولم يعط حظـا مـن زمـان مـساعف

وقد نسمع في الشعر الصقلي أصواتا تدعو إلى الهجرة في سبيل الرزق، فالفقر منقصة بالمرء، وإذا ضاقت البلاد بامرىء فما عليه إلا أن يحمل عصا التسيار ويرحل إلى مكان آخر يضمن فيه رزقه. وفي ذلك يقول أبو محمد السرقوسي[2]:

اطلب الرزق حيث كان من الـ ... أرض فـإن الفقـير كالمفقـود
وإذا ضـافت الـبلاد بحـر ... سـار مـنها إلى مكـان جديـد

ومن الغريب أن نسمع في تلك البيئة المتحضرة أصواتاً تردد بعض القيم القديمة التي يمجها الذوق الحضري، ولا يستسيغها المجتمع المتمدين، كأن يحكم بالسقوط على من يشك في نسبه أو من يشتهر في الناس بأمه حتى وإن لم يكن به ما يعيبه في ذاته، أو يزرى به في نفسه. وفي ذلك يقول عبدالوهاب بن مبارك[3]:

إذا المـرء لم يعـرف بجـد ولا أب ... ولم يـشتهر فـي الـناس إلا بأمـه
فـلا تـسألن عـن حالـه فهـو سـاقط ... وإن لم يشع في الناس أسباب ذمه

ولا شك أن هذه النظرة القاسية قد جاءت وليدة تلك الرواسب التي توارثها الصقليون عن أجدادهم.

---

(1) الخريدة ٤/١/٦٤.
(2) المغرب في حلى المغرب (مخطوط) ٤/ ص٣٤٩.
(3) الخريدة ٤/١/١٤١.

وعلى نحو ما عبر الشعر الصقلى عن بعض الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى عصره، فقد عبر أيضاً — ولكن إلى حد ما — عن بعض مظاهر الاتجاهات السياسية التى كانت تصطرع فى صقلية، فنحن نلمس فى هذا الشعر بعض آثار التشيع التى تسربت إليه حين خضعت صقلية للفاطميين، فنسمع شعراء يدعون إلى الامتثال بآل على والاقتداء بسيرتهم وأخلاقهم، وقد نسمعهم يتحدثون عن مقتل الحسين ويعبرون عن أسفهم وأحزانهم إزاء تلك المأساة المفجعة. يقول أحد الشعراء[1]:

كن بديعا كما خلقت بديعا	حسن الوجه يا قبيح الفعال
وامتثل من عزيز آل على	شيمة كى تكون فرد الكمال

وتشير بعض الأشعار إلى أن بعض المتشيعة كانوا يعبرون عن تشيعهم باستعمال بعض الأحراز والفصوص، وقد تلاعب ابن الطوبى بألوان هذه الفصوص تلاعباً لطيفاً فقال فى فص أسود غرورى[2]:

أنا غرورى شديد السواد	وقد كنت أبيض مثل اللجين
وما كنت أسود لكننى	صبغت سواداً لقتل الحسين

ويقول على لسان فص أحمر[3]

حمرت من دم قلبى	أين من يندب؟ أينا؟
أنا من أحجار أرض	قتلوا فيها الحسينا

ويقول على لسان فص أخضر[4]

لا تعجبوا من خضرتى	فإنها مزارتى
تقطرت لما رأت	ما صنعوا بسادتى

---

(١) عنوان الأريب ١٢٨/١.

(٢) الخريدة ١٤١/١/٤.

(٣) الخريدة ٦٠/١/٤ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه ص٦١.

كان من الطبيعى أن يحدث رد فعل قوى إزاء تلك الموجة العاتية من التحرر التى شاعت فى البيئة الصقلية، وكادت أن تطغى على حياة الصقليين وتغرقهم فى بحور اللذة، فكان التيار المقابل لتلك الموجة هو تيار الزهد. ولا شك أن وجود هذا التيار يستقيم مع المنطق الطبيعى لتطور الأشياء، فحيثما وجد اللهو والمجون، وجد الزهد والورع، وتلك سنة الحياة وطبيعتها فى كل زمان ومكان. وإذا كان الناس يدركون أن الحياة قصيرة، والعمر فان، فإن نظراتهم تختلف فيما يجب عليهم أن يفعلوه إزاء هذه الحقبة، فمنهم من يمضى حياته فى الانغماس فى الملذات، والعكوف على إشباع حاجات النفس من زخارف الحياة ومباهجها، ومنهم من ينطوى على نفسه ويطهرها من أدران الحياة المادية ويتطلع إلى الأمل فى الحياة الأخرى.

ومما لا شك فيه أن الصراع السياسى والفتن الداخلية، والتطاحن المرير بين الحكام كان من الأسباب التى دفعت فريقاً من الناس إلى العزلة وإيثار الدين والانقطاع إلى الله بعيداً عن هذا الصراع الزائف.

وربما اتجه فريق آخر من الناس إلى الزهد لشعورهم بالنقمة لما أصابوا من حظ ضعيف فى الحياة، فثاروا على من حولهم، وأحسوا بطغيان الخير على الشر، وأن الناس آفات وأصبحوا يتمنون الخلاص من هذه الحياة الآثمة. ويعبر ابن الطوبى عن هذه المعانى فيقول[1]:

لو قلت لى أى شىء	تهوى لقلت: خلاصى
الناس طراً أفاع	فلات حين مناص
نسوا الشريعة حتى	تفاخروا بالمعاصى
فشرهم فى ازدياد	وخيرهم فى انتقاص

(1) الخريدة ١/٤/ ص٧٣ وما بعدها.

ونلتقى فى الشعر الصقلى بلون من شعر الزهد يصدر عن علماء أتقياء ويراد به التذكير والتخويف من ولوج المعاصى، والتحذير من الانغماس فى حمأة الملذات، والترغيب فى الزهد والانقطاع إلى الله. ويرى الدكتور إحسان عباس أن غنى صقلية بهذا الشعرنوع من الفقر الفنى لأنه ليس إلا صورة لروح الوعظ والتذكير، وإلا تعبيراً عن تلك المدارس الفقهية التى كانت توجه حياة صقلية الثقافية. ذلك لأن هذا النوع من الشعر لا يلمح إلا الجوانب السلبية من الحياة[1].

ومهما يكن من أمر، فإن أصحاب هذا اللون من الشعر يكثرون من تناول المعانى الدينية، كما يكثرون من النصائح والمواعظ. ومن أمثلته قول أبى حفص عمر بن حسن[2]:

سيلقى العبد ما كسبت يداه	ويقرأ فى الصحيفة ما جناه
ويسأل عن ذنوب سالفات	فيبقى حائراً فيما دهاه
فياذا الجهل مالك والتمادى	ونار الله تحرق من عصاه
فعول فى الأمور على كريم	توحد فى الجلالة فى علاه
وأمل عفوه وافزع إليه	فليس يخيب مخلوق رجاه

ويحذر الفقيه السمنطاوى أولئك الغافلين الذين يدنسهم الإثم ولا يتناهون عن ارتكاب المحرمات، ويبيعون دار الخلود بثمن بخس لا يلبث أن يتبدد، فيقول[3]:

فتن أقبلت وقوم غفول	وزمان على الأنام يصول
ركدت فيه لا تريد زوالا	عم فيها الفساد والتضليل
أيها الخائن الذى شأنه الإثم	وكسب الحرام ماذا تقول؟
بعت دار الخلود بالثمن البخس	بدنيا عما قريب تزول

(1) العرب فى صقلية ص١٩٥.
(2) الخريدة ٤/١/ ص١٢٥.
(3) المكتبة الصقلية ص٢/ ٣٦.

ويقول مجبر بن عبدالعزيز الصقلي محذرا أولئك العصاة الذين يطمعون في عفو الله ورحمته دون أن يكفوا عن الانغماس في المعاصي[1]:

يا من عصى الله مغرورا برحمته   أعمل لربك ما يرضى بإخلاص
إن الذى جعل الفردوس منزلة   لمن أطاع أعد النار للعاصى

ويكثر ابن حمديس من ترديد المعانى الدينية فى هذه الأبيات التى يوجهها إلى أولئك العصاة الذين لم يقدموا لأخراهم بل يستكثرون من ارتكاب المعاصى والذنوب غافلين عما ينتظرهم من حساب عسير. يقول[2]:

ما الذى أعددت للموت إذا   قدر الموت بلا شك عليك
أذنوبا كاثرت عد الحصى   بئس ما استكثرت من كسب يديك
بئس ما يسمع من تعظيمها   ملكا القبر به من ملكيك
أى خطب فادح فى رقدة   يوقظ الحشر إليها مقلتيك
وصراط لست بالناجى إذا   وطئته زلة من قدميك
فلك الويل من النار إذا   مقلة الرحمن لم تنظر إليك

ولا يمل أولئك الزهاد من الدعوة إلى احتقارالدنيا، والتحذير من الاغترار بمظاهرها الكاذبة، فما هى إلا رحلة قصرة سرعان ما نتأهب بعدها للفراق والانتقال إلى الحياة الأخرى، ولذلك فعلينا أن نكون مستعدين للرحيل فى أية لحظة. ويعبر أبو القاسم بن عبدالغنى عن هذه المعانى فيقول[3]:

أيا من نال فى الدنيا مناه   تأهب للفراق وللرحيل
ولا تفرح بشىء قد تناهى   فما بعد الطلوع سوى النزول

ويقول الكاتب محمد بن يحيى فى المعنى نفسه[4]:

أيها المغتر بالدهر اتئد   هل نعيم فيه أو بؤس يدوم؟

---

(١) معجم السلفى (نسخة مصورة) ورقة ٣٩٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٤٦.
(٣) الخريدة /١/٤/ص١٣٠.
(٤) معجم السفر ص١٥٧، والمحمدون من الشعراء ص٦٩.

وقد نجد من بين أولئك الزهاد من يتصدى لمن ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى فيجادلهم جدلاً عقلياً مما يتمثل فى قول عبدالله بن مبارك وقد وصف بأنه من أهل الديانات[1]:

تأمل لعل الله يعقبك الهدى	فشاهد ذاك العقل إن لم يكن نسك
أليس الذى قد نظم العقد بدأة	ينظمه عودا إذا انتثر السلك؟

وإذا تركنا أصحاب هذا اللون من شعر الزهد الذى يحمل طابع النصائح والمواعظ، ويصدر عن الفقهاء والعلماء، فإننا نلتقى بلون آخر من الزهد يصدر فيه الشعراء عن تجارب ذاتية عمقتها فى نفوسهم أحداث الحياة، فاستحصدت تجاربهم بعد أن شغلوا أنفسهم بملذات الحياة ردحاً من الزمن واكتشفوا فى نهاية المطاف أن ما ظنوه نعيما وفردوسا لم يكن إلا وهما وسرابا، فأفاقوا من غفلتهم، وندموا على ما فعلوا، وزهدوا فى الدنيا، وأخذوا يتباكون على ما فات، ويتقربون إلى الله عسى أن يصلح أفئدتهم ويغفر زلاتهم وخطيئاتهم، ويتقبل توبتهم، وكان ابن حمديس الصقلى من أصدق الشعراء تعبيراً عن هذا الموقف فقد أكثر من البكاء بين يدى الله، والتضرع إليه بأن يصلح قلبه، ويغفر ذنوبه، ويقبل توبته . يقول[2]:

سألتك يا مولى الموالى ضراعة	وقد يضرع العبد الذليل إلى المولى
لتصلح لى قلبا، وتغفر زلة	وتقبل لى توبا، وتسمع لى فعلا
ولا عجب فيما قد تمنيت إننى	طويل الأمانى عند من يحسن الطولا

وفى هذا اللون من الشعر الذاتى يكثر الشعراء من الشكوى والبكاء، والإحساس بالندم على ما ارتكبوه من آثام، ويحاولون أن يكفروا عن ذنوبهم بالتقرب إلى الله، وطلب الصفح والغفران. يقول أبو عبدالله ابن قاسم اللخمى[3]:

---

(١) المغرب فى حلى المغرب (مخطوط) ٤/ص٣٥٠.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٠٢.

(٣) الخريدة ١/٤/ص١٤٠.

يــا رب صــفحا وغفــرانا ومعــذرة	لمــذنب كثــرت مــنه المعاذيــر
يبكــيه إجــرامه طــورا ويــضحكه	رجــاؤه فهــو محــزون ومــسرور

ويكثـر هـؤلاء الـشعراء من الدعوة إلى تحقير الدنيا، وأخذ الحذر منها، فكـل مـا فـيها سـراب، وأن يخـرج مـنها المرء فى آخر الأمر إلا برداء بال من تراب. وفى ذلك يقول أبو العرب الصقلى[1]:

أرى الدنــيا الدنــية لا تواتــى	بعــالج فــى التــصرف والطــلاب[2]
ولا يغــررك مــنها حــسن بــر	لــه بــردان مــن ذهــب الــذهاب
بأولــه رجــاء مــن ســراب	وآخــره رداء مــن تــراب

وقـد يعـبر الـشعراء عن قلقهم لما يرونه أمامهم من فساد وفتن تزيد كل يـوم، ويخـوض فـى غمـراتها ذوو الجهـل، فتـزداد الشرور والآثم، ويجد المرء نفسه مذنبا، ويكتشف أن اللجوء إلى الله والاعتصام به هو خير زاد. ويعبر أحد الشعراء عن هذه المعانى فيقول[3]:

أرى فــتن الدنــيا تــزيد وأهلــها	يخوضون بالأهوال فى غمرة الجهل
فما إن ترى من مخلص ذى بصيرة	وما إن ترى من صادق القول والفعل
إلى الله أشــكو مــا أرى مــن تغــير	وإيـاه أدعـو فـى إيابـى علـى مهـل
فيا سوء حالى حين أصبحت فارغا	ولم أدخـر زادا ومازلـت فـى شـغل

وكـان نـداء المشيب نذيـرا للـشعراء يـشعرهم بدنـو أجلهم، وأن ساعة الرحيل تقترب، فكانوا يستيقظون من غفلتهم، ويرون الدنيا على حقيقتها، ولا يجـدون أمـامهم من سبيل غير الزهد والتقرب إلى الله وإعلان التوبة. ويعبر ابن القطاع عن هذه المعانى فيقول[4]:

---

(١) الذخيرة ١١١/٢/٤ (مخطوط).

(٢) كذ بالمخطوط ولعلها (بعاجل).

(٣) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ص١٠٦.

(٤) الخريدة ٥٤/١/٤ وما بعدها.

تنــبه أيهـــا الـــرجل النـــنوم	فقــد نجمــت بعارضــك الــنجوم
وقــد أبــدى ضـياء الـصبح عمـا	أجـــن ظلامـــه اللـــيل البهـــيم
فـــلا تغـــررك يـــا مغـــرور دنـــيا	غـــرور لا يـــدوم لهـــا نعـــيم
ولا تخـــبط بمعـــوج غمـــوض	فقــد وضــح الطــريق المــستقيم

وقد تطور مفهوم الزهد عند بعض الشعراء فاقترب من الرهبنة. ولذلك لم يكن غريبا أن نسمع أحدهم يدعو إلى العزوبة وينفر من الزواج وما يجره من متاعب ومشكلات مما يتمثل في قول ابن مكى[1]:

من كان منفردا فى ذا الزمان فقد	نجـا مـن الـذل والأحـزان والقلـق
تـزويجنا كـركوب البحـر ثـم إذا	صـرنا إلى ولـد صـرنا إلى غـرق

وقد اقترن بتلك الموجة من الزهد موجة أخرى من التصوف، ويبدو أن بعض الشعراء كانوا ينقطعون للتصوف والزهد على شاكلة موسى بن أصبغ المرادى فقد وصف بأنه كان زاهداً أديباً شاعراً منقطعاً إلى الله فى بعض زوايا صقلية، وله قصائد طوال فى الزهد، منها قصيدة على حروف المعجم لكل حرف عشرون بيتاً وله من قصيدة طويلة[2]:

متـى يعتلـى عزمـى ويذكـى سـنا لبـى	وأسـقى بكـأس الـصدق مـن مائـه العـذب
فتحـيا بهـا نفـس أضـر بهـا المنـى	ويحـسن لى عيـشى ويعـذب لى شـربى
وتـــنعش أفكـــارى بـــروح نـــسيمه	ويرضى الرضى روحى ويهوى التقى قلبى

ويبدو أن بعض الناس كانوا ينظرون إلى التصوف نظرة سطحية، ويفهمونه على أنه يعنى التستر بلبس الصوف، وإقامة حلقات الرقص والطرب، وأداء بعض الحركات الغريبة. وفى ذلك يقول أبو الحسن ابن الطوبى[3]:

(1) الخريدة ١٢٧/١/٤ وما بعدها.
(2) بغية الملتمس ص٤٤٠.
(3) الخريدة ٧٣/١/٤.

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خائفاً لله ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزونا

واتصل بهذا الجانب من الشعر اتجاه بعض الشعراء إلى نظم المدائح النبوية ولكننا لا نستطيع أن نحكم عليها حكماً صحيحاً لندرتها بين أيدينا. وأغلب الظن أنها كانت تمثل اتجاهاً صوفياً. ومن أمثلتها هذه الأبيات لأبي الفضل جعفر بن الطيب الصقلي وفيها يقول[1]:

يا سيد الرسل الكرام ومن أتى بالمعجزات
لو لم يكن غير ما أوتيت من حسن الصفات
لقهرت كل معاند وعلوت فوق النيرات
لك هيبة وجلالة سارت إلى كل الجهات
ومودة تلقاك من كل العيون الناظرات
صلى الإله عليك ما قطرت دموع الجاريات

• • • • •

(1) معجم السلفي ورقة ١٦٣.

ثالثاً : سقوط صقلية وأثره فى الشعر

- ❀ الصقليـــات
- ❀ الحنــين إلى الوطن

ونعنى بها القصائد التى تمثل صقلية وسقوطها فى أيدى الأعداء وكيف كان وقع هذه المأساة فى نفوس الشعراء.

ومما يلفت الانتباه هنا أن مواقف الصقليين قد تباينت إزاء ذلك الحدث الجلل الذى أصاب وطنهم، وكان لهذا التباين أثره فى الشعر، فمنهم من استسلم للمأساة، وأقنع نفسه بأن تلك هى إرادة الله، وأنه لاراد لقضائه، فازدرد أحزانه، وانطوى على نفسه، واستسلم لواقعه الأليم. ومنهم من نظر إلى هذه المأساة نظرة دينية، فاعتقد أن ماحل بوطنه كان عقاباً من الله أنزله بالناس نظير ما اقترفوه من ذنوب، فقد أنعم الله عليهم بالفتح، وغلبهم على أعدائهم، ولكنهم لم يشكروا نعمة ما خولوا، وأشعلوا نيران الفتنة بينهم وأصيبوا بذلك الداء العضال الذى أصيبت به أمم من قبلهم، فأذن الله بانقراضهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[1]. وقد عبر أحد الشعراء الصقليين عن هذه المعانى فقال[2]:

(مديـــنة) كانـــت وكـــنا بهـــا	فـــى ظـــل عـــيش نـــاعم رطـــب
مـــد علـــيها الأمـــن أســـتاره	فـــسار ذكـــراها مـــع الـــركب
لم يـــشكروا نعمـــة مـــا خولـــوا	فـــبدلوا الملـــح مـــن العـــذب

ولسنا بصدد مناقشة قرب هذا الرأى أو بعده عن الحقيقة، ولكن يعنينا أن نقول إن الجماعة إذا انتهت إلى هذا التلاوم فى تحديد المسئولية فقدت

---
(١) سورة الإسراء، آية ١٦.
(٢) العرب فى صقلية ص١٨٤.

القدرة على أن تلتمس طبيعة المأساة نفسها فى فقد الوطن[1]. ولذلك فمن الصعب أن نظفر بشعر يعبر فيه أصحاب هذا الرأى عن مأساة وطنهم.

أما من كانوا يؤمنون بوطنهم إيماناً قوياً، فقد أحدثت المأساة فى نفوسهم آثاراً هائلة، فأحسوا بأنهم نكبوا فى أعز ما يملكون، وأخذوا يجوبون بلاد الأرض طولاً وعرضاً يعانون من التشرد والتمزق والضياع، ولا يجدون ما يخلدون به مأساة هذا الوطن السليب غير دموعهم وأحزانهم، وما يحملونه فى قلوبهم من ذكريات طيبة، ومشاعر حزينة.

والواقع أن الشعر الصقلى لم يعش بمعزل عن تلك الأحداث التى عاشتها صقلية، ولاسيما هذه الفتنة الأخيرة التى انتهت بزوال السيادة الإسلامية من الجزيرة وأدت إلى أفول شمس الخلافة العربية من هذه البقعة العزيزة، فقد حركت تلك الفتنة أحاسيس الشعراء، وأهاجت مشاعرهم، فصوروا هذه المأساة الأليمة فى قصائد تبكى الوطن تارة، وتنحى باللائمة على من تسببوا فى ضياعه تارة أخرى. وقد بخلت علينا مصادر الأدب — لسوء الحظ — بكثير من هذه القصائد ولم تبق لنا غير القليل منها وإن كان لا يخلو من تلك الظلال الباكية الحزينة.

فمما أبقته لنا المصادر قصيدة تعد من طوال الصقليات، سجل فيها أبو محمد القاسم بن عبدالله التميمى وقائع الأحداث الأليمة التى عاشتها صقلية أبان الفتنة، ولام فيها الصقليين على تماديهم فى الفتنة، واقتتالهم فيما بينهم، وصور تلك النهاية الحزينة التى دخل الإفرنج فيها الجزيرة، وقاتلوا أهلها، وغلبوا عليها. وقد بدأها بمقدمة غزلية قال فيها[2]:

---

(١) العرب فى صقلية ص١٨٣.

(٢) عنوان الأريب ١/ ١٣٥.

أبيت وجفني من جفائك نائم — وقلت بما قالته فيك اللوائم
وعهدي بذاك الدر غير مثقب — فكيف أجادته بفيك النواظم
وعندي حديث لو أمنت أذعته — ألا حبذا غيث تعيه المناسم

ويمضي فيصور تلك الأحوال التي آلت إليها صقلية إبان الفتنة، وما آلت إليه الأمور من فساد أدى إلى اشتعال نيران العداوة بين الناس ففسدت أخلاقهم، واتخذوا البغي شريعة لهم، وحادوا عن جادة الصواب. يقول[1]:

سقى الله هيم الغرب لا بعض هامه — كما يمنع الغمض السليم المنادم
وما كنت أسقي الغرب لو كان لم تكن — صقلية منه وإن لام لائم
رزينا بذات البين حتى كأننا — نرى أن من يبغي سوى البغي آثم
يغير الفتى منا على مال نفسه — ويقتله عدوا أخوه الملائم
يجور دليل القوم عن سبل رشده — ويمضي على المكروه من هو نادم

ويمضي الشاعر في تصوير هذا الواقع الأليم، فيقول إن أمور الناس قد اضطربت اضطرابا عظيماً، وغدوا يتنازعون على أشياء تافهة، واشتعل القتال فيما بينهم زمناً طويلاً، يقول[2]:

نروح ونغدو في أمور لو انه — رأى بعضها ما عاود النوم حالم
كأن بحارا بالوغى وكأنما — معاركنا طول الزمان مواسم
فطورا نذود الموت عنا وتارة — نموت كما مات الحماة الأكارم
فلو كان سلما ذلك الحرب بيننا — ثلاثين عاما ضامنا منه ضائم

ويعود الشاعر بذاكرته إلى تلك الأيام الخوالي حين كانت روح الوحدة والتآلف ترفرف على بني قومه حتى استطاعوا بوحدتهم أن يحققوا انتصارات باهرة، وأن يصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بلاد الروم. وفي ذلك يقول[3]:

وكانت بلاد الروم طوع سيوفنا — إذا رامها منا على البعد رائم
فإن نال منا الناس أو قل كثرنا — فقد تقتل الحمى وتردي السمائم

---

(1) نفسه ١/ ١٣٦.

(2) عنوان الأريب ١/ ١٣٦.

(3) عنوان الأريب ١٣٦/١.

ولكن شتان بين حال صقلية عندما كانت هى الغازية، وبين حالها الآن حين أصبحت هى المغزوة، فها هى النهاية تقترب، وها هى قوات الروم تترى لتهاجم الصقليين فى عقر دارهم بعد أن مزقت الفتنة الجزيرة وتركتها أشلاء وحطاما.

ويصور الشاعر تلك النهاية الحزينة فيقول[1]:

سلينى عن الإفرنج إن شئت واسمعى	حديثا كنشر الروض والروض ناعم
أتونا ولكن بالدروع أساودا	ولكن أتينا والسيوف عزائم
على كل مشكول الطريد كأنما	قوائمه عند الطراد قوادم
إذا ما علا منا على الظهر فارس	فليس بعيداً أن تطير القوائم
سماء وأرض من جناح وحافر	وليل وصبح جحفل وصوارم
فلا دجن إلا أن تثور عجاجة	ولا مزن إلا أن تخر جماجم
كأنهم قد أحجموا حين أقدموا	وغير عجيب غابة وضراغم
هو النصر حتى كل أعزل رامح	وحتى قرون الغانيات عمائم
وقد تسعد الأقوام شقوة غيرهم	ألا رب أعراس دعتها مآتم

ويختم الشاعر قصيدته بكثير من الحكم على عادة الشعراء القدماء أو تقليداً للمتنبى الذى يحتذيه فى قصيدته "على قدر أهل العزم تأتى العزائم". وهى حكم تتمشى مع الجو النفسى العام الشائع فى القصيدة، وتتواءم مع ذلك الإحساس الواحد الذى ينتشر فيها، ويهيمن على أبياتها، ويترك فى نفس من يقرؤها أثراً حزيناً، ويتصاعد هذا الإحساس فى نفوسنا بعد الانتهاء من قراءة تلك الحكم، ففيها إعلان بنهاية تلك المأساة الحزينة، وفيها ذلك النغم الخافت الحزين وتلك الروح البائسة العاجزة عن أن تفعل شيئاً، وفيها ذلك الإحساس الصادق بمتناقضات الحياة، فما دام الإنسان لن يحقق لنفسه النجاة بالهرب، فليس أمامه إلا الصمود، فقد يقتل ذلك الذى يحرص على حياته، وقد توهب الحياة لمن يحرص على الموت، وقد يكون فى الموت عزة، وفى الحياة مذلة،

(١) نفسه ١٣٦/١ وما بعدها.

وعلى هذا النحو يمضى الشاعر فى جمعه بين الأضداد والمتناقضات، فيقول إن كل شىء نسبى فى هذه الحياة، فإن ما يتخيله المرء حلما قد يكون جهلا، وقد لا يرفع الظلم إلا ظلم مثله، وقد يصبح غمد السيف رثا أو كلا ولكن غرارة حليه تخدع الناظرين فيأخذون بالظاهر ويتركون الباطن، ومهما يكن من أمر فما على المرء إلا أن يرضى بمصيره، ويقنع بواقعه أيا كان هذا الواقع يقول[1]:

إذا كان لا ينجيك أنك هارب ... فلم يبق حزم غير أنك هاجم
فقد يقتل المرء ابتغاء حياته ... وأكثر من يبغى المنية سالم
وطيب حياة المرء فى عز موته ... وما الموت إلا أن تهون الكرائم
وقد يجهل الإنسان فى بعض حلمه ... ويحمل عنك الظلم أنك ظالم
وما السيف إلا ما غرارة حلية ... وإن رث منه غمده المتقادم
كأنك فى دنياك مازلت جاهلا ... إذا كنت لم ينفعك أنك عالم
فلا تتزود غير ما أنت واجد ... إذا رحت يقظانا كأنك نائم

ولم يكن هذا الشاعر وحده هو الذى صور تلك الأحداث الأليمة التى عاشتها صقلية فقد شاركه فى ذلك شعراء آخرون من مثل ابن حمديس وغيره فمن ذلك هذه الأبيات لابن حمديس يصف فيها تلك الفتنة الحزينة التى جعلت الصقليين شيعا وأحزابا، وصيرت أهواءهم بددا. يقول[2]:

أحين تفانى أهلها طوع فتنة ... يضرم فيها ناره كل حاطب
وأضحت بها أهواؤهم وكأنما ... مذاهبهم فيها اختلاف المذاهب
ولم يرحم الأرحام منهم أقارب ... تروى سيوفا من نجيع أقارب
وكان لهم جذب الأصابع لم يكن ... رواجب منها حانيات الرواجب

---

(١) عنوان الأريب ١/ ١٣٧.
(٢) ديوانه ص٣١.

ولقد حاول المعز بن باديس أن يخمد نيران تلك الفتنة، وأن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ونجح فى ذلك أول الأمر، وآزره بعض الشعراء بقصائدهم من مثل محمد بن الفقيه الكلاعى الصقلى، وقد مدحه بقصيدة قال فى مطلعها[1]:

الله أكبر أودى الجور وانقشعت ... سحب النفاق، وزال الحادث النكر

وقد أشاد فيها بعظمة جيوشه، ونجاحه فى كشف الضر عن الصقليين، وقضائه على من تسببوا فى إشعال نار الفتنة. وفى ذلك يقول[2]:

يا أيها الملك الميمون طائره ... وكاشف الضر عن قوم به انتصروا
غادرت كل عزيز كان ممتنعا ... ووجهه بين أيدى الخيل منعفر
رميتهم بخميس لو رميت به ... دعائم الدهر كادت منه تنفطر
ما طال بغى أناس قط من بطر ... إلا وأصبح فى أعمارهم قصر
إن غرهم منك حلم قد عرفت به ... فالمرج يضرم نارا عوده النضر

ولكن المعز لم يمض فى جهوده حتى النهاية، وسرعان ما أخفقت محاولاته وباءت مساعيه بالفشل، وعادت الفتنة تطل برؤوسها من جديد ولم تنته إلا بسقوط صقلية فى أيدى الأعداء، وزوال السيادة الإسلامية عنها إلى الأبد.

ولكن، كيف كان وقع ذلك المصاب الكبير فى نفوس شعرائها الكبار أمثال ابن حمديس وابن الخياط، وأبى العرب الصقلى؟.

لقد شردت النكبة كثيراً من الشعراء فهاجروا من وطنهم وأصبحوا يعيشون فى بلاد أخرى غريبة. أما أبو العرب الصقلى فقد خدعه بريق المال وظن أنه سيحقق بشعره فى الأندلس مالم يحققه فى صقلية من ثراء وشهرة، فتعلق بالأحلام الواهية، وذهب يفلسف تشرده على طريقة التصبر الكاذب،

---

(١) المحمدون من الشعراء ص٧٠.
(٢) نفسه ص٧٠ – ٧١.

وأوهم نفسه بأن كل البلاد بلاده مادام أصل الناس واحداً، وإذا كان قد فقد وطنه، فسوف يجد فى غيره ما يؤمله. وفى ذلك يقول[1]:

علـى لآمـالى اضـطراب مـؤمل	ولكن على الأقدار نجح المطالب
إذا كـان أصـلى مـن تـراب فكلـها	بـلادى وكـل العـالمين أقاربـى
ويـا وطنـى إن بـنت عنـى فإننـى	سـأوطن أوكـار العـتاق الـنجائب

وتدل هذه الأبيات على أن إحساس أبى العرب بضياع وطنه لم يأخذ فى نفسه شكل المأساة. حتى تلك المعادلة التى يحاول أن يوهم نفسه بصحتها، كل تراب بلد، وكل العاملين أقارب — لا تعبر إلا عن صلة ميتة، لم ينفخ فيها التجاوب الشعورى شيئاً من روحه فيجعل منها وطناً[2].

أما ابن الخياط فقد أحدثت الفتنة أثراً عكسياً فى نفسه، فبدلاً من أن يبدى مشاعر الحزن والألم إزاء تلك النكبة التى ألمت بوطنه، إذا به ينساق مع الحزبية، ومع حبه لأسرة الكلبيين التى أسقطتها الفتنة، ويتشفى بحال الجزيرة التى أصبحت أشلاء ممزقة، ويشبع فى نفسه ونفس أسياده شعورهم بأن صقلية تجنى لقاء ما قدمت، لا من إساءة اقترفتها فى حق نفسها، ولكن من خطأ اقترفته فى حق الكلبيين. وهو إخلاص شاعر عاطفى فى ساعة عاطفية[3].

لقد نسى ابن الخياط أو تناسى ما ألم بوطنه، ولم يجد فى حاله البائسة ما يستحق البكاء، ونظر إلى المأساة على أنها تكفير لما حل بالكلبيين، وتضاءل هذا الإحساس فى نفسه إلى حد أنه رأى فى مأساة وطنه شيئاً يتسلى به، وذلك حين يخاطب بنى أبى الحسين، بقوله[4]:

---

(1) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) ٢٥٣/٤.
(2) العرب فى صقلية ص١٨٤.
(3) نفسه ص٢١٤.
(4) المختار من شعر بشار ص٢٣٣.

ليسلكم أن الجزيرة بعدكم كما قيل في الأمثال لحم على وضم
تركتم بقايا حسنكم في خرابها كما ذبل النوار في خلل الحمم

وكان ابن الخياط قد وقف إبان الفتنة يرتدى ثياب الحكماء ويحذر بنى قومه من عواقب الأمور، وعندما حققت الأيام ظنه، وقف يذكرهم بما كان، يقول[1]:

وقلت تلافوا شجة الدهر إنها إذا نغلت أعيت مطبة آس

وكان كل همه أن يستخلص الحكمة مما جرى وكان، ويحذر من الاستهانة بأى أمر مهما كان صغيرا، فرب شأن حقير تتمخض عنه شئون خطيرة[2]:

لا يهن بعدها عليك حقير رب شأن يكون منه شؤون

أما ابن حمديس، فقد عاش مأساة وطنه بكل أبعادها، ولعلنا لانجد شاعرا بكى وطنه كما بكاه هذا الشاعر الصادق. "ولم يكن ابن حمديس يحمل بنى وطنه مسئولية ضياعه كما فعل بعض الشعراء الصقليين، لأنه كان يقدر دور الجهاد الذى قامت به سرقوسة ونوطس وقصريانه، ولذلك فإنه إذا تحدث عن الفتن بين قومه مر بها مرورا سريعا لأنه موضوع يكرهه ويراه مناقضاً لما يحس به من حقيقة"[3].

لقد عاصر ابن حمديس أحداث تلك الفتنة البغيضة التى نزلت بوطنه فمزقته شر ممزق، كما عاصر وقائع هجوم الأعداء عليه. وفى تلك الفترة أخذ يشجع بنى قومه على الصمود ويحرضهم على الجهاد، ويحذرهم من الاستسلام للأعداء. ويمكن أن نسمى قصائده التى قيلت آنذاك بقصائد الصمود أو "عهد الرجاء". من هذه القصائد قصيدته التى يقول فى مطلعها[4]:

---

(١) المختار من شعر بشار ص٧٣.
(٢) نفسه ص١٧٢.
(٣) العرب فى صقلية ص٢٤٩.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٤١٦.

بنى الثغر لستم فى الوغى من بنى أمى　　إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم

وفيها نسمع صوت ابن حمديس الحكيم يحذر قومه من خطر العدو، ويحرضهم على إعداد العدة لملاقاته، ويشجعهم على الثبات فى الحرب فيقول[1]:

دعوا النوم إنى خائف أن تدوسكم　　دواه، وأنتم فى الأمانى مع الحلم
وكأس بأم الموت يسعى مديرها　　إلى أهل كأس حتها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة　　مصرحة فى الروم بالثكل واليتم
وصولوا ببيض فى العجاج كأنها　　بروق بضرب الهام محمرة السجم
فقرع الحسام الرأس من كل كافر　　أحب إلى سمعى من النقر فى البم

ويمضى ابن حمديس فى حث بنى وطنه على الصمود والذود عن بلدهم، ويحذرهم من التفريط فيه، أو التخاذل فى الدفاع عنه، لأنهم إن فقدوه فسوف يقاسون التشرد والضياع، ويصبحون أذلاء فى البلاد الأخرى، ولن يجدوا فى وطن آخر عوضا عن وطنهم وهل يمكن للخالة الجداء أن تغنى عن الأم الرءوم؟ يقول ابن حمديس[2]:

ولله أرض إن عدمتم هواءها　　فأهواؤكم فى الأرض منثورة النظم
وعزكم يفضى إلى الذل والنوى　　من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى
فإن بلاد الناس ليست بلادكم　　ولا جارها والحلم كالجار والحلم
أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم　　وكم خالة جداء لم تغن عن أم

وينتقل ابن حمديس من التعميم إلى التخصيص، فيخاطب أخاه فى الوطن، ويهيب به أن يتمسك بأرضه، وأن يموت مدافعا عنها، ويحذره من مغبة تركها، أو الهجرة عنها إلى أرض أخرى، فتلك تجربة قاسية ظل ابن

---

(1) المصدر نفسه ص٤١٦.
(2) المصدر نفسه ص٤١٧.

حمديس يعانى منها طوال حياته، ولذلك فهو لا يريد لأخيه أن يكابد ما كابده أو يعانى ما عاناه. يقول[1]:

أخلـى الـذى ودى بـود وصـلته ... لـدى كما نيط الـولى إلى الوسمى
تقـيد مـن القطـر العزيـز بمـوطن ... ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
وإيـاك يـوما أن تجـرب غـربة ... فلـن يـستجيز العقـل تجـربة الـسم

ومـن المـؤكد أن هذه القصيدة وأمثالها كانت تحدث أثراً قوياً فى نفوس الـصقليين ولكـن ظروف الفتنة كانت أقوى أثرا منها، فلم تلبث سرقوسة أن أن استـسلمت، وبعدها سقطت قصريانة، وغلب الروم على صقلية، فضاعت وضاع معهـا الأمـل الـذى عـاش من أجله ابن حمديس، ولم يجد شاعرنا ما يخلد به مأسـاة وطـنه غـير دمـوعه الغزيـرة التـى ظـل يـذرفها حتـى الموت، وغير تلك القصائد الطوال التى تبكى وطنا أضاعه أهله نتيجة جهلهم وسوء تصرفهم. ومن تلك القصائد قصيدة يقول فى مطلعها[2]:

لأمـر طـويل الهـم نزجـى العرامـسا ... وتطـوى بـنا أخفـافهن البسابـسا

وفـى هـذه القـصيدة يطلـق ابـن حمـديس العنان لدموعه التى حاول أن يحبـسها مـن قـبل، ويستـسلم لأحزانه التى استبدت به وتمكنت من قلبه. لقد كان شاعرنا يعيش على أمل أن تعود أرضه لأصحابها، وكان يظن أن تلك الغمة سـوف تنقـشع، ولكـن الأيـام خيبت رجاءه، فساءت ظنونه، وتسلل اليأس إلى قلـبه، بعـد أن كان يحمل نفسه على الصبر والتأسى وهو يرى وطنه يكابد ذلك الـداء القاتـل، ولكـن لم يعـد للـصبر مجال بعد أن سيمت بلاده الهوان والذل، وبعـد أن فـتحت أبـوابها للنصارى يصيرون مساجدها كنائس، ويطمسون معالم الإسلام فيها. يقول ابن حمديس[3]:

---

(1) نفسه ص ٤١٨.

(2) المصدر نفسه ص٢٧٤.

(3) ديوان ابن حمديس ٢٧٤.

أعـاذل دعنـي أطلـق العـبرة التـي	عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
فإنـي امـرؤ آوى إلى الـشجن الـذى	وجدت لـه فـي حبة القلب ناخسا
لقـدرت أرضـي أن تعـود لقـومها	فـساءت ظنونـي ثـم أصبحت يائـسا
وعـزيت فـيها الـنفس لمـا رأيـتها	تكابـد داء قاتـل الـسم ناحـسا
وكيف وقـد سيمت هـوانا وصيرت	مـساجدها أيـدى الـنصارى كنائـسا
إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت	مـع الـصبح والإمـساء فـيها النواقـسا

ونمضى مع أبيات القصيدة فنحس بنبضات قلب شاعرنا تزداد خفقاناً، وأحزانه تنمو وتتكاثر، وتتجسد أمام أعيننا صورة تلك المأساة الأليمة، وما نجم عنها من آثار حزينة في نفوس الصقليين، فقد أصبح الخوف يستبد بهم، وامتلأت قلوبهم رعباً وفزعاً، وأصبحوا أذلاء بعد أن كانوا أعزة. وفى ذلك يقول ابن حمديس[1]:

صـقلية كـاد الـزمان بلادهـا	وكانـت على أهـل الزمان محارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهراً	وكانـت بطـيب الأمـن منـم نواعـسا
وكانـت بـلاد الكفـر تلـبس خـوفه	فأضحى لـذاك الخـوف منهن لابسا

ويعـود ابـن حمـديس بذاكـرته إلى الـوراء قليلاً، ويتمنى لو أن عقارب الـزمن تـتوقف لكـى يرى الناس صقلية الظافرة أيام عزها وسلطانها، حين كان الأعـداء يصبحون أقزاماً ضئيلة أمام أبنائها الأسود الجبابرة الذين فتحوا القلاع والحـصون وغـزوا (قلـورية) وهـددوا الـروم فـى عقر دارهم. وفى ذلك يقول ابن حمديس[2]:

عـدمت أسـودا مـنهم عـربية	تـرى بـين أيـديها العلـوج فرائـسا
فلـم تـرى عينـى مـثلهم فـى كتيبة	مـضارب أبطـال الحـروب مداعـسا
أمـا ملـئت غـزوا (قلـورية)[3] بهـم	وأردوا بطاريقـاً[4] بهـا وأشاوسـا

---

(١) المصدر نفسه ص٢٧٥.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٧٥.

(٣) قلورية calabria إحدى ولايات جنوبى إيطاليا.

(٤) البطريق – القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل.

هـــمُ فـــتحوا أغلاقهـــا بـــسيوفهم	وهـم تـركوا الأنـوار فـيها حنادسـا
وساقوا بأيدي السبي بيضا حواسرا	تخــال علــيهن الــشعور برانــسا

ولكـن الـزمن لا يعـود إلى الـوراء، ودوام الحـال مـن المحـال، فها هي الظـروف تتبدل والـزمن يقلـب للـصقليين ظهـر المجـن. وهـا هـي مدن صقلية تـتهاوى، مدينة في إثْر مدينة وها هم الأعداء يحتلون قصريانة ويغيرون معالمها الإسلامية، وها هي بلدته سرقوسة تستباح بعد أن غاب أهلها تحت ثراها، ولو أنهم كانوا على قيد الحياة لما تركوهم يطأون بأقدامهم فيها ولكن هكذا الحياة! فحين يغيب الأسد عن الغيل يتبختر الذئب في أرجائه كيف شاء[1]:

أفـــي قـــصريني[2] رقعـــة يعمـــرونها	ورسـم مـن الإسـلام أصبح دارسـا
ومـن عجـب أن الـشياطين صيرت	بـروج الـنجوم المحـرقات مجالـسا
وأضـحت لهـم سرقوسـة دار مـتعة	يـزورون بالديـرين فـيها النواوسـا
مـشوا فـي بلاد أهلها تحت أرضها	ومـا مارسـوا مـنها أبـيا ممارسـا
ولـو شـققت تلـك القـبور لأنهـضت	إلـيهم مـن الأجـداث أسـداً عوابسـا
ولكـن رأيـت الفـيل إن غـاب ليـثه	تـبختر فـي أرجائـه الـذئب مائـسا

وهـذه القـصيدة كمـا نرى بناء شاهق، وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس أن قـصائده التـي نظمهـا بعد ضياع صقلية مباشرة تمتاز بوشيجة تنظم أجزاءها وتـضمن لهـا الاتـساق والانـسجام، فهـي بـناء ضـخم مـن حيث النغم وتراكب الأجـزاء وتسلـسلها، ومـا يلفـت الانتـباه أيـضاً أن أكثر قصائده في هذه الفترة بخلاف المقطوعات التي نظمها وهو في صقلية جاءت على البحر الطويل[3].

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٧٦.

(٢) قصريني أو قصريانة: مدينة كبيرة بصقلية من إقليمها الشرقي.

(٣) العرب في صقلية ص٢٥٠.

الحنين إلى الوطن

هاجر كثير من الشعراء الصقليين بعد ضياع وطنهم، وفارقوا أهلهم وأحبابهم وعشائرهم، وعانوا من التشتت والتشرد فى شتى البلدان، وكانت تجربة الغربة عميقة فى نفوسهم، فلم ينسوا ذلك الوطن السليب، أو الفردوس المفقود، وظلت صورته ماثلة فى أذهانهم لا تفارقهم لحظة واحدة.

وقد انعكس ذلك الإحساس على الشعراء فصوروا فيه هذه النزعة، وبثوا فيه زفراتهم وأحزانهم، فجاءت قصائدهم محملة بظلال الحزن والكآبة، وكانت هذه النزعة من الحنين تزداد توهجاً فى نفس الشاعر حين تصله رسالة من أهله أو أصدقائه، أو حين يلم به خطب من الخطوب، أو حين يتعرض لظروف قاسية فى ذلك البلد الغريب. ومن أمثلة هذا اللون من الشعر هذه الأبيات للشاعر الصقلى عمر بن رحيق الذى عاش أغلب أيام حياته فى صقلية وهجرها عند غلبة الروم عليها، ولكنه كان دائم الحنين والشوق إليها، ويعبر عن هذا الحنين فيقول[1]:

نفسى تحن إلى أهلى وأوطانى ... وهل رأيتم محبا غير حنان
كانوا بقلبى أحياء وفى كبدى ... نار تأجج من شجوى وأحزانى
ماضر حين نأوا لو ودعوا دنفا ... رهن الحوادث فى كف الهوى عان
عز اصطبارى لرزء قد دهيت به ... وبان عنى لوشك البين سلوانى

ويشتكى أبو الفضل جعفر بن الطيب الصقلى من لوعة الفراق، وما يقاسيه من البعد والشتات، فيقول[2]:

(1) المسلمون فى صقلية لأحمد توفيق المدنى ص٢١٠.
(2) معجم السلفى ورقة ١٧٧.

عظـــم اشـــتياقي والـــنوى	أبـــت التدانـــي والوصـــول
والله يعلـــم صـــدق مـــا	تحـــت الـــضلوع ومـــا أقـــول
عـــشرون عامـــا فـــرقة	هـــيهات مـــا يغنـــي الرســـول

ويعبر أبو الفضل الفكهري عن ذلك الإحساس بعد أن حرم من أهله وأحبائه زمناً طويلاً ولم يكن له صبر على فراقهم ولو ساعة واحدة، ويتضاعف في نفسه الشعور بالحنين فيدعو الله بأن يقرب المزار ويجمعه بأهله وأحبائه. يقول[1]:

خليلي ما لي قد حرمت التدانيا	وأصبحت عن وصل الأحبة نائيا
وما كان لي صبر على البين ساعة	فها أنا في بين سنين ثمانيا
رعى الله أحبابا وقرب دارهم	وبلغ مشتاقا وأطلق عانيا

ولكن نزعة الحنين هذه لم تبلغ من نفس شاعر مثلما بلغته عند ابن حمديس فقد كان هذا الشعور عارما في وجدانه، خافقاً في أحشائه، لم تزده السنون إلا قوة، ولم يزده فراق الوطن إلا حباً له، وتمسكاً به، وتلهفاً عليه، وقد جرى على لسانه شعر كثير صور فيه تلك النزعة تصويراً صادقاً. فمن ذلك قوله من قصيدة[2]:

بحكم زمان يا له كيف يحكم	يحـــرم أوطانـــاً علينـــا فتحـــرم
لقد أركبتني غربة البين غربة	إلى اليوم عن رسم الحمى بي ترسم

ويقول متشوقاً إلى بلده مصوراً حنينه وذكرى صباه[3]:

أحن إلى أرضي التي في ترابها	مفاصل من أهلي بلين وأعظم
كما حن في قيد الدجى بمضلة	إلى وطن عود من الشوق يرزم
وقد صفرت كفاي من ريق الصبا	ومني ملآن بذكر الصبا فم

---

(١) الخريدة ١/٤/ص١١٤.

(٢) ديوانه – ص٤٠٨ – ق٢٦٧.

(٣) ديوانه ص٤١٦.

لقد كتبت الأقدار على ابن حمديس أن يطوف فى الآفاق، وأن ينتقل من صقلية إلى الأندلس ثم إلى إفريقية، وقد عاش فى إشبيلية وبجاية والمهدية وهى مدن قد لا تقل روعة عن سرقوسة ونوطس، ولكنها لم تستطع أن تنسيه صقلية التى عشق كل شىء فيها. عشق ديارها وهى آهلة بقطانها، وعشقها وهى رسوم وأطلال بالية، وشاقه الأحياء فيها كما شاقه الراحلون عنها[1]:

ألا حبذا تلك الديار أواهلا	ويا حبذا منها رسوم وأطلال
ويا حبذا منها تنسم نفحة	تؤديه أسحار إلينا وآصال
ويا حبذا الأحياء منهم وحبذا	مفاصل منهم فى القبور وأوصال

وتبلغ نزعة الحنين فى نفس ابن حمديس أقصاها عندما يتذكر داره التى قضى فيها أيام طفولته، فكان يتمثلها فى خاطره كل لحظة، ويذرف من أجلها دموعه الغزيرة، ويحيا على أمل أن يراها ويعود إليها. وفى ذلك يقول[2]:

ألا فى ضمان الله دار بنوطس	ودرت عليها معصرات الهواضب
أمثلها فى خاطرى كل ساعة	وأمرى لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للموطن الذى	مغانى أغانيه إليه جواذبى
ومن سار عن أرض ثوى قلبه بها	تمنى له بالجسم أوبة آيب

وهكذا كانت نزعة الحنين تتأجج فى نفس ابن حمديس وغيره من الشعراء الصقليين المهاجرين، ولم يكن هؤلاء الشعراء الصادقون فى حبهم لوطنهم يجدون ما يخفف عنهم لوعة الفراق، وآلام الغربة إلا بقايا من شعاع خافت، وأمل بالعودة ظل يراودهم زمناً طويلاً ولكن الأقدار كانت ضنينة عليهم، فلم تحقق لهم أملهم، وعاشوا غرباء عن وطنهم وذويهم، وقلوبهم مليئة بالأسى واللوعة.

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٣٥٩.

(2) المصدر نفسه - ص٣٣.

الفصل الثالث

موضوعات الشعر الصقلي

أولاً : الغـــزل

أ – الغزل بالمؤنث

ب- الغزل بالمذكر

ثانياً : المـدح

ثالثاً : الرثاء

رابعاً : أغراض أخرى

موضوعات الشعر الصقلي

طرق الشعراء الصقليون فى شعرهم فنون الشعر كافة، ونظموا فى كل غرض من الأغراض التى سار عليها الشعراء فى المشرق، وظلت الموضوعات القديمة تسيطر على الشعر والشعراء وتلك ظاهرة عامة تميز بها الشعر العربى فى مختلف عصوره، وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف وهو بصدد دراسته للشعر العباسى فقال[1]: "وكأنما كان هناك إصرار قوى على أن تظل للشعر العربى شخصيته وموضوعاته وأن يظل حيا على الألسنة مع حياة الأمة، فلا يضعف ولا يذوى عوده، بل يقوى ويزدهر، غير متحول عن أصوله فهو موصول دائماً بقديمه، شأنه فى ذلك شأن الآداب الحية التى لا تنقطع صلتها بماضيها، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارية وثقافية، إذ تظل متصلة بها اتصالاً يمكن لها فى التاريخ وفى الخلود".

ولكن هذا لا يمنع من القول بأن البيئة الصقلية تحكمت فى توجيه موضوعات الشعر، فاختلفت هذه الموضوعات سعة وضيقا، وقوة وضعفا، باختلاف طبيعة البيئة وظروفها، فقد ساعدت هذه البيئة على اتساع دائرة بعض أغراض الشعر كالغزل والمدح والرثاء وشعر الطبيعة والخمر، ولكنها من ناحية أخرى ساعدت على تقلص بعض الأغراض الشعرية الأخرى مثل شعر الحكمة والفخر والهجاء، وكان لذلك كله ظروفه وأسبابه التى سنراها ونقف عليها أثناء حديثنا عن موضوعات الشعر. ولنبدأ الآن بأهم الأغراض التقليدية وهو الغزل.

---

(1) العصر العباسى الثانى ص٣٠٢.

الغزل فى الشعر الصقلى

يعد الغزل أكثر فنون الشعر التى طرقها الشعراء الصقليون. فما من شاعر صقلى إلا وقد أدلى بدلوه فيه، ولعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن معظم ما لدينا من شعر صقلى يكاد يقتصر على الغزل.

وقد ساعدت البيئة الصقلية على ازدهار تيار الغزل حيث امتزج العرب بالفرنجة أو سكان الجزيرة الأصليين، وعاشوا حياة حضرية ناعمة أغرقتهم بشتى وسائل اللهو والمجون، وحررتهم من كثير من الأغلال والتقاليد الموروثة.

ولقد كنا نتوقع أن تؤثر تلك البيئة الإفرنجية فى معانى الغزل وأفكاره تأثيراً أقوى من هذا التأثير الذى سنلاحظه بحيث نرى غزلاً جديداً يعكس آثار تلك البيئة المسيحية، ونتعرف فيه على علاقات وعادات وصور جديدة لم نتعرف عليها فى البيئات العربية ولكن للأسف فقد جاء غزلهم فى معظمه غزلاً تقليدياً، تتردد فيه تلك المعانى والأفكار التى طالما ترددت فى جنبات المشرق وأرجائه، فوقفوا على الأطلال، وبكوا الديار وأكثر من ذكر الأسماء المعروفة للنساء والأمكنة، كما أكثروا من الحديث عن العذال والوشاة والرقباء، ووصفوا المرأة وصفا تقليديا، فتحدثوا عن سهام الألحاظ، وخمر الرضاب، وجمال المحيا، وامتلاء الأرداف، وما إلى ذلك من الأوصاف المألوفة.

ومن تلك المعانى التقليدية التى يرددونها كثيراً فى غزلهم، فكرة الطيف الذى يزور الشاعر أو العاشق ليلا، فيؤنس وحدته، ويخفف من غلواء الشوق فى نفسه. ويعبر أبو القاسم بن يونس الصقلى عن هذا المعنى فيقول[1]:

---

(١) خريدة القصر ١/٤/ص١١٠.

ولما بدا طيف البخيلة، سامحت ... بوصل، ولا وصل لمن هو طالبه
عجبت لدان وصله، وهو نازح ... كأني على بعد الديار أقاربه
بعيد قريب في الفؤاد محله ... فدارتنا تنأى ونحن نصاقبه
وبتنا ونار الحب تضرم بيننا ... ودمع الهوى يهمي على الخد ساكبه
أقبله طورا، وطورا أضمه ... وأعرضت عن دهري فلست أعاتبه
وفارقني عند الصباح برغمه ... وكل عطاء النوم، فالصبح سالبه

ويتناول ابن حمديس الفكرة ذاتها فيقول[1]:

هجر الخيال فزرته بالخاطر ... ولقد يكون، زمان هجرك، زائري
أسددت مسراه فلم يطلق السرى ... أم بات عندك نائما عن ساهر
طمعت مصافحتي له إذ زرته ... فقبضت من ظل الخيال النافر
إني قنعت بزورة زوريـة ... ألفيت باطنها خلاف الظاهر

وردد الشعراء في غزلهم أيضاً فكرة النحول التي عبر بها الشعراء عن أشواقهم وما حل بأجسامهم من الأسقام والضنى. وتتردد هذه الفكرة بكثرة في غزل ابن الطوبي فيقول[2]:

سهام اللحظ ترشقه ... فتدميه وتؤلمه
ودقّ فما تكاد ترى ... له شخصا يكلمه
كمثل الروح ينبيء عن ... حقيقته توهمه

ويقول مرددا الفكرة نفسها[3]:

يا من لجسم تقضى ... حراكه والسكون
فعاد شكلا بسيطا ... تزل عنه العيون
يخفى على الموت لفظا ... فما يكاد يبين
فلو تجسم يوما ... تناولته المنون

ويعبر ابن حمديس عن هذه الفكرة فيقول[4]:

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٢٠٩.
(٢) الخريدة ١/٤/ص٥٩.
(٣) خريدة القصر ١/٤/ص٥٩.
(٤) ديوانه ص٤٩٢.

ألبستني سقما أرا ... ك لبسته في الناظرين
جسمي هو الطيف الذي ... يدنيه منك طلاب ديني
ولقد خفيت من الضنا ... وأمنت لحظ الكاشحين
ولئن سلمت من الردى ... فلأنه لم يدرأيني

كما أكثر الشعراء من الحديث عن العواذل، والوشاة، والرقباء، ووصفوا كيف كانوا يحاولون أن يفرقوا بين المحبين، وما كانوا يضمرون في قلوبهم من مشاعر الحسد والكره والشنآن. فمن ذلك ما يقوله سليمان بن محمد المهدي الصقلي في عذول قبيح[1]:

رأى وجه من أهوى عذولي فقال لي ... أجلك عن وجه أراه كريها
فقلت له بل وجه حبي مرآة ... وأنت ترى تمثال وجهك فيها

ويقول أبو حفص عمر بن الحسن في المعنى نفسه[2]:

أيها العاذل الذي ... طال في الحب عذله
أتراني مللته ... لست ممن يمله
لا ولا اعتضت غيره ... بل له الود كله

ويدير ابن حمديس حواراً لطيفاً بينه وبين أحد العواذل الذين لا هم لهم إلا الوقيعة بين المحبين فيقول[3]:

قال العذول: لقد خضعت لحبه ... فأجبته: عز المحب خضوعه
أقصر فما يجتث أصل علاقة ... جذبت بأطراف الملام فروعه
وكأن لومك رافضي ميت ... وكأن سمعي إذ نعاه بقيعه

وحذا الشعراء الصقليون حذو الشعراء القدماء في الحديث عن مغامراتهم العاطفية، وما كانوا يتجشمون من مخاطر وأهوال في سبيل الوصول

---

(1) جذوة المقتبس ص٢٨.
(2) الخريدة ١٢٠/١/٤.
(3) ديوان ابن حمديس ص٣١٤.

إلى ديار الأحبة والتمتع بلقائهم. ويصور ابن الطوبى إحدى هذه المغامرات فيقول[1]:

رأى نـــورها أو رأى نارهــــا فلمـــا تجلـــى اجتلـــى دارهـــا
وقـــد ضـــرب الليـــل أرواقـــه وأرخـــت دياجـــيه أســـتارها
فقـل فـي جمـال يـضيء الدجـى ويغـــشى الـــنجوم وأنـــوارها
وشـــاطرة ردفهـــا شـــطرها ومـــا يـــبلغ الخـــصر معـــشارها

ويمضي ابن الطوبى فيصف مغامرته مع هذه المرأة إلى أن يقول[2]:

فـــيالك عـــصرا قطفـــنا بـــه لـــيالى تـــشبه أســـحارها
ولـــذات عـــيش مـــضى عيـــنها فهـــا أنـــا أطلـــب آثارهـــا
وهـــا هـــي لم يـــبق مـــنها ســـوى أحاديـــث أعـــشق تكـــرارها

ويشير ابن الخياط الصقلي إشارة عابرة إلى مغامراته فيقول[3]:

ولـرب مأربـة لبـست لهـا الدجـى وقـضت بهـا وطـرا لطافـة مدخلـى
أسرى كما تسرى النجوم لحاجتى والـــناس بـــين مدثـــر ومـــزمل

ولا تختلف صورة المرأة في الشعر الصقلي عن صورتها في سائر الشعر العربي، فلم تزل المرأة الجميلة هي تلك المرأة ذات الردف الثقيل، والخصر النحيل، والوجه المستدير الذي يشبه البدر، والشعر المرسل، والعذر الملتوية كأنها ذيول العقارب، والأسنان الأقحوانية، والألحاظ البابلية، والقدود الرشيقة وما شابه ذلك من الصفات التي طالما تغنى بها الشعراء الأقدمون وورثها عنهم من جاءوا بعدهم. فمن تلك الأوصاف التقليدية المألوفة قول الفقيه محمد بن عيسى الصقلي[4]:

(١) الخريدة ١/٤/ص٧٨.
(٢) نفسه ١/٤ ص/٧٨.
(٣) عنوان الأريب ١/١٣٣.
(٤) الخريدة ١/٤/ص٤١.

بأبـــى ظبـــى ملـــيح فالـــق ... بابلـــى اللحـــظ غـــصنى القـــوام
عـسلى الـريق، خمـرى الهـوى ... لؤلـــؤى الثغـــر، درى الكـــلام
إن تثنـــى مـــاس غـــصنا فـــى نقـــا ... أو تـــبدى لاح بـــدراً فـــى تمـــام

ويقول ابن حمديس مردداً تلك الأوصاف والتشبيهات القديمة[1]:

فـريدة حـسن تخجـل الـبدر بالـسنا ... ودعـص الـنقا بالـردف، والغـصن بالقـد
إذا عقـدت، عقـد الخـيول، وشـاحها ... على خصرها المجدول أوهت من العقد
يـضل سـرى المـشط المـسرح فـرعها ... إذا مـا سـرى فـى لـيل فاحمـه الجعـد
وتـندى بمفتوت مـن المـسك صائك ... قديـــر إلى عـــصر الـــشباب علـــى رد
فلاتـــك مـــنها ظالمـــا لـــصفاتها ... علـى الثغر بالإغـريض والـريق بالـشهد[2]

وأفـاض الـشعراء فـى وصف العيون المريضة التى تصمى قلوب المحبين بسهامها، فقال أبو الحسن بن الطوبى[3]:

أرفـــق بعينـــيك فـــإن الـــذى ... قـــد ضـــمنا مـــن ســـقم زائـــد
فاســـتودع اللحـــظ لأجفانهـــا ... فهـــى مـــراض وهـــى العائـــد

وقـال ابـن حمـديس فـى المعنـى نفسه مازجـاً مـزجاً لطيفاً بين الغزل والتعبيرات الحربية[4]:

أرى سـهام لحـاظ مـنك ترشـقنى ... أفـى جفـونك رام مـن بنـى ثعـل[*]
بل ضعف طرفك فى سفك الدماءله ... أضـعاف مـا للظبـا والنـبل والأسـل

ويـردد ابـن حمـديس معنى آخر قديماً، حين يستعمل فكرة القداح فى الغـزل، فيـشبه عينى صاحبته بسهمى: المعلى والرقيب، وأنها تقدح بهما فى أعشار قلبه. يقول[6]:

---

(1) ديوان ابن حمديس ص١٥٠.

(2) الإغريض: الطلع والبرد، ويصف به كل أبيض. والمعنى لا تشبه الثغر بالإغريض، والريق بالشهد، فذلك ظلم لهما. أنظر هامش الديوان ص١٥٠.

(3) الخريدة ٨٠/١/٤ وما بعدها.

(4) ديوان ابن حمديس ص٣٩٢.

(5) بنو ثعل: قوم مشهورون بالرمى، ولامرىء القيس: (رب رام من بنى ثعل   متلج كفيه عن قتره)

(6) ديوان ابن حمديس ص٦٨.

وأنت قدحت في أعشار قلبي | بسهميك : المعلى والرقيب
ولم أسمع بأن عيون عين | تفيض سهامهن على القلوب

وتوصف المرأة في الشعر الصقلي بأنها منعمة، متحضرة، يكاد وليد الذر يجرح جسمها إذا لامسه، وتلك أيضاً صفة قديمة طالما رددها الشعراء قديماً، وقد أعجب بها ابن حمديس فرددها في شعره غير مرة من مثل قوله[1]:

يكاد وليد الذر يجرح جسمها | إذا صافحت منه أنامله الإتبا

ويقول[2]:

مهاة تكاد العين من لين جسمها | ترى الورق المخضر في الحجر الصلد

ولم يقتصر الشعراء على محاكاة المشارقة في أوصافهم وتشبيهاتهم ومعانيهم، ولكنهم حاكوهم أيضاً في ذكر أسماء الأماكن العربية القديمة، وكذلك أسماء النساء، فنراهم يذكرون ثبيرا والعقيق ومنى والحجاز ورامة وغيرها، ويرددون أسماء تقليدية كهند وسعاد وسلمى ونوار وجميل بثينة.

ونجد ابن الطوبى مثلا يتغزل في امرأة اسمها هند، وفيها يقول[3]:

صبرت يا هند عنك | إذ خنت من لم يخنك
يا هند إن كنت قربي | فالهند أقرب منك

ويتغزل ابن حمديس في امرأة اسمها سعاد، وفيها يقول[4]:

أسعاد إن كمال خلقك راعني | فرأيت بدر التم عنه ناقصا

ويذكر أبو الحسن الطرابلسي أسماء بثينة وجميل، فيقول[5]:

أتدري ما يقول لك العذول؟ | وتدري ما يريد بما يقول؟
يريد بك السلو وهل جميل | سلوك عن بثينة يا جميل؟

---

(1) المصدر نفسه ص٥٠. والإتب قميص بلا كمين تلبسه المرأة.
(2) المصدر نفسه ص١٥٠.
(3) عنوان الأريب ١٣٨/١.
(4) ديوانه ص٢٨٨.
(5) الخريدة ١٢٩/١/٤.

ونجد ابن الطوبى ينفرد بالغزل فى النساء السود، ويفضلهن على البيض، لأن لونهن يشبه سواد العين الذى هو أجمل من بياضها. من ذلك قوله[1]:

شبيهات المشيب تعاف نفسى ... وأشباه الشبيبة هن حور
سواد العين نور العين منه ... وما لبياضها فى العين نور

ويقول فى المعنى نفسه[2]:

تحبك يا سوداء نفسى بجهدها ... فمالك لا تجزينها بودادها
وأنت سواد العين منى أرى به ... وليس بياض العين مثل سوادها

ومع أن الشعراء الصقليين قد أسرفوا على أنفسهم كثيرا فى محاكاة المشارقة وترديد معانيهم وتشبيهاتهم، فإن البيئة المسيحية تركت بعض بصماتها فى شعر الغزل، فتغزل بعض الشعراء بالنساء المسيحيات، ووصفوا جمالهن وزرقة عيونهن وألوان ثيابهن من مثل قول أحدهم[3]:

صفراء تدلع بالبياض لباسها ... وخمارها بمعصفرات الأحمر
فكأنها فى درعها وخمارها الـ ... مبيض والمحمر عند المنظر
ياقوتة كسيت صفيحة فضة ... وتتوجت صفح العقيق الأحمر

ويقول الفقيه أبو موسى بن عبدالمنعم الصقلى[4]:

يا بنى الأصفر أنتم: بدمى ... منكم القاتل لى والمستبيح
أمليح هجر من يهواكم ... وحلال، ذاك فى دين المسيح؟
يا عليل الطرف من غير ضنى ... وإذا لاحظ قلباً فصحيح
كل شىء بعدما أبصرتكم ... من صنوف الحسن فى عينى قبيح

ويتغزل أبو عبدالله محمد بن قاسم فى زرقة العين فيقول[5]:

---

(١) المصدر نفسه ٤/١/ص٧١.

(٢) المصدر نفسه ٤/١/٦٠.

(٣) الخريدة ٤/١/٣٠.

(٤) المصدر نفسه ص٢٩.

(٥) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٩.

وعابوا زرقة في العين منه وقالوا الدعج أسلب للعقول
فقلت الزرق أفتكها فعالا كفاكم ذاك من زرق النصول

وقد أدت الحانات والأديرة التى كانت تنتشر فى صقلية إلى نشأة لون من الغزل يمكن أن نطلق عليه "غزل الحانات" أو "غزل المغنيات والقيان"، ووسعت مجالس الخمر، وحفلات الرقص والغناء من دائرة هذا الغزل، فكثر عشق الشعراء للقيان والجوارى والمغنيات، وكلفوا بهن كلفا شديداً لأنهم وجدوا فيهن مجالا لاستثارة مشاعرهم، وإشباع غرائزهم.

ويتميز غزل الحانات هذا بالإغراق فى الأوصاف الحسية، والإكثار من التعبيرات الجنسية، ويكون مداره فى الغالب تلك القوة الشهوانية التى تتأجج فى كيان الشعراء. وقد برع ابن حمديس فى هذا اللون من الغزل وتفنن فيه، وصور البيئة المسيحية من خلاله تصويراً دقيقاً بما كان يشيع فيها من فتن وانحلال خلقى، ونجح فى أن يمزج بين معانيه وبين التعبيرات الحربية المستمدة من البيئة مزجاً قوياً فمن ذلك قوله يصف إحدى مغامراته مع إحدى الفتيات الروميات[1]:

وذات ذوائب بالمسك ذابت بلغت بها المنى وهى التمنى
منعمة لها إعزاز نفس يصرف دلها فى كل فن
شموس من ملوك الروم قامت تدافع فاتكا عن فتح حصن
بخد لاح فيه الورد غضا وغصن ماس بالرمان لدن
فطالت بيننا حرب زبون بلا سيف هناك ولا مجن
وفاضت نفسها الحمراء منها وسالت نفسى البيضاء منى

ورغم ما فى الأبيات من تعبيرات جنسية صريحة ولاسيما فى البيت الأخير إلا أننا لا نستطيع أن نخفى إعجابنا بها، وخاصة هذا المزج القوى بين صور الجنس وصور الحرب، وتدرجه فى رسم لوحته خطوة خطوة حتى وصل

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٤٨٩.

بهـا إلى ذروة التـصعيد لـتلك الـرغبة الـشهوانية، ونجاحـه فـى اختيار الألوان المناسـبة للتعـبير عـن نهايـة تلك التجربة الجنسية، وعلى أية حال، فإن هذه الأبـيات صـادقة الدلالـة علـى تلك الآثار التى تركتها البيئة المسيحية فى شعر الغـزل. وقـد انعكـس أثر تلك الأديرة والحانات على شعر الغزل انعكاساً قوياً، فأصـبح فـى معظمـه غـزلاً حـسياً يعنى فيه الشاعر عناية كبيرة بتصوير النهود والأرداف والحـديث عـن العـناق والقبلات وما شابه ذلك من الأمور والأوصاف الحسية. فمن أمثلة ذلك قول ابن حمديس[1]:

رب لـيل هـصرت فـيه بغـصن ... لابـس نـضرة النعـيم وريـق
فـيه رمانـة تطـاعن صـدرى ... فهـى أمـضى مـن الـسنان الذلـيق

ويقول شاعر آخر[2]:

بروحـى عهـد الـصبا فـى زرود ... بكـل مهـاة مـن العـين رود
إذا مـوردى مـن رضـاب الـثغور ... وإذ مرتعـى مـن ثمـار الـنهود

وتكثر هذه الأوصاف والمعانى الحسية فى أشعار البلنوبى. ومن أمثلتها قوله[3]:

ولم أنـل سـوءاً سـوى أننـى ... أدنيـته منـى وقـبلت فـاه
وذدت عـنه كـبدا شـارفت ... وردا فخفـت كخفـيف القطـاه
وكـدت مـن (بكـراء) مكـتومة ... أمـلأ كفـى بـرغم الوشـاة

وقـد لا تخلـو تلـك الأوصاف الحسية من طرافة أو جدة فى التعبير من مثل قول ابن حمديس[4]:

غـشيت حجـرها دموعـى حمـرا ... وهـى مـن لـوعة الهـوى تـتحدر
فانـزوت بالـشهيق خـوفا وظـنت ... حـب رمـان صـدرها قـد تنثـر
قلـت عـند اختـبارها بـيديها ... ثمـرا صـانهن جـيب مـزرر
لم يكـن مـا ظنـنت حقـا ولكـن ... صـبغة الـوجد صبغ دمعـى أحمـر

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٣٢.
(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جـ٤ (مخطوط) ورقة ٣٤٤.
(٣) ديوان البلنوبى. نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ورقة ٢ - ٣.
(٤) ديوان ابن حمديس ص١٨٥.

وقد وقف غرسيه غومس إزاء هذا التيار الحسي الذي شاع في البيئتين: الأندلسية والصقلية فقال[1]: "وذلك كله إنما يدل على ما كان يتوفر في قلوب أولئك الشعراء من إعجاب مفرط بالجمال البدني المحسوس، وربما كان ذلك من الخصائص المميزة للعقلية العربية، ورثته فيما ورثت من مشاعر البدو وميولهم، شأنه في ذلك شأن الحب العذري الذي انحدر من البدو إلى الأجيال المتوالية عن طريق العرب والمسلمين".

ويعلل غومس هذه الظاهرة فيقول : "وقد كان الوضع الخاص للمرأة في المجتمع الإسلامي سببا في قلة فهم الناس للجانب النفسي من حياتها وخصائصها، فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسي الملموس أي الصورة البدنية، فاندفعوا في الإعجاب بها اندفاعاً عنيفاً لا يرد"[2].

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التيار الحسي لم يكن يمثل إلا جانباً واحداً من جوانب الغزل، فقد وجد في غزل الصقليين ضرب آخر يتعفف فيه أصحابه، ويبدون فيه محبين صادقين. وليس بغريب أن نجد في البيئة الصقلية شعراً من هذا النوع لأن انغماس أكثر الشعراء في الملذات، وانسياقهم وراء رغباتهم وشهواتهم، لا يعني عدم وجود شعراء آخرين يميلون إلى العفة في حبهم وعواطفهم، فقد وجدت أمثلة كثيرة لهذا اللون من الغزل ولاسيما في بيئات الفقهاء واللغويين.

ومن الطبيعي أن ينصرف أصحاب هذا اللون من الغزل عن وصف المرأة وصفاً حسياً أو بعبارة أدق ينصرفون عن تلك المعاني الحسية التي خاض فيها أصحاب الغزل الحسي، فنجدهم يديرون غزلهم حول معان أخرى كالصدق في الحب، والمعاناة فيه، والصبر على هجران الحبيب وما شابه ذلك من المعاني.

---

(1) الشعر الأندلسي ص٤٨.

(2) الشعر الأندلسي ص٤٨.

وقد نسمعهم يرددون فى أشعارهم تعبيراً مثل "الهوى الروحانى" من مثل قول ابن حمديس[1]:

لما وجدت هواك خامرنى ... أيقنت أن هواك روحانى

ومن أمثلة هذا الغزل قول محمد بن عيسى بن المنعم الصقلى[2]:

أنا والله عاشق لك حتى ... ليس لى عنك يا منى النفس صبر
وحياتى إن تم لى منك وصل ... ومماتى إن دام لى منك هجر

ويقول عبد العزيز الصقلى البلنوبى[3]:

بحق المحبة لا تجفنى ... فإنى إليك مشوق مشوق
ولا تنس حق الوداد القديم ... فذلك عهد وثيق وثيق
وكن ما حييت شفيقا على ... فإنى عليك شفيق شفيق
ولا تتهمنى فيما أقول ... فوالله إنى صدوق صدوق

ويقول أبو الحسن البلنوبى[4]:

الموت فى صحف العشاق مكتوب ... والهجر من قبل تنكيد وتعذيب
إن طال ليلى فوجه الصبح مطلعه ... من وجه من هو عن عينى محجوب

وقد أثر الفقهاء فى هذا اللون من الغزل تأثيراً كبيراً، فأشاعوا فيه معانى الوفاء والتضحية والعفة والعذرية حتى لنجد أحدهم يمنعه الحياء أن يعلن عن حبه فيكتمه فى نفسه رغم ما يعانيه من حرق الأسى وشدة الصبابة فيقول[5]:

أسارقه اللحظ الخفى مخافة ... عليه من الواشين والرقباء
وأجهد أن أشكو إليه صبابتى ... فيمنعنى من ذاك فرط حيائى
وإنى وإن أضحى ضنينا بوده ... لأمنحه ودى وحسن صفائى
سأكتم ما ألقاه من حرق الأسى ... عليه، ولو أنى أموت بدائى

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٤٩٣.
(2) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٩.
(3) معجم البلدان ٧٣٢/١.
(4) الخريدة ١٥/١/٤.
(5) الخريدة ١/٤/ص١٣٨.

ويبدو أن بعض الفقهاء كانوا يخفون مشاعرهم العاطفية حتى يقللوا من مكانتهم الدينية فى نفوس الناس، ويتحدث أحد الفقهاء عن تجربة عاطفية مر بها وأعلنها على الناس فلم ينج من أقاويلهم واتهاماتهم. يقول[1]:

كتمت الذى بى، فانتفعت بكتمانى وأعلنت حالى، فاتهمت بإعلانى
وما خلت أن الأمر يفضى إلى الذى رأيت، ولكن كل شىء يرى دانى

ويستطيع الباحث فى هذا الغزل أن يضع يده على بعض الظواهر البارزة التى تلفت الانتباه. من ذلك مثلاً أن نجد شاعراً مثل ابن الخياط يحول المسجد من مكان مقدس يقتصر على العبادة والدرس إلى مكان يلتقى فيه مع حبيبته يطارحها الغرام كما يبدو فى مثل قوله[2]:

ياحبذا المسجد الذى جمعتـ ـنا فيه مقصورة إلى العصر
ما كان إلا بستان تلهية لولا مراعاة حرمة الشهر

وهذا فى حد ذاته شىء مستغرب إن دل على شىء فإنما يدل على مدى الحرية الاجتماعية التى كان يتمتع بها الصقليون. ولعلنا لم نسمع بمثل هذا الأمر إلا فى صقلية وحدها.

ومن الظواهر الأخرى التى نلاحظها فى هذا الغزل كثرة الشكوى والبكاء والتذلل والتضرع للمحبوب، وتوجد هذه الظاهرة بكثرة فى الشعر الصقلى، ولكنها تبدو غير طبيعية فى هذا المجتمع المتحرر الذى كان يعطى المرأة حرية واسعة ولا يضن على المحبين بشىء. وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين ساعدوا على انتشار هذه الظاهرة بإضمارهم مشاعر الحب والغرام. فمن أمثلة ذلك قول الفقيه أبى القاسم السرقوسى[3]:

دعوا المشتاق تذرف مقلتاه لما فى القلب من ألم الفراق
أصابته النوى عقبى صدود ففر من الوهيج إلى احتراق

---

(١) الخريدة ١/٤/ص٣٨.
(٢) شرح المختار من شعر بشار ص٣٦.
(٣) معجم السلفى ورقة ٥٦.

وكانـــت عيـــنه تـــدرى بمـــاء فعـــادت تـــرتوى بـــدم مـــراق

ويقول محمد بن زيد الطرطائى الصقلى فى المعنى نفسه[1]:

عبرتـــى فـــيك مالهـــا مـــن نفـــار وزفـــيرى ولوعتـــى فـــى ازديـــاد
يـــا وصـــول الغـــداة يغـــرى ســـقيما باتـــصال الأســـى وهجـــر الـــرقاد
كيف ترضى خلاف حسنك يا من حـــسنه فـــاق حـــسن كـــل العـــباد؟

ويقول سليمان بن محمد الطرابلسى[2]:

أجرجفونـــى مـــن دمـــع ومـــن ســـهر وأضـــلعى مـــن جـــوى فـــيهن مـــستعر
جـــرى علـــى بمـــا شـــاء الهـــوى قـــدر يا قوم ما حيلة الإنسان فى القدر؟
ما كنت أحسب دمعى سافكا لدمى حتـــى أبحـــت لعينـــى لـــذة النظـــر

والواقع أن الإسراف فى البكاء والتذلل والشكوى بهذه الصورة المفرطة قد جعل الشعراء يدورون حول معان مبهمة، وأحاسيس غامضة إزاء عاطفة الحب ولكن هذه الحقيقة يجب أن لا تصرفنا عن حقيقة أخرى وهى تميز كثيراً من هذا الغزل بالعذوبة والرقة. ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح فى أشعار البلنوبى خاصة من مثل قوله[3]:

أنـــت عمـــا حـــل بـــى فـــى شـــغل إنمـــا يرثـــى لمثلـــى مـــن بلـــى
لى وعـــد دون عينـــيك مـــضى دونـــه عمـــرى ووافـــى أجلـــى
يـــا حبـــيب الـــنفس لـــو أبـــصر مـــا حـــل بـــى مـــنك عـــدوى رق لى

ونلمس هذه الرقة فى قوله أيضاً[4]:

هـــذى الخـــدود وهـــذه الحـــدق فلـــيدن مـــن بفـــؤاده يـــثق
عـــنفوا علـــى بلـــومهم ســـفها لوجـــرعوا كـــأس الهـــوى رفقـــوا
لـــو أنهـــم عـــشقوا لمـــا عدلـــوا لكـــنهم عدلـــوا ومـــا عـــشقوا
مـــا الحـــب إلا مـــسلك خطـــر عـــسر الـــنجاة وموطـــئ زلـــق

---

(١) المحمدون من الشعراء ص٣٣١.

(٢) الخريدة ١٠٥/١/٤ وما بعدها.

(٣) مختصر للكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٧.

(٤) معجم السفر للسلفى ورقة ٢٨٣. وانظر أيضاً اختيار ابن منجب الصيرفى ص١٩- ٢٠ وقد أورد البيت الثانى محل البيت الثالث.

وقد رق ابن حمديس أيضاً فى كثير من غزله من مثل قوله[1]:

أنت فى العين واللسان وفى القد فـأين اسـتقرّ قـدرى مـنك

وقوله[2]:

وكم يقولون: مجنون، وما علموا أن الجنون الذى بى من هوى بشر
لاعـذب الله مـن أجلـى معذبـة تـشرد الـنوم عـن عينـى بالـسهر

ونسمع شاعراً آخر يقول[3]:

أحبك حب الماء فى أرض قفرة بهاجـرة ظمـآن ظـل مهجـرا
وإن كنت قد أقصرت عنك لعلة فمازلت فى عين الضمير مصورا

ومثل هذه الأشعار تنفى عن الغزل الصقلى صفة التقليد، وتمنحه القوة والسمو، وترتفع به عن السقوط والإسفاف.

الغزل بالمذكر:

انتشر هذا اللون من الغزل فى البيئات الصقلية انتشاراً واسعاً ظهر أثره فى كثرة ما وصل إلينا من شعر فيه.

ونكاد نظن أن التعلق بالغلمان كان يبدو — فى نظر الصقليين — أمراً طبيعياً لا عيب فيه ولا شذوذ بدليل أننا لا نجد من الشعراء أو الفقهاء من ينكر هذا الغزل أو يستهجنه، وبدليل أنه استشرى فى مستويات مختلفة، وطبقات متباينة حتى إنه امتد إلى بيئة الفقهاء ووجد له مكاناً رحباً فيها.

ويبدو أثر البيئة المسيحية واضحا فى هذا اللون من الغزل، فقد كان الغلمان النصارى موضوعاً من موضوعاته. ولذلك نجد الشعراء يرددون فى غزلهم أسماء مسيحية، ويتغنون بذكر الصليب والزنار والعذار. كأن نسمع ابن الطوبى يقول فى أحد هؤلاء الغلمان[4]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٤٤.
(٢) المصدر نفسه ص١٧٦.
(٣) المحمدون من الشعراء ص٨٨.
(٤) الخريدة ٨١/١/٤.

البدر في أزراره والغصن في أزرازه
وكأنما فت العبير على مخط عذاره

ويقول في غلام آخر رآه في أحد الأديرة فأعجب به لجمال هيئته، وعذوبة حديثه[1]:

شمس الضحى من فوق أزراره والغصن في عقدة زناره
سراج أهل الدير من حسنه يجلو دجى الليل بأنواره
كأنما هاروت في طرفه يبث سحراً بين أشفاره
أحرقني ظلما بنار الهوى نجاه رب العرش من ناره

ويقول شاعر آخر في صبي نصراني خمار[2]:

ومزنر عقد الصليب بنحره وأدار حول وشاحه إنجيلا
خمدت بجنح الليل جمرة ناره فأقام خمرة دنه قنديلا
متطلع لذوي السرى من كأسه نجم يكون إلى الصباح دليلا

وتتردد في هذا الغزل أسماء إسلامية أيضاً، فنسمع ابن الطوبي يقول[3]:

أنظر إلى (حسن) وحسن عذاره لترى محاسن تسحر الأبصارا
فإذا رأيت عذاره في خده أبصرت ذا ليلا وذاك نهارا

ويتغزل شاعر آخر في غلام اسمه عبدالله فيقول[4]:

صور عبدالله من مسكة وصور الناس من الطين

وقد انتقلت معاني الغزل بالمؤنث إلى الغزل بالمذكر، فتغزل الشعراء بالعيون والخدود والقوام، وشبهوا الغلام بالهلال وبالشمس والظبي، وتغنوا

---

(1) عنوان الأريب للنيفر ١٣٧/١.
وانظر أيضاً: المحمدون من الشعراء ص٢٥٦.
(2) الخريدة ١٦٢/١/٤.
(3) الخريدة ١/٤/ص٥٦ وما بعدها.
(4) المحمدون من الشعراء ص٢١٤.

بسحر اللحاظ، وأفاضوا فى تصوير الأوصاف الحسية، والمفاتن الجسدية، فمن ذلك قول أحدهم[1]:

صور عبدالله من مسكة ... وصور الناس من الطين
أبدعه الله وسبحانه ... كمثل حور الجنة العين
مهفهف القد، هضيم الحشا ... يكاد ينقد من اللين
كأن فى أجفانه منتضى ... سيف (على) يوم (صفين)
فى مثله يوصل حبل الصبا ... وتؤثر الدنيا على الدين

وكثيراً ما تتشابه تلك الأوصاف حتى ليلتبس الأمر على القارىء مالم تكن هناك قرينة تدل على ذلك الغزل مثل الإشارة إلى العذار أو اللحية أو الشعر، من مثل قول عبد الوهاب بن مبارك[2]:

نفسى الفداء لظبى ... قد جاز فى التيه حده
حكى القضيب انعطافاً ... كما حكى الليث نجده
بالدمع طرز خدى ... مد طرز الشعر خده
كأنه بدر تم ... فى الأفق قابل سعده
يا عاذلى فيه دعه ... يطل كما شاء صده
فإنما هو مولى ... أضحى يؤدب عبده

ولكن هذا لا يمنع من أن هناك صفات معينة ركز عليها الشعراء فى غزلهم بالغلمان مثل التغنى بذكر العذار، ووصف اللحية والشارب وما كان يقوم به هؤلاء الغلماء من عقربة الأصداغ ولفها وما شابه ذلك من الصفات التى تلتصق بهم وتدل عليهم. فمن أمثلة وصفهم للعذار قول ابن الطوبى[3]:

قام عذرى بعذاريه فما أعظم كربى
قلت لما أن تبدى ... نبته: سبحان ربى
أحرقت فضة خديك ... لكى تحرق قلبى

---

(١) المصدر السابق ص٢١٤.

(٢) الخريدة ١٤١/١/٤.

(٣) الخريدة ٥٧/١/٤.

ويقول شاعر آخر[1]:

فـيه للعـين منـية واعـتذار حـين أبـدى الـبديع مـنه الـعـذار
فـات حـد القـياس إذ صـيـغ مـاء وسـط در مـركب فـيه نـار

ويـتردد فـي غـزلهم تشبيه العذار بالآس، كما يشبهونه بلام من المسك مكـتوبة علـى زهـرة جلنار، وقد يشبهونه بزهرة بنفسج نابتة فى نضار من مثل قول أحد الشعراء[2]:

وعـذار كأنـه لام مـسك خطهـا كاتـب علـى جلـنار
عجـب العاذلـون مـنه وقالـوا طـاب فـى ذا العـذار خلـع العـذار[3]
مـا رأيـنا بنفـسجا قـبل هـذا نابـتاً فـى صـحيفة مـن نـضار

ومـن الأوصـاف الحـسية فى الغزل بالمذكر وصف اللحية، فمن الشعراء مـن كـان يؤثـر ذلـك الغلام الذى نبتت لحيته وطر شاربه. ومن أمثلة ذلك قول الفقيه الكلامى[4]:

وقالـوا التحـى فـانحط نـصف جماله فقلت لهم بـل زاد فـى حسنه الشعر
فلـولا سـواد العـين مـا كـان نـورها ولـولا ظـلام الليل مـا حـسن البـدر

ويقول ابن الطوبى واصفا لحية غلامه[5]:

قـال العـذول التحـى فقلـت لهـم حـسن جديـد قـضى بـتجديد
أمـا تـرى عارضـيه فـوقهما لام ابـتداء ولام توكـيد

ويقول البلنوبى[6]:

ومـسربل بالحـسن معتجـر مـنه بأكملـه ومنـتطق
عجبـى لجبهـته وطـرته وضـح الـصباح ومـا انجلـى الغسق

---

(١) المصدر السابق ص٨٧.

(٢) الخريدة ٤/١/٧٠.

(٣) خلع العذار: طرح اللجام، وهـو معنى مجازى يرمز إلى الانطلاق فى الغواية دون أن يكبحه مانع. والنضار: الذهب.

(٤) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٦.

(٥) الخريدة ٤/١/٨٥.

(٦) ديوان البلنوبى ورقة ٩.

وكانت لثغة اللسان صفة محببة عند بعض الشعراء من مثل قول ابن القطاع[1]:

وشادن في لسانه عقدة	حلت عقودي وأوهنت جلدي
عابوه جهلا بها فقلت لهم:	أما سمعتم بالنفث في العقد؟

ويتغزل ابن الطوبي في غلام عرضت بفيه حرارة فيقول[2]:

شكا لحرارة في فيه أعيت	معالجة فبات لها كئيبا
وكيف يصح ذا - تفديه نفسي -	وبرد رضابه يطفي اللهيبا

ويتغزل أيضاً في غلام أصيب بالجدري فيقول[3]:

جدر فازدادت مداجاته	ونحن في الحب له زدنا
وكان كالفضة ما نقشت	فزادها أن نقشت حسنا

وكثيراً ما نجد في هذا الغزل أحاديث عن الهجران والصدود، واليأس من وصال الحبيب، والشكوى من تباريح الحب، وآلام الهوى، وعذاب البين، وكأن الشاعر يحب امرأة لا غلاما. من ذلك قول ابن القطاع[4]:

يا من رمى النار في فؤادي	وأنبط العين بالبكاء
أردد سلاماً فإن نفسي	لم يبق منها سوى الدماء
وارفق بصب أتى ذليلا	قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه في الهوى التجني	فصار في رقة الهواء

وتحتفظ بعض مصادر الأدب بقصص حب نادرة تدل على مدى معاناة الشعراء في حبهم لهؤلاء الغلمان. من ذلك ما يروى من أن شاعرا يدعى محمد ابن عبدالله الصقلي كان من أهل صقلية المقيمين بها، وكان من أهل القرآن والتفسير والورع والتعفف، وقد وصف بأن له في النحو فهما صافيا، وفي الأدب قسما وافيا. وقد ابتلى هذا الرجل بحب فتى من أبناء صقلية، فهام به،

(١) الخريدة ٥٣/١/٤ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه ص٧٥.
(٣) المصدر نفسه ص٦٨.
(٤) عنوان الأريب للنيفر ١٢٤/١.

وسلب لبه، وفقد أربه، ولم يزل جسمه ينحل ويضنى، ويذبل ويفنى، وعيل فى حبه صبره، إلى أن نفث الدم صدره. وكان يصنع فيه الشعر طول أيامه، ومدة غرامه، إلى أن فارق دنياه، وصار إلى أخراه، من دون ذنب فى حبه ارتكبه، ولا عيب فى نفسه اكتسبه[1]. ومن شعره فيه قوله من قصيدة أولها[2]:

هذا خيالك فى الجفون يلوح	لو كان فى الجسم المعذب روح
يا سالما مما أقاسى فى الهوى	هل يشتفى من قلبى التبريح
غادرتنى غرض الردى وتركتنى	لاعضو لى إلا وفيه جروح
لله ما صنعت لَواحظ جفنه	لو بلغت نفسى الردى فتريح

ويقول فيها واصفا حالته البائسة ونزفه الدم من فمه يسبب هذا الحب الغريب[3]:

لو عاينت عيناك قذفى من فمى	كبدى ودمعى مع دمى مسفوح
لرأيت مقتولا ولم تر مقتلا	ولخلت أنى من فمى مذبوح
يا ويح إنى قد جرحت ومادروا	أنى بأسياف الجفون جريح
قل للذى منه علقت منيتى	أأباح قتلى يا ظلوم مبيح
كبدى على صدرى جرت فإلى متى	أغدو أعذب فى الهوى وأروح

ونستغرب صدور مثل هذا الشعر من عالم فقيه، والواقع أن فى هذه الأبيات ما يدل على أن المسألة لم تكن مجرد مجاراة للتقليد الأدبى، أو رغبة فى إرضاء جانب اللهو فى الحياة بقدر كونها ميلا صادقا أو نزعة نفسية إلى تعشق هؤلاء الغلمان.

ومهما يكن من أمر فلم تكن هذه القصيدة وحدها هى التى تسجل تلك القصة الغريبة، قصة عشق فقيه عالم لأحد الغلمان إلى درجة الموت، بل إن هذا الفقيه قد قصر شعره على حكاية هذا الحب وكم كنا نتمنى أن نظفر بذلك

---

(1) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٦٣/٣.
(2) المصدر نفسه ١٦٣/٣.
(3) نفسه ١٦٣/٣.

الشعر كاملا لكى نسجل تفاصيل هذه القصة العجيبة، ولكن لسوء الحظ فإن المصادر بخلت علينا بذلك ولم تبق غير ثلاثة أبيات أخرى تدور حول الموضوع نفسه. وفيها يقول هذا الشاعر[1]:

حسبوا دموعى إذ رأوها من دمى	عن علة حدثت لفرط بكائى
تالله ما هى غير أن بليتى	من مقلتى أفضت إلى أحشائى
فتقطعت كبدى وغيضت أدمعى	فجرى إلى عينى فيض دمائى

وتحتفظ مصادر الأدب بقصص أخرى من هذا النوع الغريب. من ذلك إن رجلا أديبا شاعراً — يدعى سليمان بن محمد المهدىَ الصقلى — كان يهوى غلاماً جميلاً، وكان كلفا به، وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه، وبينما هو ذات ليلة منفرداً يشرب وحده على ما أخبر عن نفسه. وقد غلب عليه غالب من السكر، خطر بباله أن يأخذ قبس نار ويحرق على الغلام داره لتجنيه عليه، فقام من حينه، وأخذ قبسا فجعله عند باب الغلام فاشتعل نارا، واتفق أن رآه بعض الجيران فبادروا النار بالإطفاء، فلما أصبحوا نهضوا إلى القاضى فأعلموه فأحضره القاضى، وقال له: لأى شىء أحرقت باب هذا الغلام؟ فأنشأ يقول[2]:

لما تمادى على بعادى	وأضرم النار فى فؤادى
ولم أجد من هواه بدا	ولا معينا على السهاد
حملت نفسى على وقوفى	ببابه حملة الجواد
فطار من بعض نار قلبى	أقل فى الوصف من رقاد
فأحرق الباب دون علمى	ولم يكن ذاك من مرادى

فاستظرفه القاضى وتحمل عنه ما أفسد وأخذ عليه ألا يعود، وخلى سبيله"[3].

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٦٣/٣.
(٢) جذوة المقتبس ص٢٠٦.
(٣) المصدر السابق ص٢٠٦.

ويحكى البلنوبى فى إحدى قصائده قصة لقاء جمعه وغلاما كان يجادله الحب. وفى هذا اللقاء أخذ الشاعر يشكو لذلك الغلام ما حل بجسمه من عذاب وجوى، وسره أن وجده يقاسى مثلما يقاسى، فرق لحاله، وأمضى معه ليلة هنيئة نعم فيها بطيب الوصل، وصفاء الزمان. يقول[1]:

قمر حييت بقربه	وحياة مثلى موته
أبكاه شكواى الضنا	لا كنت حين شكوته
فلقد جرحت فؤاده	بعتابه وأسوته
حتى إذا ليل الدجى	عنى تدارك فوته
رصعت من فضل الغما	مة تاجه فجلوته
ونسجت من حلل الغوا	لى حلة فكسوته
زمن صفا لى عيشه	فطربته ولهوته
يا رب لو داركتنى	بعداره لسلوته

وهكذا يتضح لنا مبلغ تعلق الصقليين بهذا اللون من الغزل، واحتفائهم بـه على اختلاف طبقاتهم، وتفاوت منزلتهم الاجتماعية والعلمية. ويكفى دليلا على شيوع هذا الغزل واتساع نطاقه أن نرى شاعراً يقصر نفسه عليه، وألا نسمع صرخة استنكار واحدة تصمه أو تدين من يخوضون فيه رغم اشتداد تيار المحافظة والتشدد اللذين فرضا وجودهما على بعض البيئات الصقلية.

(1) ديوان البلنوبى ورقة ٨ - ٩.

المدح

كان المدح من الأغراض التقليدية التى احتفظت بطابعها فى الشعر الصقلى. وقد وجدت عوامل كثيرة ساعدت على ازدهار المدح وتوسيع ميدانه، فمن ذلك تشجيع الأمراء الصقليين للشعراء ومنحهم الصلات والعطايا، وإغداق الأموال عليهم، حتى أن الأمير ثقة الدولة رفض أن يسمح للشاعر محمد بن عبدون السوسى بالرجوع إلى وطنه القيروان بعد أن أعجب بمدائحه فيه[1]. ولا غرابة فى هذا، فقد كان هؤلاء الأمراء "فى حاجة إلى تقوية وتثبيت مراكزهم بنشر عبارات الحمد والثناء وآيات التعظيم والتفخيم التى كانت تذاع بواسطة من كان يفد عليهم من الشعراء[2].

وفى عصر الفتنة التى أصبحت صقلية فريسة فيها لمختلف الطوائف، كان كل أمير يحاول أن يستأثر بأكبر قدر من الشعراء حتى يساعدوه فى تثبت دعائم ملكه، ويشيدوا بانتصاراته على منافسيه وأعدائه، فاتصل ابن الخياط بابن الثمنة، ومدح محمد بن قاسم القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواس، واتصل عبد الحليم الصقلى، وابن رشيق بالقائد ابن منكود صاحب مازر، كما انحاز ابن الطوبى والفقيه الكلاعى إلى المعز بن باديس[3] والتف بعض الشعراء حول صاحب ديوان الخمس وكان يومئذ إبراهيم بن محمد الشامى، فمدحه ابن الصباغ والمشرف بن راشد وابن الرقبانى وغيرهم وحاول كل شاعر أن ينتصر لصاحبه بأن يكيل له المدائح، وأن يوهم الناس بأحقيته فى الحكم وإيثاره على من سواه، وأن يفند دعاوى الأمراء المنافسين، ويشيد بانتصاراته ومآثره. ولا شك أن هذا كله أسهم فى ازدهار هذا اللون من الشعر ازدهاراً كبيراً.

---

(١) عنوان الأريب ٤٨/١.

(٢) رحلة الأندلس لمحمد التنونى ص١١٤.

(٣) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٨٧.

نهج قصيدة المدح:

كانت قصيدة المدح تستهل غالباً بمقدمة تقليدية يتوكأ عليها الشاعر للوصول إلى غرضه الرئيسى. ولم تكن هذه المقدمات تسير على وتيرة واحدة أو تلتزم أسلوباً واحداً. فقد يمهد الشاعر لمديحه بالغزل التقليدى من مثل قول ابن حمديس فى إحدى مدائحه(1):

متى صدرت عيناك عن أرض بابل؟	فسحرهما فى اللفظ بادى المخايل
عجبت لرام كيف أنشب منهما	بسهمين نصلا واحدا فى مقاتلى
أأنت التى سقيتنى سم حية	وخيلت عندى أنه شهد عاسل
فيا نار وجدى كيف عشت تضرما	بماء من الأجفان للنار قاتل؟

وهكذا يمضى الشاعر فى غزل متكلف لا يخرج عن كونه مجرد تقليد أدبى يلتزم به أو وسيلة يمتطيها حتى يتخلص إلى المدح.

وكان الشعراء يستهلون مدائحهم أحياناً بوصف الخمر والدعوة إليها والثورة على الأطلال على الطريق النواسية من مثل قول ابن حمديس فى مقدمة إحدى مدائحه(2):

دع ذكر نزوح عنك نأى	وتبدل من سكن سكنا
ونزول هواك بمنزلة	كتبت زمنا ومحت زمنا
واخضب يمناك بقانية	فلها فرج ينفى الحزنا
وتريك نجوما فى شفق	يجلو الظلماء لهن سنا
إنى استوليت على أمدى	ووطئت بفطنتى الفطنا
وسبقت فمن ذا يلحقنى	فى مدح على بن الحسنا

وتدل هذه الأبيات على أن قصيدة المدح تخلصت إلى حد بعيد من الجزالة والفخامة وقوة أسر الألفاظ وطول البحر الشعرى، فتميزت برقة الألفاظ، وخفة الوزن، والبعد عن الأبحر الطويلة.

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٣٩٤.

(2) نفسه ص١٥٠.

وقد يحدث أن يحتوى تمهيد القصيدة على الغزل والخمر معا، كما فى هذا المثال لابن الخياط حيث جاء مدح الأكحل بن ثقة الدولة عقب تغزل الشاعر، وعقب وصفه للخمر، يقول[1]:

ولقد صبرت له فأوسعنى — قلقاً وأثخن مهجتى حرقا
ولعلنى إن قلت بى علق — قعد الوشاة بقصتى حلقا
وأنا رهين بحب ساحرة — ملأت يدى ببشرها ملقا
نظمت لها أيدى ملاحتها — خرز القلوب بجيدها نسقا

ثم يتخلص بعد ذلك إلى المدح فيقول:

ملك تضم الأرض قبضته — حتى تكون جميعها طبقا
يغزو بأدهم فى العجاج ترى — لمع السيوف بجسمه بلقا

وقد لا يجد الشاعر حرجا فى استهلال مديحه بالغزل بالمذكر فيصف مفاتنه، ويبثه غرامه وشوقه حتى ليستغرق أكثر قصيدته فيه على نحو ما فعل أبو بكر ابن عبدالله السكرى فى إحدى مدائحه التى يقول فى مطلعها[2]:

عارض فيه عذار — ذاك ليل ونهار
هو فى الجوهر ماء — وهو فى التوريد نار

ويمضى فى وصف محاسن غلامه ويطيل فى ذلك إلى أن يقول مادحا[3]:

ملك تحسد فيه — آل قحطان نزار

ونجد الحلوانى الشاعر المهاجر إلى صقلية يبدأ قصائده فى مدح صاحب الخمس برثاء القيروان موطنه الأصلى والبكاء عليها، ويصف ما تعرض له من أهوال ومتاعب بعد تشرده عنها حتى وجد فى ممدوحه ذماما ومعتصماً قوياً. يقول فى إحدى مدائحه[4]:

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩٠.
(٢) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٥.
(٣) المصدر السابق ورقة ١٠٥.
(٤) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ١/٤/ص٢٢٤ وما بعدها.

لله منـــزلة بـــالقيروان محـــا أيامهـــا الـــبين لا الأيـــام والقـــدم
شـققت جـيب شـبابى بعـد فـرقتها حـزناً علـيها ولا شـيب ولا هـرم
إن فـرق الدهـر عـنا شملـنا فلـنا بـصاحب الخمـس إبـراهيم معتـصم

ويقول فى قصيدة أخرى[1]:

لـيت شـعرى "ولـيت" حـرف تمـن ربمـــا علـــل الفـــؤاد الـــسقيما
كـيف يـا قـيروان حالـك لمـا نثـر الـبين سـلكك المـنظوما
كـنت أم الـبلاد شـرقا وغـربا فمحـا الدهـر وشـيك المـرقوما
نحـــن أبـــناؤها ولكـــن غنيـــنا بعـد أن لم نطـق بهـا أن نقـيما
وأنـا قـد أخـذت إن عـبث الـدهـ ـر ذمامـا مـن ابـن إبـراهيما

ولـيس يعنـى مـا سـبق أن الـشعراء كانـوا يحرصـون دائمـاً علـى تلـك المقدمات، ولا يستطيعون أن يحيدوا عنها، فهذا ليس صحيحاً، وقد نجد منهم مـن يـبدأ بالـمديح مباشـرة دون تمهـيد أو تقـديم مـن مثل قول ابن حمديس فى إحدى مدائحه[2]:

ملـك جديـد مـثل طـبع المنـصل نمـش الفـرند علـيه صـنع الـصيقل

وقـد التـزم بعض الشعراء بالنمط التقليدى لقصيدة المدح من حيث البدء بالوقـوف علـى الأطـلال، ووصـف الـرحلة إلى المـدوح، وما يلاقيه الشاعر فى سـبيل الوصـول إلـيه مـن مـتاعب وأهـوال، وإذا كان القدماء قد ركبوا الناقة أو الراحلة إلى المدوح، فإن الشعراء الصقليين استبدلوا بها ركوب البحر على نحو ما يتمثل فى قول ابن حمديس[3]:

إليك زجـرنا الفلـك فـى كـل زاخـر معالمـــنا مفقـــودة فـــى مجاهلـــه

(1) الذخيرة ٢٢٥/١/٤.
(2) ديوان ابن حمديس ص٣٨٤.
(3) نفسه ص٣٧٠ – ٣٧١.

وكانـوا يخـتمون مـدائحهم فـى الغالـب بطلب العطاء والاستجداء على طـريقة المـشارقة مـن مـثل قـول ابـن الخـياط فى ختام قصيدة يمدح بها الأمير مستخلص الدولة بن ثقة الدولة[1]:

وإذا منحـــتك مـــن ثـــناك نتـــيجة   فعـــن المـــنائح مـــن نـــوالك تنـــتج

معانى شعر المدح :

أخـذ الـشعراء يـرددون فـى مـدائحهم تلك المعانى والأفكار الى تعاورها الـشعراء فى المشرق، ولم تخرج صفات الممدوح عن تلك الصورة العامة المحفورة فـى أذهـان الـشعراء، وهـذه ظاهـرة عامـة تميـز بها الشعر العربى فى مختلف عـصوره، "والواقـع أن الـشاعر عـندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح، وإنمـا يحـاول أن يرسـم صـورة شخـصية تتمـثل فـيها الـصفات التـى يقـدرها المجـتمع، شخـصية مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح إلا أن الشاعر يحـاول أن يـربطها بشخـصيته. لذلك فإن دراستنا لهذا النوع من الشعر – كما أعـتقد – يجـب أن تكـون قائمة على هذا الأساس، أى اعتبار كل قصيدة مدح صورة لشخصية مثالية يرسم الشاعر خطوطها بعد أن يستوحى صفاتها من القيم الخلقية للمجتمع[2].

وهـذا الـرأى صحيح إلى حد بعيد، فلا يزال الممدوح فى الشعر الصقلى مـثله مـثل الممـدوح فـى الـشعر المـشرقى، يتـصف بالجود والكرم، والشجاعة، والـسماحة والعدل، وما شابه ذلك من صفات مثالية ليس ضروريا أن تكون فيه على الحقيقة، ولكن من الضرورى أن تخلع عليه وأن تلتصق به.

ووصـف الممـدوح بالكـرم هـو أكثـر الأوصاف التى نلتقى بها فى مدائح الصقليين، فمن ذلك قول أحدهم[3]:

---

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩٢.

(2) إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ص٨٨ – ٨٩.

(3) الخريدة ٣٤/١/٤.

ملـــك إذا لاذ العفـــاة بـــبابه ... أخـذوا مـن الأيـام عقـد أمـان
يعطـى الجـزيل، ولا يمـن، كأنمـا ... فـرض علـيه نـوافل الإحـسان

ويقول أبو سعيد الوراق فى المعنى نفسه[1]:

إذا جـاد أحـيا جـوده كـل معـدم ... فـلا عـدم إلا وهـو بالجـود قاضـبة
ويغـضى حـياء للـسؤال كأنمـا ... يطالب مـن جدواك ما أنت طالبه
سأنشر شكرى ما حييت فإن أمت ... ستنـشره بعـدى علـيك غـرائبه

وممدوحهم هذا أغر أبلج، لا يمل من العطاء وتقديم الصلات، ولا غرابة فى هذا، فقد حاز عراقة المجد، وكرم الأصل عن آبائه وأجداده. وفى مثل هذه المعانى يقول محمد بن عبدالله الصقلى[2].

واقصد فتى الجود إسماعيل ممتدحاً ... بخـير شـعر كـنظم الـدر منـتخل
تـنل فلاحـا وتظفـر[3] عـند رؤيـته ... بكـل مـا تبتغـى مـن صـالح الأمـل
أغـر أبلـج إن حـال الجـواد علـى ... ضنك الزمان عن المعروف لم يحل
حـاز التكـرم قـدما والـسماح معـا ... والمجـد والفخـر عـن آبائـه الأول

وممـدوحهم — فـضلاً عـن كـرمه وسـخائه — ذو هيـبة كالليـث إلا أنه يـتودد إلى الـناس، وهـو بـرٌ لا يخلـف وعـدا، ولا يخون عهداً، سباق إلى فعل الخـيرات يعـف لـسانه عـن قبـيح القول، وينأى بنفسه عن صغائر الأمور، وله خلـق نبـيل فاضـل، وعقـل رصين ثابـت، وراى سـديد صـائب يجلـو ظلمات الـشكوك إلى آخـر تلك الصفات المثالية التى تضفى على الممدوح إضفاء، وتخلع عليه خلعا. وفى مثل هذه المعانى يقول أبو عبدالله محمد بن عيسى[4]:

هـذا الـذى جـدواه سـبعة أبحـر ... زخـرت ولكـن مـاؤهن معـين
ذو هيـــبة كاللـــيث إلا أنــــه ... مـتودد ولـه الـنفوس عـرين
ـر فلـيس الـوعد مـنه بمخلـف ... أبـدا ولـيس العهـد مـنه يخـون

---

(١) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٢.
(٢) المحمدون من الشعراء ص٦٨ – ٦٩.
(٣) فى الكتاب (تظفره) وهو سهو من المحقق والصواب ما أثبته.
(٤) الخريدة ٣٩/١/٤.

فوليه في الأكرمين معظم — وعدوه في الأصغرين مهين
وله إلى الفعل الجميل توثب — وله من القول القبيح سكون
خلق كنوار الحدائق زاهر — وحجى كأعلام الجبال رصين
وحمية تولى الأذلة عزة — وتعلم الأيام كيف تكون
ونصيحة لله يوضح نورها — ظلم الشكوك إذا دجت فيبين

وقد يمدحونهم بجمال المحيا وإشراقة الوجه، والتفرد بالحسن والملاحة من مثل قول سليمان بن محمد الطرابلسي[1]:

سبحان من صاغ الأنام بقدرة — منه، وأفرد بالملاحة جعفرا
جعل المحاسن كلها مجموعة — في وجهه كالصيد في جوف الفرا[2]

وكان طبيعياً أن تتأثر معاني المدح بأحوال صقلية السياسية حيث نجد الشعراء يشيدون بشجاعة الأمراء. ويتغنون بانتصاراتهم في الغزوات والحروب ويصفونهم بأنهم حماة العقيدة، والمدافعون عن الدين، وحاملوا رايات الجهاد وبأنهم يؤثرون الدين على الدنيا، ويسهرون من أجل نشر العدل وإحقاق الحق بين الناس، ويصرفون هواهم إلى دحر الأعداء، ويقدمون الركاب على الكعاب.
ويعبر عن هذه المعاني أبو عبدالله الحسين بن علي فيقول في قصيدة يمدح بها الأمير ثقة الدولة[3]:

على العادات فاجر مع الأعادي — وناد يجبك منهم كل ناد

وفيها يقول[4]:

عبيدك من تؤم من الأعادي — وأرضك ما تروم من البلاد
فدونك يا عميد الملك فاعمد — تنل إن رمتها ذات العماد
صرفت عن الأغاني والغواني — هواك إلى العوادي والأعادي
وقدمت الركاب على كعاب — مخضبة الترائب بالجساد

---

(1) المصدر السابق ص١٠٦.
(2) الفرا: حمار الوحش.
(3) عنوان الأريب ١٣٠/١.
(4) نفسه ص١٣١.

وكـم باتـت جفـونك سـاهرات	سـهاداً يقتـضى طـيب الـرقاد
ومـن يـك فـى اللـذاذة ذا اجتهاد	فإنـك ذو اجـتهاد فـى الجهـاد

ويقول ابن الخياط فى مدح الأمير جعفر بن ثقة الدولة[1].

ملـك تـضم الأرض قبـضته	حتـى تكـون جمـيعها طـبقا
يغـزو بـأدهم فـى العجـاج تـرى	لمـع الـسيوف بجـسمه بلقـا

ومـن يتتبع مدائح الصقليين يلاحظ أن هناك معنى يديره الشعراء كثيراً وهـم بـصدد المـدح، فكانوا يمدحون الأمير أو الملك بنفاذ البصيرة، وبعد النظر، واسـتطلاع الغيب، علـى تصور ما يجىء به المستقبل[2]. ويرى الدكتور إحسان عـباس أن هـذه الظاهـرة ليس لها صلة بفكرة الألوهية، ورفع الممدوح إلى مرتبة علـية، ولكـن فـيها شـىء من سخرية الواقع بالصقليين لإحساسهم بالعجز عن الـنفاذ فـى هـذا الـباب المغلـق، ولـيس فـى حـياتهم الـسياسية ولافـى شوراهم الاجتماعـية شـىء مـن بعد النظر، لأن المصلحة العاجلة كانت تبتسر أفكارهم، وتختزل لباقتهم فى حساب النتائج[3].

وقـد أدار ابـن الخياط هذا المعنى فى شعره كثيرا، فقال فى مدح الأمير انتصار الدولة[4]:

تـبدو بخاطـره الغـيوب جلـية	ويـرى الـضمائر إثـرهن خواطـر

وقال فيه أيضاً[5]:

فطـن يحـدث بالغـيوب تظنـيا	فكأنمـا لحظاتـه فـى الخاطـر

وقال فيه وفى أبيه مستخلص الدولة يمدحهما[6].

وكأنمـا الحـدثان خلـف زجاجـة	تـريانه خلـل الغـيوب شـفيفا

---

(١) نفسه ص١٣٣.
(٢) العرب فى صقلية ص٢١٥.
(٣) نفسه ص٢١٦.
(٤) شرح المختار من شعر بشار ص١٢٠.
(٥) نفسه ص١٢٠.
(٦) شرح المختار من شعر بشار ص١٢٠ – ١٢١.

وكـأن أسـرار الوجـوه تـصورت لكمـا بأسـرار القلـوب حـروفا
فـإذا انطـوى يـوما بغـش نـية نـشرت فأصـبح سـترها مكـشوفا

ولا شك أن تلك الحياة السياسية المتقلبة التى عاشتها صقلية، والتى كانت تنذر بالشر، هى التى أوحت إلى ابن الخياط وغيره من الشعراء بأن يرددوا هذا المعنى فى مدائحهم، ولا غرابة فى هذا، فقد كان مستقبل الجزيرة مجهولاً فى صفحة الغيب، وكان الغد يحمل فى طياته المفاجآت المزعجة، ولم يكن أحد يدرى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور أو ما يحمله القدر من أنباء غير سارة والفتنة تطل برأسها بين لحظة وأخرى.

وتتغير معانى المدح بتغير صفة الممدوح نفسه، فتختلف المعانى التى يمدح الشاعر بها وزيراً أو كاتباً عن المعانى التى يمدح بها قائداً أو قاضياً، فإذا كان الممدوح وزيراً مدحه الشعراء بحسن الروية، وسرعة الخاطر بالصواب، وشدة الحزم وجودة النظر للأمير، والنيابة عنه فى المعضلات بالرأى، وإذا كان الممدوح كاتبا مدحه بالبلاغة وجودة الخط، والتفنن فى العلم، وإذا كان قاضياً مدح بالعدل والإنصاف والذكاء وتقريب البعيد فى الحق، والأخذ للضعيف من القوى، والمساواة بين الفقير والغنى، وإذا كان قائداً مدح بالشجاعة والجود والإفراط فى النجدة، وسرعة البطش وما شاكل ذلك[1].

فمن أمثلة هذا التخصص فى معانى المدح قول أحد الشعراء يمدح قائداً من القواد[2].

وإذا رماحـك أشـرعت فكأنهـا مـن حـول أسـد كماتـك الآجـام
وكأنمـا انـسلخت هـناك أراقـم وكأنمـا باضـت هـناك نعـام

(1) أشار ابن رشيق القيروانى إلى هذا التخصص فى شعر المديح من ناحية معانيه. أنظر العمدة فى صناعة الشعر ونقده/٢/١٠٧ وما بعدها ط. الخانجى.

(2) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جـ٣ (مخطوط).

ويقول أبو القاسم هاشم بن يونس من قصيدة يمدح بها قائداً يدعى أبا النصر[1]:

ويوم تنادوا من يجير من الردى ... وما لخيول القوم من متصرف
وقفت أبا نصر تكفكف عنهم ... وتطعن بالخطى أشرف موقف
لقاء أعاد وامتطاء مطيهم ... وتقليب هندى وهز مثقف
أحب إليه من مدام وقينة ... وأحور معشوق الشمائل أهيف

ويقول أبو الحسن بن الطوبى فى مدح أحد القضاة[2]:

بهاء فى سناء فى ذكاء ... جمعت وعظم قدر فى علاء
إذا قاضى قضى بالجور يوماً ... فأنت المرء نفذ فى القضاء

ومن الطريف أن نرى فى الشعر السقلى مدائح توجه إلى الإفرنج أو (الملوك النورمانيين)، وموطن الطرافة فى تلك القصائد هو تلك الروح التسامحية التى يعيش بها المادح والممدوح على تباين الدين، فى عصر لم يكن يسمح بذلك التسامح[3].

ولسوء الحظ فإن العماد الأصفهانى حذف أكثر الشعر الذى وجده فى مدح الكفار وقد تعمد هذا تعمدا بدليل قوله فى أحد الموضع[4]:

"واقتصرت من القصيدتين على ما أوردته لأنهما فى مدح الكفار فما أثبته".

وقوله فى موضع آخر تعقيبا على إحدى هذه القصائد[1]: "واقتصرت منها على هذه البغية مع الظمأ إليها، فما أوثر إثبات مدح الكفرة، عجل الله بهم إلى لفح ناره المستعرة، وهذا الشاعر معذور فإنه مأسور".

---

(1) الخريدة ١١١/١/٤.
(2) مختصر الكتاب المنخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٣.
(3) العرب فى صقلية ص٣١١.
(4) الخريدة ٢٥/١/٤.

ولو أن العماد قد أورد لنا قدرا كبيرا من هذا الشعر، لاستطعنا أن نظفر بصورة واضحة لعلاقة شعراء صقلية بالإفرنج، ومدى ما يمكن أن يكون قد حدث من تغيير أو تطور فى معانى المديح وأفكاره ولكنه للأسف فإن النتف التى أوردها العماد لا تسعفنا فى تصور مثل هذه الأمور.

وبصفة عامة يمكن القول بأن بواعث هذا اللون من المدح وأسبابه تنحصر فيما يلى:

١- تملق هؤلاء الحكام الجدد ومحاولة كسب رضاهم لإحساس الشعراء بالخوف منهم، وحتى يضمنوا لأنفسهم الأمن والنجاة. ويمثل هذا الفريق من الشعراء البثيرى الصقلى، وقد أورد له ابن بشرون قصيدة طويلة فى مدح رجار الفرنجى صاحب صقلية ولكن العماد الأصفهانى حذف منها الجزء الخاص بالمدح ولم يورد إلا ما يختص بوصف المبانى والجنان[٢].

٢- ومن الشعراء من كان يتوجه بمدائحه إلى الإفرنج طمعاً فى الخلاص من الأسر مثل أبى حفص عمر بن حسن النحوى الصقلى، وقد ذكر أنه شيخ لغة ونحو، وله فى علمها سيح[٣] صحة وصحو، حصل فى اعتقال الإفرنج فى صقلية، وسيم أنواع البلية، وقد وصف شعره بأنه متناسب الحوك، متناسق السلك والسبك، وله قصيدة فى مدح "رجار" صاحب صقلية وهو فى قبضة الإسار. أولها[٤]:

---

(١) المصدر نفسه ص٤٩.

(٢) الخريدة ١/٤ ص٢٥.

(٣) السيح: الفيض.

(٤) الخريدة ٤٨/١/٤ - ٤٩.

طلب السلو لو ان غير سعاده … حلت سويدا قلبه وفؤاده
ورجا زيارة طيفها فى صدها … وغرامه بأبى لذيذ رقاده
والله لولا الملك روجار الذى … أزرى محبيه عظيم وداده
ماعاف كأس الوجد يوم فراقها … ورأى محيا المجد فى ميلاده

ومنها فى المدح :

يهتز للجدوى اهتزاز مهند … يهتز فى كفيه يوم جلاده
ويضىء فى الديجور صبح جبينه … فتخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء أرض خيامه … والنجم والقمران من وقاده
وإذا الأمور تشابهت فلعضبه … خط يبيض سودها بمداده

ومنها :

يا أيها الملك الذى ثبتت به … قدما الفطانة فى صفا أملاده
ودعته أرواح العدا فرمى بها … لعبا تلقتها ظبى أغماده

وقد وقف (العماد) فى رواية القصيدة عند هذا الحد لأنه لا يؤثر إثبات مدح الكفرة على حد تعبيره، واكتفى بأن يلتمس الأعذار للشاعر الأسير[1].

وواضح من الأبيات أن معانى المدح التى يخلعها الشاعر على الملك النورمانى هى نفس المعانى المألوفة المتداولة التى مدح بها الأمراء المسلمون مثل مدحه بالكرم والشجاعة والثبات فى الحرب والحسم فى الأمور، والإشادة بفطنته وذكائه. .

ومن القصائد الأخرى التى نظمت فى مدح الإفرنج قصيدة لشاعر من بنى رواحة يمدح فيها صاحب صقلية حين انكسرت به سفينة، وأسر، فوقف لملكها وأنشد[2]:

---

(١) أورد القفطى هذه الأبيات ولكنه لم يزد على ما رواه العماد شيئاً، أنظر إنباه الرواه ٢/٣٢٨.
(٢) المكتبة الصقلية ص١٥٢ – ١٥٣.

بقيت ووقيت الردى وكفيته	ووفقت للدنيا ووفقت للأخرى

ويستعطفه فيها فيقول[1]:

وما بي سوى أم عجوز وصبية	كزغب القطا لا تعرف "الصنع"[2] والضرا
تركتهم والله يعلم أنهم	بأضيق حال لا يزيد به العمرا
مفاليس في ضر وشمل مشتت	أشد من الأسرى فياليتهم أسرى
ولو أنهم أسرى لكانوا بغبطة	فإنا لديكم لا نجوع ولا نعرى

ويقول الخبر إن روجار أطلق سراحه ووهبه أموالا وزوده وجهزه في مركب إلى أهله[3].

ونجد شاعرا مثل عبدالرحمن بن رمضان المالطي يخصص معظم شعره لمدح روجار يسأله العودة إلى مالطة، ولا يحصل منه إلا على المغالطة[4]. ولم يحتفظ العماد بشيء من شعره في المديح تأكيدا لفكرته التي أعلنها من قبل وهي أن هذا كله لغو لا ينبغي ذكره أو إثباته.

ومهما يكن من أمر فإن ما لدينا من هذا الشعر في مدح الإفرنج يوضح أنه لم يكن ينظم بمحض إرادة الشعراء ولكنهم — لسبب أو لآخر — اضطروا إلى ذلك اضطرارا، ودفعوا إليه دفعا، ولم ينساقوا إليه حبا في هؤلاء الحكام الجدد أو ترحيبا بها، وتعبيرا عن الولاء لهم.

---

(١) المكتبة الصقلية ص١٥٢ وما بعدها.

(٢) كذا بالأصل ولعلها "الضيق" أو "الضيع" أو "الضير".

(٣) المكتبة الصقلية ص١٥٢ – ١٥٣.

(٤) الخريدة ٢١/١/٤.

يعد الرثاء من الفنون الشعرية التى توسع فيها الشعراء الصقليون. ومع أنه لا يختلف فى معانيه وأساليبه عن رثاء المشارقة إلا أنه يتميز عنه بميزة أخرى وهى الإكثار من التفجع والتهويل والأحزان. وقد يبدو ذلك شيئاً طبيعياً إذا ربطناه بواقع الصقليين وظروفهم النفسية والاجتماعية، فقد كانت هذه الجماعة تشعر أنها تعيش غريبة فى هذه الجزيرة النائية، وازداد هذا الشعور قوة وعمقا بعد ضياع وطنهم، ونزوح كثير من أبناء هذا الوطن وهجرتهم فى مشارق الأرض ومغاربها، فأحس هؤلاء الصقليون الذين تمسكوا بالبقاء فى وطنهم بأنهم أصبحوا قلة، وأن ذهاب أى فرد منهم يعد خسارة اجتماعية فادحة وهذا ما يعلل لنا كثرة رثائهم وتفجعهم على موتاهم.

ومن يتتبع هذا الفن فى شعر الصقليين يلاحظ أنه متنوع فى موضوعاته واتجاهاته، فهناك رثاء الأمراء والقادة ورؤساء المسلمين، وهناك رثاء الأقارب والأصدقاء، وهناك لون آخر من الرثاء يتمثل فى رثاء الشباب والبكاء عليه.

وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء من التفجع على ملوكهم وعظمائهم وقوادهم ولاسيما بعد سقوط صقلية، إذ كانوا يشعرون أن فقد أى عظيم أو قائد يعد خسارة فادحة لأنهم يفقدون بفقده الأمن والحماية. ويعبر الفقيه أبو عبدالله محمد بن عيسى عن هذه المعانى فيقول من قصيدة يرثى بها أحد رؤساء المسلمين[1]:

لقد مات فيه عدة أى عدة	لنا فعدمنا كل عيش به يرضى
وأبصارنا كانت تسامى له وقد	غدا الكل مناطرفه اليوم قد غضا
وقد كان طرفى ليس يغضى على القذى	فأضحى على أقذائه اليوم قد أغضى

(١) الخريدة ٤/١/٤٤.

ويقول مصوراً شجاعته وبطولته[1]:

بكته المذاكى المقربات وقطعت ... شكائمها إذ منه أعدمت الركضا[2]
مشت وهى بين الخيل أغزرها دما ... وأبـرزها جسما وأهـزلها نحـضا
وكادت سيوف الهند تندق حسرة ... وأجفانها تنشق عنها لكى تنضا
وخط على الخطية الرزء أحرفا ... أرادت لها خفضا فحولها خفضا
شهدنا على قرب بمشهد موته ... مشاهد لم تخط القيامة والعرضا[3]

ويصف إحساس الناس بفداحة هذا المصاب، حتى إن سرورهم بالعيد انقلب إلى حزن بموته، فلم يستطيعوا الخروج لصلاة العيد كعادتهم كل عام بسبب حزنهم عليه[4]، يقول:

أعاد سرور العيد حزنا مماته ... ومبرم أمر فيه حوله نقضا
فما أحد وافى المصلى ضحى ولا ... دجى أبصرت من همه عينه غمضا

ويرثى ابن حمديس قائدا من قواد صقلية يدعى عبد الغنى بن عبدالعزيز الصقلى، ويكثر من التفجع والتحسر عليه، ويصف شجاعته فى الحرب، وبسالته فى الدفاع عن الوطن، وخسارة الناس بفقده، ويفيض فى وصف مآثره، وتعداد مناقبه، فيقول بعد مقدمة طويلة ضمنها كثيراً من الحكم[5]:

أى رزء جاءت به الريح فى الما ... ء وأفشته من لسان النعى
ومصاب أصاب كل فؤاد ... فى ابن عبد العزيز عبد الغنى
قائد قاده إلى الموت عز ... باقتحام كهل وعزم فتى
ورث العز من أبيه كشبل ... أخذ الفتك عن أبيه الأبى
يتقى حد سيفه كل علج ... بحبيك المـاذى فى الآذى

(1) الخريدة ٤٣/١/٤.
(2) المذاكى: الخيل الشابة الفتية. المقربات: المكرمات العزيزات.
(3) العرض: موقف الحساب يوم القيامة حين يعرض الناس على الله.
(4) الخريدة ٤٣/١/٤.
(5) ديوان ابن حمديس ص٥٢٧.

ويصف شجاعته في الحرب واستشهاده وسخائه بنفسه فيقول[1]:

يا شهيداً في مشهد الحرب ملقى ... وسعيداً بكل علج شقي
وسخياً بنفسه للعوالي ... في رضى الله فعل ذاك السخي
كم ضروب ضاربته وجليد ... وقريب طاعنته وقصي
وأخي وفضة كأم ولود ... ما أصابتك من بنات القسي

ويمضي ابن حمديس في قصيدته فيصف أثر استشهاد هذا القائد الشجاع في نفوس الصقليين جميعاً فيقول إن أصدقاءه يذرفون دموعا لا تنقطع، والثكالى يخرجن حاسرات الوجوه، يندبن، وينحن، ويلطخن وجوههن بالسواد حزناً عليه، يقول[2]:

كم صديق بكاك مثلي بدمع ... طالع من شئونه لاعصي
تدرف العين منه جرية ماء ... تطأ الخد وهي جمرة كي
وثكالى يندبن منك بحزن ... خير ندب مهذب ألمعي
حاسرات ينحن في كل صبح ... بله دمعها وكل عشي
ليس يدري امرؤ أجز نواص ... كان منهن أم حصاد نصي
سودت بالمداد بيض وجوه ... فهي في كل برقع حبشي

ويصف ابن حمديس علاقته بهذا القائد الشجاع ومدى ما حل به من حزن وألم لفراقه فيقول[3]:

يا خليلا أخل بي فيه دهر ... لوفاء الأحرار غير وفي
أنت بالموت غائب، ومثال ... في ضمير الفؤاد منك نجي
أنا أبكي عليك ما طال عمري ... شرق العين من دموع بري
وستبكيك بعد موتي القوافي ... في نياح من لفظها معنوي

والقصيدة طويلة، وهي مثال صادق لقصيدة الرثاء الصقلية بما فيها من سمات وخصائص، ففيها فداحة الإحساس بالمصاب، وفيها جرعة لا بأس بها

---

(١) نفسه ص٥٢٨.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٢٩.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٥٢٨.

من التفجع والتحسر والتهويل، ولكن معانى ابن حمديس مألوفة ليس فيها شىء جديد. بل قد نحس باهتزاز الريشة فى يده أحياناً ولاسيما فى مثل قوله إن الثكالى يندبن ندباً مهذباً ألمعياً. فهذا معنى سقيم مضطرب لأن "الندب" لا يمكن أن يوصف بمثل هذه الأوصاف.

وفى مثل هذا اللون من الشعر نحس دائماً صوت الرجل "الحكيم" الذى يتمثل العبرة المجسمة فى حقيقة الموت ويربط فى ذلك بين الماضى والحاضر وربما نلتقى بأمثلة من هذا الشعر ليس فيها شىء من تصوير التأثر الذاتى للحادثة المباشرة وإنما فيها أسى عميق على العظماء من بنى الإنسان، فهو بكاء على (العظمة) من خلال تصوير عظمة الموت، رجاء التأسى[1].

ويمكن أن نمثل لذلك بهذه القصيدة لشاعر يدعى محمد بن أحمد الصقلى يرثى فيها الأمير ثقة الدولة، فيقول[2]:

مل بعين الفكر تدرك حقائقا	من العلم ليست عن ظنون تترجم
إذا حان منك الحين لم تغن رقية	ولم يدفع المحتوم عنك منجم
فخذ حذرا من فجأة الموت إنما	تسير على إثر الذين تقدموا
فلو كان مخلوق من الموت ناجيا	نجا فى رؤوس الشمخ الصم أعصم
يعز علينا أن نؤبن هالكا	وعادتنا فيك المديح المتمم
سقى الله أرضا حلها قبر يوسف	من المزن وكافا يجود ويسجم
وصلى عليه الله من متوسد	يمينا لها فى كل فضل تقدم

فالشاعر هنا يلبس مسوح الحكيم، ويحاول أن يستخلص عبرة الموت، ولا يدع مجالا للعاطفة أو التأثر، ولذلك جاءت أبياته هادئة النغمات، مقفرة من العاطفة، خالية من الانفعال الذاتى.

---

(١) الأدب الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين ص١١٩.

(٢) المحمدون من الشعراء ص٦٩ – ٧٠.

وهناك لون آخر من الرثاء، هو رثاء الأقارب، وفيه يطلق الشاعر العنان لأحاسيسه الحزينة، فيتألم، ويبكى، ويتفجع، ويصاب بالهلع والجزع، ولا غرابة فى هذا، فالمصاب مصابه، والكارثة كارثته.

ومثل هذا الشعر يترك المجال فسيحاً لإظهار ذاتية الشاعر، ولعل من أبرز خصائصه أنه يتميز بصدق العاطفة، وحرارة الانفعال.

وماذا ننتظر من شاعر فقد أمه أو أباه أو زوجته أو ابنا من أبنائه غير أن يصرخ وينتحب، ويصاب بالذهول، ويعاتب الدهر، ويلعن الأقدار الظالمة، وينظم شعراً حزيناً بعكس مشاعره الحزينة انعكاساً صادقاً؟

ونلتقى فى الشعر الصقلى بأمثلة كثيرة لهذا الرثاء. من ذلك قصيدة للبلنوبى يرثى بها أمه، وفيها يقول[1]

يا أكرم الأمهات الطاهرات لقد	أودعت قلبى غليلا دون النار
بينى وبينك بعد المشرقين على	قرب المزار، وما شطت بك الدار
من كان يخبرنى والدار جامعة	أن الأحبة بعد العين آثار

ويمضى البلنوبى فى رثائه، فينحى باللائمة على هذا الدهر الغادر الذى اختطف والدته، وتركه وحيدا منهكا لا يستطيع أن يفعل شيئا، يقول[2]:

يا دهر أعظم شىء هدنى أسفا	طعينة لك لم يدرك لها ثار
لو كنت يا دهر من يلقى مبارزة	أو كان يدفع بالمقدار مقدار
ثناك جيش يثير النقع مشتمل	لكنه لقنا الخطى خطار

ولكن البلنوبى لا يستطيع أن يمضى فى تفجعه وبكائه دون أن يستحضر العبرة، فإن المرء يلقى الموت مضطرا دون أن يملك له دفعاً ولا رداً، وإذا أراد المرء أن يستحضر عبرة الموت فما عليه إلا أن ينظر إلى نفسه وإلى أخيه ليرى العبرة والموعظة ماثلتين أمام عينيه، يقول[3]:

---

(١) ديوان البلنوبى ورقة ٦ - ٧.

(٢) نفسه ورق ٧.

(٣) ديوان البلنوبى ورق ٧.

يلقى الفتى وهو مضطر عصائبه	كأنما هو للتسليم مختار
وكم لنا فى خلال العيش من قدم	نسر أن تنقضى وهى أعمار
للمرء فى المرء تنبيه وموعظة	لو كان ينفع إعذار وإنذار

ولا يضاهى فقد الأم لوعة إلا فقد الأخ، فإن المرء حين يفقد أخاه فإنما يفقد ساعده الأيمن، وذراعه القوية، ويشعر أن جناحه قد هيض، وأنه قد فقد لذة العيش. ويعبر محمد بن الحسين القرنى عن مثل هذه المعانى فى قصيدة يرثى بها أخاه، وفيها يقول[1]:

أبا حفص فقدت الصبر لما	رأيتك تحت أطباق الصفاح
وكنت يدى وسيفى عند بطشى	ورمحى عند مشتجر الرماح
ولست وإن لحانى فى بكائى	عليك بسامع ما قال لاحى
ولا أرجو صفاء من زمان	يغص المرء بالماء القراح
وكيف وقد فقدت لذيذ عيش	لفقد أخى وهيض له جناحى

أما ابن حمديس فقد كانت حياته سلسلة متصلة من المآسى والأحزان، فقد قدر عليه أن يفقد وطنه، وأن يصاب فى أهله وأقاربه، فكان يأتيه نعى النعاة وهو فى دار الغربة، مما أذكى الأسى فى نفسه، فبكاهم بكاء حارا، ورثاهم رثاء حزيناً صادقاً ينم عن إحساسه بألم الفراق، وقوة الفجيعة. يقول ابن حمديس فى رثاء جدته[2]:

فياليتنى شاهدت نعشك إذ مشى	حواليه: لا أهلى حفاة ولا صحبى
ودفنك بالأيدى الغريبة والتقت	مع الموت فى إخفاء شخصك فى حدب
فأبسط خدى فوق لحدك رحمة	وتسقى عليه الترب عيناى بالهدب

وبينما كان ابن حمديس يتنسم أخبار أهله وأحبابه وهو فى دار الغربة، إذا بالنعاة يحملون إليه خبر وفاة ابنته. وكانت هذه الإبنة قد ظنت قبل موتها أن أباها قد مات فعاشت حزينة ثكلى حتى ماتت. وقد فزع ابن حمديس للنبأ،

---

(١) المحمدون من الشعراء ص٢٥٨ - ٢٥٩.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٦ - ٣٧.

وزاد فى حزنه إحساسه بأنه غريب، وامتزجت هذه المشاعر كلها فى نفسه فرثاها بقصيدة باكية حزينة قال فيها[1]:

أرانى غريباً قد بكيت غريبة	كلانا مشوق للمواطن والأهل
بكتنى وظنت أننى مت قبلها	فعشت وماتت- وهى محزونة-قبلى

ويشيد ابن حمديس بمناقب ابنته وما كانت تتحلى به من صفات كريمة ويصف حال أبنائه الصغار الذين كانت ترعاهم بعد أن فقدوا أمهم فيقول[2]:

أساكنة القبر الذى ضم قطره	على البر منها والديانة والفضل
أصابك حزن من مصابى قاتل	فهل أجل لاقاك قد كان من أجلى
وخلفت فى حجر الكآبة للبكا	بنات لأم فى مفارقة الشمل
يرين كأفراخ الحمامة صادها	أبو ملحم[3] فى وكره كأبى الشبل
بكتك قوافى الشعر من غزر أدمع	بكاء الحمام الورق فى قضب الأثل
وكل مهاة حول قبرك بالفلا	لما بين عينيها وعينيك من شكل
فروى ضريحا من كفاح عن الثرى	له وابل بالخصب ماخط بالمحل

ونلتقى بلون ذاتى آخر من الرثاء، وهو رثاء الزوجات. ويعتمد على ميل أصيل فى نفس الشاعر إلى البوح كأنه ترجمة ذاتية قصيرة[4]. ومن أمثلته قول ابن حمديس يرثى زوجته على لسان ابنه[5]:

أمتا هل سمعتنى من قريب	حيث لى فى النياح صرخة قرم
كنت أخشى عليك ما أنت فيه	لوتخيلت فى مصابك همى
كم خيال يبيت يمسح عطفى	لك يا أمتا ويهتف باسمى
وبنات عليك منتحبات	بخدود مخدرات بلطم

---

(١) نفسه ص٣٦٦.

(٢) نفسه ص٣٦٦ - ٣٦٧.

(٣) أبو ملحم : النسر.

(٤) الأدب الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين ص١٢٣.

(٥) ديوان ابن حمديس ص٤٧٩.

بتن يمسحن منك وجهاً كريماً	بوجوه من المصيبة قتم
وينادين بالتفجع أما	يا فداء لها إجابة غتم[1]

ولكن هذه الصورة الحزينة التي يرسمها ابن حمديس لزوجته لا نراها فى رثائه لجاريته "جوهرة" التى غرقت فى البحر، فرثاها، ولكنه لم يهتم بالبكاء عليها بقدر اهتمامه بندب محاسنها، والتغزل فى جمالها، ونستطيع أن نلمس ذلك فى قوله يرثيها[2]:

أى الثلاثة أبكى فقده بدم	عميم خلقك أم مغناك أم صغرك؟
من أين يقبح أن أفنى عليك أسى	والحسن فى كل فن يقتفى أثرك
كنت الشبيبة إذ ولت ولا عوض	منها ولو ربح الدنيا الذى خسرك
ما كنت عنك مطيلا بالهوى سفرى	وقد أطلت لحينى فى البلى سفرك
هل واصلى منك إلا طيف ميتة	تهدى لعينى من ذاك السكون حرك
أعانق القبر شوقا وهو مشتمل	عليك لو كنت فيه عالما خبرك
وودت يا نور عينى لو وقى بصرى	جنادلا وتراباً لاصقاً بشرك

ويمضى ابن حمديس فى رثائه لجوهره فيفيض فى وصف محاسنها ويتغنى بتفتير مقلتيها، وملاحة وجهها، ويسترجع ذكرياته معها، ويتحسر على "دولة الوصل" التى ولت عن بصره وأصبح يقرأ سمرها فى صحف الأسى، ويتوجه بحديثه إلى "جسدها" الذى أصبح خالياً من الروح الذى كان يعمره، ويخاطب وجهها الذى حجب عن بصره ويظل يعزف على هذا الوتر حتى ليخيل إلى القارىء أنه قد تحول عن الرثاء إلى الغزل، وإلى وصف شوقه وغرامه بدلاً من وصف أحزانه وآلامه.

ونلتقى فى الشعر الصقلى بلون آخر من الرثاء، وهو رثاء الأصدقاء، ولا شك فى أن الصداقة عاطفة سامية نبيلة تربط قلوب البشر بروابط المحبة والوفاء والتضحية، وقد يجد المرء فى صديقه من المعانى النبيلة ما قد لا يجده فى

---

(1) الغتم: الذين فى منطقهم عجمة، أى فداؤها هؤلاء.

(2) ديوان ابن حمديس ص ٢١٢ - ٢١٣.

أقرب المقربين إليه أو من تربطه بهم صلة الرحم ووشائج النسب والقرابة، فالصديق هو الذى يقف إلى جانب صديقه فى وقت الشدة، ويشاركه أفراحه وأتراحه وقد يضحى بحياته من أجله. ومن هنا يصبح فقد الصديق مصاباً كبيراً وخطباً جللاً يقول الفقيه عيسى بن عبدالمنعم من قصيدة طويلة فى رثاء أحد أصدقائه[1]:

جل المصاب وجل الخطب أوله	فالحزن آخر ما آتى وأوله
وكل وجد وإن جلت مواقعه	فقد الأخلاء إن فكرت أثكله
أبا على بن عبد الله إن بنا	عليك وجداً غداً أدناه أقتله
هل فى السرور وقد أوديت من طمع	لصاحب أو عديم كنت تكفله
كم صاحب نال ما يبغى بجاهكم	عفواً وكم بسرور كنت تشمله
قد كان سعيك فى محياك أحمده	وذكرك اليوم بعد الموت أحمله

ويمكن أن نلحق بشعر الرثاء ما وجد على شواهد القبور فى صقلية من أشعار. وقد عثر على بعضها المستشرق (جويدى) وأثبتها فى محاضراته[2]. ولم نقرأ فى مصادر الأدب أية إشارات إليهما. ومن أمثلتها هذه الأبيات التى كتبت على شاهد قبر رجل اسمه "يسين بن على" وهى على لسان الشاهد يخاطب الميت[3]:

بعدت فما فى العيش بعدك طيب	وغبت عن الدنيا فلست تؤوب
مقيم إلى أن يبعث الله خلقه	لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
ووجهك يبلى كل يوم وليلة	وودك لا ينسى وأنت حبيب
عليك سلام الله مادر شارق	وما اهتز فى دوح الأراك قضيب

وأبيات أخرى على شاهد قبر آخر فى (بلرم) لامرأة اسمها "ميمون بنت حسان" وهى[4]:

---

(١) الخريدة ٣٠/١/٤ وما بعدها.

(٢) أنظر محاضرات جويدى ط. مجلة الجامعة المصرية ص٣٦.

(٣) محاضرات جويدى ص٣٦.

(٤) نفسه ص٣٦.

أنظر بعينيك هل في الأرض من باق	أو دافع الموت أو للموت من واق؟
الموت أخرجني قسرا فيا أسفا	لم ينجني منه أبوابي وأغلاقي
وصرت رهنا بما قدمت من عمل	محصي علي وما خلفته باق
يا من رأى القبر إني قد بليت به	والترب غير أجفاني وآماقي
في مضجعي ومقامي في البلى عبر	وفي النشور إذا ما جئت خلاقي

وقد فرضت الظروف على بعض الشعراء أن ينظموا بعض المراثي في الإفرنج ولكننا نلاحظ أن حظها من الانفعال الذاتي ضئيل. وأنها تخلو من الصدق، لفقدان التعاطف المشترك بين الشاعر وبين المرثي. ومن أمثلتها قصيدة للشاعر أبي الضوء يرثي بها ولدا لروجار حاكم صقلية وفيها يقول[1]:

خبا القمر الأسنى فأظلمت الدنا	وماد من العلياء والمجد أركان
أحين استوى في حسنه وجلاله	وتاهت به أطوار عز وأوطان
تخطفه ريب المنون مخاتلا	على غرة، إن المنون لخوان
كذلك أعراض البدور يعوقها	إذا كملت من حادث الدهر نقصان

ويمضي أبو الضوء في قصيدته فيحشد ألفاظا تتصل بمعنى الحزن ولا تنطوي عليه، ويحشد المبالغات حشدا لأن المضطرب الذي يهوى فيه محدود وربما لم يساعده كثيرا في الرثاء أنه ليس من الشعراء الذين يجيدون العزاء في مظاهر كونية حتى يلجأ إلى الحكمة والتفلسف في أمر الموت، فهو ضيق الباع، قصير الرشاء من ناحيتين: ناحية المعاني التي لابد أن يتجاوزها في مثل موقفه، والضعف في هذه الناحية يجيء من ضعف الشعور الديني المتبادل أما الناحية الأخرى فهي ضعف مذهبه الشعري[2].

ولم يقتصر الشعراء في رثائهم على مثل هذه الأمور الحسية، ولكنهم اتجهوا به وجهات أخرى، فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية، فنجد منهم من يرثي شبابه في قصيدة كاملة يقصرها على هذا

---

(1) الخريدة ٣٥١/١/٤.

(2) العرب في صقلية ص٢٨٢ – ٢٨٣.

الغرض، ولا شك أن هذا أثر من آثار الحضارة المدنية في تلك البيئة الجديدة.

فمن ذلك قصيدة لمحمد بن زيد اللخمي يرثي بها شبابه فيقول[1]:

بنفسي شباب بان غير مذمم	ووكل قلبي بالأسى وعذابه
فياليت إذ ولى تولى بحرمة	وأبرأني من موبقات اختضابه
ولكنه أبقاني الدهر بعده	بعفو إلهي أو لمس عقابه
عدمت الأماني فاجتزيت بدونها	ومن عدم الماء اجتزى بترابه

ويرثي ابن حمديس شبابه فيقول[2]:

كنت المحب كرامة لشبيبتي	حتى إذا وخط المشيب قليت
من أستعين به على فرط الأسى	فأنا الذي بجنايتي عوديت
كنت امرأ لم ألق فيه رزية	حتى سلبت شبيبتي فرزيت
تهدي لي المرآة سخط جنايتي	فالله يعلم كيف عنه رضيت
وإذا المشيب بدا به كافوره	كفرت به فكأنه الطاغوت

وعلى هذا النحو سار الشعراء الصقليون في رثائهم، منوعين في موضوعاته مكثرين من التفجيع والتحسر على موتاهم، محتفظين لقصيدة الرثاء بمنهجها وشكلها التقليدي.

أغراض أخرى:

وإذا كانت البيئة الصقلية قد ساعدت على توسيع نطاق بعض الأغراض الشعرية كالغزل والمدح والرثاء، فقد أدت من ناحية ثانية إلى تقلص بعض الأغراض الأخرى مثل شعر الحكمة والفخر والهجاء.

أما شعر الحكمة فلم يزدهر لأن الشعراء الصقليين مالوا بطبيعتهم إلى السهولة والبساطة في التفكير، ولم ينصرفوا إلى حياة التأمل.

وربما كان من أسباب ذلك أيضاً أن الفلسفة لم تزدهر في صقلية ولم تلق اهتماماً كبيراً من قبل الصقليين، ولا يعني هذا أن الشعر الصقلي يخلو تماما

---

(1) الخريدة ١٤٠/١/٤.

(2) ديوانه - ص٧٣.

من شعر الحكمة أو الشعر الفلسفي، فقد نجد بعض الأمثلة المتناثرة هنا وهناك ولكنها قليلة، لا تستقل بذاتها، وإنما تأتي ضمن بعض أغراض الشعر كالمدح والرثاء، وأكثرها لا يتجاوز التجارب السطحية العابرة، ويغلب عليها طابع النصائح والمواعظ.

وكذلك شعر الهجاء، فلم تقم له سوق رائجة في صقلية، وكان حظه مثل حظ شعر الحكمة، فقد انصرف عنه الشعراء بقصد الترفع عن الدنايا وسفاسف الأمور، ولأن بيئتهم الحضرية لم تستسغ مثل هذا اللون من الشعر وتكاد هذه النزعة تطرد عند أكثر الشعراء، فابن حمديس يقول[1]:

إنـــي امـــرؤ لا تـــرى لـــساني	مـــنظما، ماحيـــيت، هجــــوا

ويقول ابن الطوبي[2]:

إذا ســـــبك إنـــــسان	فدعــــه يكفـــك الـــرب
ولا تنــــبح علـــى كلـــب	إذا مـــا نـــبح الكلـــب

ويقول الفقيه أبو حفص عمر بن مازوز اللواتي[3]:

إذا ســبني وغــد تــزيدت رفعــة	ومــا العــار إلا أن تراني أســابه
ولــو لم تكــن نفسي علـى كـريمة	لأمكنــتها مــن كــل وغــد تجاوبــه

أما الفخر فلم يختف تماما من الشعر الصقلي، لأن الأجناس المختلفة لم تنصهر بحيث تنسى عصبياتها القبلية، ولذلك فقد مثل الشعر هذه الروح في بعض جوانبه، وإن لم تكن الخصومات بين القبائل عنيفة مثلما كانت بالأندلس[4]:

---

(1) ديوان ابن حمديس ص٥٢٠.
(2) الخريدة ٧٣/١/٤.
(3) عنوان الأريب ١٣٢/١.
(4) العرب في صقلية ص١٧٧.

وليس فى الشعر الصقلى فخر بالأجناس عامة، ليس فيه شعر يمجد العرب أو البربر وإنما فيه اعتزاز بالقبيلة، فالكلبى يفتخر بكلبيته، والقيسى بأن قومه غلبوا قيصر وفتكوا بحمير[1] كما يبدو فى قول ابن الصباغ[2]:

قومى الذين إذا السنابك أنشأت	دون السحاب سحائبا من عثير[3]
برقت صوارمهم وأمطرت الطلى	علقا كشريان الحيا المتفجر[4]
الواترين فلا يقاد وتيرهم	والفاتكين بحمير وبقيصر
والمانعين حماهم أن يرتعى	والحاسمين لكل داء يعترى

ويفتخر ابن القطاع بقومه الأغالبة الذين ينسب إليهم فيقول[5]:

نحن بنو الأغلب سدنا الورى	طرا ببذل النائل الغمر
والضرب بالبيض رءوس العدى	والطعن فى اللبات بالسمر
إن فخر الناس علوناهم	بالبذل والإقدام والصبر
والحسب السامى الذى تاجه	فى هامه الإكليل والغفر
والبيت من سعد ومن خندف	أكرم بذاك البيت والنجر

وهكذا لم تستطع الظروف الإقليمية أن تخرس صوت الفخر فى شعرهم تماما، وأن تكبت فيهم روح الحماسة، وتقضى على حدة البداوة فى نفوسهم، بل ظلت العصبية والنعرات البدائية تطفو على الشعر الصقلى من حين إلى آخر.

---

(١) نفسه ١٧٦.

(٢) الخريدة ٤/١/٩٠.

(٣) العثير: الغبار الذى تثيره حوافر الخيل.

(٤) الطلى "بضم الطاء": الأعناق – العلق: الدم الغليظ.

(٥) عنوان الأريب ١/١٢٦ – ١٢٧.



السمات الفنية للشعر الصقلى

- اللغة والأسلوب
- الصور الفنية
- الموسيقى والأوزان

السمات الفنية

بعد أن استعرضنا فنون الشعر الصقلى وموضوعاته، يجدر بنا أن نلقى الضوء على بعض السمات الفنية التى تميز هذا الشعر، وأن نقف على خصائص لغته وأسلوبه، وملامح صوره الفنية، وما يمكن أن يكون قد طرأ على أوزانه وموسيقاه من تطور. وقد رزق الشعر الصقلى من هذه السمات شيئاً كثيراً، منها ما يتفق مع الخصائص العامة للشعر العربى، ومنها ما يستلهم فيه روح العصر وأجواء البيئة الصقلية المتحضرة.

اللغة والأسلوب :

تطور أسلوب حياة الشعراء الصقليين، وتطورت بهم الحياة الاجتماعية، وعاشوا فى بيئة أعجمية يختلط فيها رنين أجراس الكنائس بأصوات المآذن والمؤذنين، ويسمع فيها خليط عجيب من اللغات واللهجات، فكان طبيعيا أن تتأثر لغتهم بهذه البيئة المتحضرة، وأن تواكب هذا المجتمع الجديد.

وكان أول ما طرأ على هذه اللغة أنها تخلصت من الغموض والتعقيد، وتغير إحساس الشعراء بالألفاظ بتطور ذوق العصر، وتخلصوا ما أمكن من الوقوع تحت تأثير المعجم اللغوى القديم، وأخذوا يعبرون عما فى نفوسهم بلغة بسيطة سهلة لا توعر فيها ولا إغراب. ولعل هذا التطور اللغوى لم يقتصر على صقلية وحدها، وإنما كان امتدادا للتطور اللغوى الذى كان يشمل البيئات العربية فى تلك الفترة التى نضطلع بدراستها. وفى هذا يقول يوهان فك[1]:

"لقد تراجع فى ذلك العهد الطابع الوحشى للغة العربية القديمة بثروتها الفياضة فى الألفاظ والقوالب أمام أسلوب منمق مهذب لا يسبب استواؤه

(1) العربية تأليف يوهان فك ترجمة عبدالحليم النجار ص٥٨.

وسهولته صعوبات ذات بال للأفهام . وهذه اللغة المنسكبة الواضحة سرعان ما احتذيت واستعملت فى الأدب من قبل المثقفين جميعا فى العالم الإسلامى دون تمييز بين أصل وجنس، ولا بين لغة أصلية ولهجة وطنية خاصة".

وكثيراً ما يلتقى القارىء بشواهد كثيرة فى الشعر الصقلى تدل على تأثير الحضارة فى لغته وألفاظه، فنرى الشعراء يستعملون عبارات مثل (يا زهرة الدنيا، ويا شقيق الفؤاد ويا ملك العصر، ويا سيدى .. إلخ) فمن ذلك قول أبى الفضل مشرف بن راشد[1]:

يا شقيق الفؤاد حكمك جور ... لك منى حب ولى منك بغض

ويقول أبو الفتح بن القرقورى[2]:

فيا زهرة الدنيا التى ليس تجتنى ... من الصون إلا بالعيون وتقطف

ونسمع ابن حمديس يخاطب ممدوحه فيقول[3]:

فيا ابن تميم والعلى مستجيبة ... لكل امرىء ناداك يا ملك العصر

ويستعمل أبو الفضل جعفر بن البرون لفظة (سيدى) فى المخاطبة فيقول[4]:

إنى أبثك سيدى ... ما ليس يحمله بشر

وعلى نحو ما أثرت الحضارة فى ألفاظ الشعر، فقد أثرت فى أسلوبه أيضاً، فمال إلى السهولة والرقة حتى أصبحت هاتان السمتان من ألصق خصائص هذا الشعر، ونستطيع أن نتلمس هذه الظاهرة فى كثير من قصائد الشعراء الصقليين، فلا تكاد تخلو منها قصيدة أو مقطوعة شعرية ومن أمثلتها قول ابن حمديس[5]:

---

(١) الخريدة ١٠٣/١/٤.

(٢) الخريدة ١٠٨/١/٤.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٢١٧.

(٤) الخريدة ١٧/١/٤.

(٥) ديوان ابن حمديس ص٢٥٩.

يـا هـذه لا تـسألي عـن عبرتـي عينـي علـى عينـي علـيك تغـار
ما كنت أحسب غصن بان في نقا تـشكو ألـيم القطـف مـنه ثمـار

ويقول أيضاً[1]:

ســـألتها أن تعــيد لفظـــاً قالـــت أصـــم دعـــوه يعـــذر
حديـــثها ســـكر شـــهي وأطــيب الـــسكر المكـــرر

ونلحظ هذه الرقة في مثل قول البلنوبي[2]:

ولقــد وجـــدت الـصبر بعــدكم صــعبا، وكـــنت أظـــنه ســـهلا
لا مـــرحبا بالـــبين مـــن أجـــل تـــنأى الحـــياة بـــنا ولا أهـــلا
قـــد كـــان لي ملكـــا دنـــوكم فـــالآن أصـــبح بعـــدكم عـــزلا

وتأثرت لغة الشعر بالطبيعة الصقلية تأثرا واضحاً يبدو في عكوف الشعراء على معجم ألفاظ الطبيعة يستمدون منه ويسترفدون، ولذلك فمن الطبيعي أن تجد أشعارهم على اختلاف موضوعاتها زاخرة بالألفاظ المستمدة من الطبيعة. ويكفي أن يطالع القارىء ديوان ابن حمديس لكي يلحظ هذه الظاهرة بوضوح.

وتميزت لغة الشعر الصقلي أيضاً بالميل إلى البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة، وكان مما ساعد على ذلك كثرة الطبقات الشعبية في المجتمع الصقلي، وإقبال سكان الجزيرة الأصليين على الإسلام، والتحدث باللغة العربية.

ونستطيع أن نلمس مثل هذه البساطة والشعبية في قول البلنوبي[3]:

يـــا ذا الـــذي كـــل يـــوم يــــزيد عقلــــي خـــبالا
دلهتنـــي بـــك حتــــى رأيـــت رشـــدي ضـــلالا
أدعـــو علـــيك وقلبـــي يقـــول : يـــارب لا لا !!

---

(1) المصدر نفسه ص٥٥٢.
(2) الخريدة ١٤/١/٤.
(3) الخريدة ١٣/١/٤.

ونلمسها فى مثل قوله[1]:

كتبت فلم تجبنى عن كتابى ... ولم يعد الرسول على حرفا
فآها ثم آها ثم آها ... وأفا ثم أفا ثم أفا

وقوله فى ذم مغن[2]:

غنى كمن قد صاح فى خابية ... لا وهب الله له العافية

وقد يستخدم الشعراء بعض الأمثال الشعبية بهدف الاقتراب من العامة كما فى مثل قول ابن حمديس[3]:

سلم الأمر منك لله واعلم ... أن ما قد قضى به سيكون

ومن سمات لغة الشعر خروج بعض الشعراء على قواعد اللغة ولذلك تكثر الأخطاء اللغوية فى قصائد بعض الشعراء وقد لحظ العماد الأصفهانى هذه الظاهرة فقال عن شاعر يسمى (الغاون الصقلى): "وقد وجدت فى شعره لحنا كثيرا"[4] فمن أمثلة هذه الأخطاء قول عيسى بن عبدالمنعم الصقلى[5]:

عذراء ينهب درعها من خدها ... وخمارها من ذى ذوائب أسحم
وعقودها من نهدها فى شكلها ... وحلاؤها من لونى المتسهم[6]

وقوله[7]:

صفراء تدلع بالبياض لباسها ... وخمارها بمعصفرات الأخمر[8]

وقد يلجأ الشعراء إلى بعض الضرورات الشعرية من مثل قول ابن حمديس[9]:

---

(1) المصدر نفسه ص٧٢.

(2) نفسه ص٦٩.

(3) ديوان ابن حمديس ص٥١٦.

(4) الخريدة ٢٨/١/٤.

(5) المصدر نفسه ص٢٩.

(6) لم نجد فى معجمات اللغة تسهم بمعنى سهم أى تغير لونه – أنظر هامش الخريدة ص٢٩.

(7) الخريدة ٣٠/١/٤.

(8) الخمرة: الورس، والخمار: ما تغطى به المرأة رأسها، وكلاهما لا يجمع على أخمر.

(9) ديوان ابن حمديس ص٢١٨.

وإن كنت عن مجرى السوابق غائباً   فحاضر سبقى فيه مع قرح الخطر[1]

وتميزت لغة الشعر أيضاً باستعمال بعض الألفاظ الأجنبية، وكان من المتوقع أن نرى في هذا الشعر بعض الألفاظ اللاتينية أو الإيطالية أو اليونانية التي كان يمكن أن تتسرب إليه نتيجة اختلاط الشعراء بالأجناس المختلفة التي تستعمل هذه اللغات، ولكنني لم أعثر على شيء منها، ولم أجد سوى بعض الألفاظ الفارسية التي تسربت إليه من المشرق من مثل قول ابن الطوبى[2]:

أتيت إليه في قيظ شديد   فحياني محياه بثلج
فقلت عدمت عندك بادهنج   ولكن وجه هذا بادهنج[3]

ويقول ابو الفضل جعفر بن البرون[4]:

أبصرته في يلمق[5]   كالغصن أثمر بالعمر

ومن الظواهر البارزة أيضاً اقتراب أسلوب الشعر من النثر في قصائد كثيرة حتى ليخيل إلينا في كثير من الأحيان أنه لم يعد متميزاً عنه إلا بالوزن والقافية. ولدينا أمثلة كثيرة تنهض لتؤكد ذلك، منها قول أحد الشعراء[6]:

ليس في الدنيا سرور   إنما الدنيا غموم
وإذا كان سرور   فقليل لا يدوم
تركها أفضل منها   ذا بهذا لا يقوم

ونلمس هذه الظاهرة أيضاً في مثل قول ابن الطوبى في استدعاء صديق[1]:

---

(١) الخطر: السبق أو الشيء يتراهن عليه وهو مفتوح العين وإنما سكنه للشعر.

(٢) الخريدة ٦٤/١/٤.

(٣) بادهنج: كلمة فارسية معناها المنفذ الذي يجيء منه الريح وسماه بعضهم راووق النسيم وفيه يقول ابو الحسن الأنصاري:

ونفحة بادهنج أسكرتنا   وجدت لبوحها برد النعيم
صفا جرى الهواء به رقيقا   فسميناه راووق النسيم

(٤) الخريدة ١٨/١/٤.

(٥) اليلمق: القباء فارسي معرب.

(٦) الخريدة ٩٦/١/٤.

عـــندى الـــذى تتمنـــى	عـــندى الـــذى تـــشتهيه
ومـــا يـــتم ســـرور	إلا إذا كـــنت فـــيه

وأسلوب الأبيات يقترب، كما نرى، من أسلوب النثر إلى حد كبير بل إنه قد يزيد عنه بما فيه من ضعف وركاكة ولاسيما فى المثال الأول.

وثمة أسباب كثيرة أدت إلى هذه الظاهرة، منها أن أكثر الشعراء كانوا إما علماء أو كتابا، ولذلك فإنهم كانوا أكثر اعتيادا على أسلوب النثر، ومنها كثرة الرسائل الشعرية فى هذا الشعر، وعندما تكون القصيدة رسالة شعرية فإنها تتأثر بلا شك بالروح النثرية. وربما كان لديوان الإنشاء دور كبير فى هذه الناحية إذ كان يضم جمعا كبيرا من الشعراء يمارسون الكتابة فيه، فكان من الطبيعى أن تتأثر أشعارهم بلغته وهى النثر.

ومن أبرز ظواهر الأسلوب فى الشعر الصقلى ميل بعض الشعراء إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وفى ذلك ما يدل على تغلغل الثقافة الدينية. ومن أمثلة الاقتباس من القرآن قول ابن حمديس[2]:

وتال من القرآن "قل لن يصيبنا"	وقدحان من زهر النجوم غروبها

ويقتبس مجبر بن عبدالعزيز من القرآن أيضاً على نحو ما يبدو فى قوله[3]:

كـــم بـــات لله عـــندى	مـــن نعمـــة لـــيس تحـــصى
ولـــست دون الـــبرايا	بفـــضله مستخـــصا
لكـــن شـــكرت نـــصيبى	أرجـــو الـــزيادة حرصـــا
"فليـــشكروه يـــزدهم"	فقـــد أتـــى ذاك نـــصا[4]

(١) المصدر نفسه ص٧٢.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٣.

(٣) معجم السلفى (مخطوط) ورقة ٣٩٠.

(٤) إشارة إلى سورة إبراهيم - آية ٧.

ويبدو تأثر ابن الخياط بالقرآن واضحا فى مثل قوله[1]:

وإن أولى نـــبات أن تثمـــره ... صـنيعة أنـت مـولاها ومولـيها
فـربها إنهـا سـبع سـنابلها ... فـى حبة بـارك الـرحمن لى فـيها

ويقتـبس ابن حمديس قول الرسول عليه السلام "كل نفس عارية، وكل عارية مؤداة" فيقول[2]:

وإن تـردت مـن قبلـنا أمـم ... فهـى نفـوس ردت عـواريها

ويقتبس قوله عليه السلام "الحرب خدعة" فيقول[3]:

نوى خدعة فى الحرب"والحرب خدعة" ... فادبـر مهـزوما وقـد كـان حازمـا

وتأثـر أسـلوب الـشعراء بأنـواع الـثقافات التـى كانـت شائعة فى ذلك الوقت، فكثرت فيه المصطلحات الفقهية مثل (الندب والفرض، والحل والعقد، والنقض والإبرام).

كما نجـد فـيه بعض الإشارات التاريخية التى تدل على ثقافة الشعراء التاريخـية فنـسمعهم يرددون اسماء الأفشين، وبابك الخرمى ونوح عليه السلام ووالده لمك أو "لامك" على نحو ما يتمثل فى قول مشرف بن راشد فى المدح[4]:

يـشيد أعاديـه الحـصون منـيفة ... وهل منع الأفشين ما شاد بابك[5]

ويقول ابن الطوبى[6]:

فاسمـع بعينـيك عـنها مـثلما سمعـت ... أذناك من قبل عن نوح وعن لمك[7]

---

(١) المختار من شعر بشار ص١١٦.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٥١٧.

(٣) المصدر نفسه ص٤٢٧.

(٤) الخريدة ١٠١/١/٤.

(٥) بابك الخرمى: إدعى الألوهية وقام بثورة عارمة فى شمال فارس قضى عليها الإفشين قائد المعتصم سنة ٢٢١هـ

(٦) الخريدة ٨٣/١/٤.

(٧) لمك ولامك اسم والد نوح عليه السلام.

وتأثر أسلوب الشعراء بالثقافة اللغوية، فكثر ترديد مصطلحات اللغة والنحو كما في قول ابن حمديس[1]:

فيارفع أشواقي لقلبي وخفضها   متى كان للأشواق فعل العوامل؟!

وقوله[2]:

قصرتك كالممدود قصر ضرورة   وعدتك عن مد الحياة عواد

وقول ابن الطوبي[3]:

أما ترى عارضيه فوقهما   لام ابتداء ولام توكيد؟!

ولم يحتف الشعراء في أساليبهم بالصنعة اللفظية والبديعية، ولم يلهثوا وراء الاستعارات والكنايات على نحو ما فعل أضرابهم في بعض البيئات الأدبية الأخرى وما كان يقع لهم من المحسنات كان أكثره جميلا مقبولاً لا نحس فيه بتكلف أو تصنع أو جهاد خاطر.

وقد يكون الطباق أكثر أنواع البديع شيوعا في الشعر الصقلي، ومن أمثلته قول أبي العباس بن محمد اللخمي[4]:

فإن تقطعوا حبلي فإني واصل   وإن تنقضوا عهدي فإني مبرم

ويطابق ابن حمديس بين الظلام والضياء فيقول[5]:

ليت شعري هل ارتدى بظلام   لا يراني الضياء فيه مروع

ويطابق ابن الطوبي ثلاثة فيقول[6]:

يقرب قوله لك كل شيء   وتطلبه فتبصره بعيدا

فما يرجو الصديق الوعد منه   ولا يخشى العدو له وعيدا

(١) ديوان بن حمديس ص٣٩٤.

(٢) المصدر نفسه – ص١٢٣.

(٣) الخريدة ٨٥/١/٤.

(٤) مختصر الكتاب المنتخل عن الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠٦.

(٥) ديوان ابن حمديس ص٣٠٤.

(٦) الخريدة ٧٣/١/٤.

وقد يلجأ الشعراء إلى المقابلة على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس فى المدح[1]:

قريب إذا ساماه ذو رفعة نأى		بعيد إذا ناداه مستنصر لبى

واستخدم الشعراء الجناس، أيضاً، وكان البلنوبى أكثرهم احتفاء به من مثل قوله[2]:

نهاك أهلك عنى		من أجل أهلك أهلك

ويتلاعب تلاعبا لفظيا لطيفا حين يجانس جناسا تاما بين لفظتى "صولجان" وصول جان" فى قوله[3]:

أقول ولاح لى خد وصدغ		لمن تفاحة مع صولجان
بودى لو لثمتهما جميعا		ولكنى أحاذر صول جان

ويقول ابن حمديس مجانسا بين لفظتى "البر" و"البر"[4].

إذا أطعت حبا من البر أطعمت		وقامت بأمر البر فهو كما يجب

ويكثر أحد الشعراء من الجناس فى مقطوعة يقول فيها[5]:

يا معتبا لو شاء ما أعتبا		يعذب عندى كلما عذبا
لا تكرن الموت من لحظه		ما بين أجفان الظباء الظبا
كأنه من طيب أنفاسه		نشر الصبا يهدى إلى الصبا

ومن أنماط البديع الأخرى التى استعملها الشعراء "التورية". وتشيع هذه الخاصية فى شعر ابن حمديس بدرجة ملحوظة، وتبدو فى مثل قوله[6]:

وجدى "غريب" ما أرى "شرحه"		يوجد فى "العين" ولا فى "الصحاح"

ويقول موريا أيضاً[1]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٢.
(٢) الخريدة ١٢/١/٤.
(٣) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠٧.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٢٥.
(٥) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠٩.
(٦) ديوان ابن حمديس ص٩٩.

"عمى" هواه عن الوشاة مكتما فجرت مدامعه بشرح "غريبه"

وفيما عدا هذه الألوان البديعية التى ذكرناها يندر أن نجد ألوانا أخرى غيرها مما يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من أن البديع لم يطغ على الشعر الصقلى، ولم يكبله بقيوده وأصفاده.

الصور الفنية :

استطاعت صقلية بما ركب الله فى طبيعتها من فنون السحر والجمال أن تثير ملكات الشعراء، وتزودهم بالأخيلة الرائعة، ولذلك فإن كثيرا من صورهم الفنية غنية بعناصر التخييل، متميزة بقدر كبير من الطرافة والابتكار من مثل هذه الصورة التى يرسمها ابن حمديس فى أبيات يصف فيها بعض العاديات التى تؤرقه وتقض مضجعه، وتنقض على جسده ليلا فتؤله وتمص دماءه وتحرمه لذة النوم. وتبلغ به الطرافة حدا بعيدا عندما يتخيل هذه العاديات أشبه بجوقة غنائية أو فرقة موسيقية نرى فيها البعوض يغنى بربابة والبق منهمكا فى الشراب، والبراغيث ترقص طربا وفرحا. يقول[2]:

نومى على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تداءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمى خمرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا بربابة والبق تشرب والبراغث ترقص

ويرسم لنا شاعر آخر مثل هذه الصورة الفكهة فى قصيدة مجونية فيقول[3]:

تجذب خصرا مخطفا بكفل مرجرج
كمثل زق ناقص على حمار أعرج

---

(١) المصدر نفسه ص١٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٢٨٩.
(٣) الخريدة ٣٣/١/٤.

وتعتمد الصورة الفنية فى الشعر الصقلى على عنصر التشبيه بالذات اعتمادا كبيرا، وقد أكثر الشعراء منه، فنراهم يستخدمون التشبيهات المفردة والمتعددة، وينتقلون من تشبيه المحسوس بالمعقول إلى العكس، فمن أمثلة تشبيهاتهم المفردة قول أبى القاسم هاشم بن يونس[1]:

ويوم كأن الشمس فيه عليلة ... لها من وراء السجف نظرة مدنف

ومن أمثلة تشبيهاتهم المركبة قول أبى الحسين على بن المعلم[2].

وماء كعين الديك يجرى على الحصا ... إذا مانهته الريح عن جريه عصى

يصفق مرتاحا براحة موجة ... كنشوان غنته المثانى فأرقصا

ويقول أحد الشعراء فى مقارنة القمر للمريخ[3]:

كأنما البدر حين لاح وقد ... فارق مريخه وداناه

وجه محب قد دنا خجلا ... يحمل كأس النديم يمناه

وقد يشبهون المحسوس بالمعقول على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس يصف شمعة[4]:

تمشى لنا نورها فى الدجى ... كما يتمشى الرضى فى الغضب

وقوله[5]:

ونجائب مثل القسى ضوامر ... وصلت بقطع سباسب وسهوب

من كل مختصر الفلاة بمعجل ... فكأنها إيجاز لفظ أديب

وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الخط يسترفدونه على نحو ما يبدو فى قول ابن الطوبى[6]:

لم أنس إذ عانقت بدر التمام ... فى غسق الليل وجنح الظلام

كأننا لامان قد قوربا ... فألصق الخط فصارا كلام

---

(١) الخريدة ١/٤/ص١١١.

(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد - جـ٤ - مخطوط ورقة ٣١٨.

(٣) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠١.

(٤) ديوان ابن حمديس ص٢٤.

(٥) ديوان ابن حمديس ص٦٠.

(٦) الخريدة ٦٣/١/٤.

وقول ابن حمديس يصف الدروع[1]:

ودروع قد ضوعف النسج منها　　وتناهى في سردها التقدير
كصغار الهاءات شقت فأبدت　　شكلها من صفوف جيش سطور

وقد اعتمد الشعراء الصقليون في كثير من صورهم على عنصر التشخيص أو التجسيم، وذلك بإلباس المعانى صوراً حية، وبث روح الحركة والحياة فيها. وتشيع هذه الظاهرة بصفة خاصة فى شعر ابن حمديس ومن أمثلتها قوله فى المدح مصوراً انتصارات الإسلام على الكفر مشخصاً إياهما فى صورتين آدميتين حيث نرى الكفر خزيان باكيا بعد هزيمته وارتداده على أعقابه أمام الإسلام الذى يجسمه فى صورة إنسان غمرته فرحة الظفر والفوز فبدا جذلان بأسماء يقول[2]:

هناك ثنيت الكفر خزيان باكيا　　نعم، ورددت الدين جذلان باسما

ويرسم لوحة رائعة لنهر صاف ويجسمه تجسيما حيا فيتخيل أن أطراف الحصى التى يجرى عليها قد جرحته، وأن أصوات خرير مائه تحمل شكوى أوجاعه وآلامه. يقول[3]:

ومطرد الأجزاء يصقل متنه　　صبا أعلنت للعين ما فى ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى　　عليه، شكا أوجاعه بخريره

وكانت البيئة الصقلية مصدراً مهماً للصور الشعرية، فكان لها الفضل فى إرفاد الشعراء بالأخيلة والصور والتشبيهات الغزيرة وكثيراً ما نلتقى بصور مستوحاة من المعارك والحروب التى دارت رحاها فى صقلية زمنا طويلاً. فمن ذلك قول ابن حمديس[4]:

وكيف يصفو لنا دهر مشاربه　　يخوضها كل حين جحفل النوب

---

(1) ديوانه ص٢٤٧.
(2) ديوان ابن حمديس ص٤٢٧.
(3) نفسه ص١٨٦.
(4) ديوان ابن حمديس ص١٧.

ويستعير شاعر آخر صفة "الجحفل" لينقلها إلى معنى آخر فيقول[1]:

وليل أتى في جحفل من ظلامه   فقدت له من أسره اللهو جحفلا

وينقل البلنوبي أوصاف المعارك الحربية إلى الغزل. فيقول[2]:

أمجرد السيفين أغمد واحداً   والق الكماة بواحد مسلول

واستلهم الشعراء صورهم من البيئة البحرية أيضاً، فامتلأ شعرهم بصور البحر والشباك والأشرعة وما شاكل ذلك على نحو ما يبدو في قول ابن حمديس يصف عاشقا أضناه العشق[3]:

مضنى يرد سلام العائدات له   مثل الغريق إذا صلى بإيماء

ويستخدم ابن الطوبي صورة الشراع المدد في وصف الكأس، فيقول[4]:

وصهباء كالإبريز تبصر كأسها   من اللمع في مثل الشراع الممدد

ويستخدم ابن القطاع صورة شبكة الصيد فيقول في وصف الخمر[5]:

واغتنم عمرك فيها طائراً   قبل أن تحصل وسط الشبكة

ويبدو أثر البيئة المسيحية واضحاً في صور الشعراء وتشبيهاتهم، فمن ذلك قول ابن حمديس يصف سفينة[6]:

وقد تشق بنا الأهوال جارية   تجري بريح متى تسكن لها تقف

لها شراع ترى الملاح يلحظه   ككاهن يقسم الألحاظ في كتف

ويستمد إحدى صوره الفنية من صور احتفالات الروم بالربيع فيقول وهو بصدد وصف كلاب الصيد حين تهم بافتراس ضحاياها[7]:

كالليث قد أوفى على سرب النعم   في روضة أطيارها ذات نغم

كما تغنت فرق من العجم   قام الربيع عندها على قدم

---

(١) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١١٠.

(٢) ديوان البلنوبي ورقة ٤.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٢.

(٤) الخريدة ٨٤/١/٤.

(٥) المصدر نفسه ص٥٤.

(٦) ديوان ابن حمديس ص٣٢٠.

(٧) ديوان ابن حمديس ص٤٢٣.

الموسيقى والأوزان:

أخذت أوزان الشعر العربى فى التطور تدريجياً متأثرة بموجات الغناء التى انبثت فى أرجاء العالم الإسلامى وشاعت فيه شيوعاً عظيماً. وقد امتد تأثير هذه الموجات العنيفة إلى الشعر فى مختلف البيئات والأمصار الإسلامية ومن بينها الأندلس وصقلية. ولكن الأندلس استطاعت أن تحدث ثورة كبيرة فى الأوزان باختراعها للموشحات والأزجال بتأثير هذه الموجة العنيفة من الغناء والموسيقى التى شاعت فيها وبتأثيرات مختلفة من البيئة المحلية[1]. أما صقلية فلم يقدر لها أن تلحق بالأندلس فى هاتين الناحيتين برغم وجود نهضة غنائية بها، فحرمت بذلك من هذا الجانب الطريف الذى كان من الممكن أن يحدث تطورا هائلاً فى أوزان الشعر الصقلى وأشكاله.

ومهما يكن من أمر، فقد أثر شيوع الغناء وتطور الذوق فى موسيقى هذا الشعر وأوزانه، فأقبل الشعراء على الأوزان الرشيقة الخفيفة، وأكثروا منها، وكلفوا باستعمال أبحر معينة مثل المتدارك أو الخبب حتى فى الموضوعات الجادة كالمدح وغيره على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس[2]:

إن ابن علي حاز عُلى ... فالفعل له والقول لنا
قمر تستمطر منه يد ... فتجود أنامله مزنا

ويستعمل البحر نفسه فى قصيدة أخرى فى المدح يقول فيها[3]:

صمد اللاجون إلى ملك ... منصور بالأحد الصمد
كالشمس سناها مقترب ... وذراها منك على بعد
وإذا ما آنس منه سنا ... من ضل بجنح الليل هدى

ومال الشعراء أيضاً إلى الأوزان المجزوءة، وأكثروا منها ولاسيما فى الغزل والخمر والمجون. ومن أمثلتها قول أبى الفضل بن راشد[1]:

---

(1) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٥١.
(2) ديوان ابن حمديس ص٥١٢.
(3) ديوان ابن حمديس ص١٦٠.

مـــا للحبـــيب ومـــالى؟   تفديـــه نفـــسى، ومـــالى

أريـــد عـــنه ســـلوا   فـــإن بـــدا لى بـــدالى

ويقول محمد بن عيسى يتغزل، وكان يغنى به[2]:

مـــولاى يـــا نـــور قلبـــى   ونـــور كـــل القلـــوب

أمـــا تـــرى مـــا بجـــسمى   مـــن رقـــة وشـــحوب

ومـــا بـــداخل قلبـــى   مـــن لـــوعة ووجـــيب

ويستعمل ابن حمديس مجزوء الرمل في مثل قوله ولعله كان يغنى به أيضاً[3]:

ملنـــى مـــن لا أملـــه   وأذاب القلـــب دلـــه

رشـــأ ينفـــر خـــوفا   كلمـــا مـــا شـــاه ظلـــه

ونجد البلنوبى ينظم قصيدة تقرأ على خمسة أوزان. يقول فيها[4]:

وغـــزال مـــشنف   قـــد رثـــى لى بعـــد بعـــدى

لمـــا رأى مـــا لقـــيت

مـــثل روض مفـــوف   لا أبـــالى وهـــو عـــندى

فـــى حـــبه إذ ضـــنيت

وجهـــه الـــبدر طالعـــا   تـــاه لمـــا حـــاز ودى

فإننـــى قـــد شـــقيت[5]

---

(1) الخريدة ١٠٣/١/٤.

(2) الخريدة ٣٩/١/٤.

(3) ديوان ابن حمديس ص٣٦٣.

(4) الخريدة ٨/١/٤.

(5) الأوزان الخمسة هى الخفيف - مجزوء الخفيف - المجتث - مجزوء الرمل - منهوك الرمل. فتقرأ على الوزن الأول هكذا:

وغـــزال مـــشنف قـــد رثـــى لى   بعـــد بعـــدى لمـــا رأى مـــا لقـــيت

وتقرأ على الوزن الثانى هكذا :

وغـــزال مـــشنف   مـــثل روض مفـــوف .. إلخ

وتقرأ على الوزن الثالث هكذا:

لمـــا رأى مـــا لقـــيت   فـــى حـــبه إذ ضـــنيت .. إلخ

وتقرأ على الوزن الرابع هكذا :

ولم تقف عناية الشعراء بالأوزان عند الميل إلى البحور القصيرة والمجزوءة ولكنهم اهتموا أيضاً بتوفير نوع من الموسيقى الداخلية فى أشعارهم على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس[1]:

مكـــر الطـــراد، وثغـــر الجهـــاد ... ومجـرى الجـياد، ومـأوى الطـريد

ونلمس مثل هذه الموسيقى فى قول محمد بن عيسى الفقيه[2]:

فــى طـرفها سـقم وفــى ألحاظهــا ... غـنج وفــى تلـك المعاطـف لـين

وعلى نحو ما اهتم الشعراء بخفة الأوزان ورشاقتها، اهتموا بالقافية أيضاً، فحاولوا أن يلائموا بينها وبين موضوع القصيدة، على نحو ما يبدو فى قول ابن السوسى فى رثاء أحد رؤساء المسلمين[3]:

ركاب المعالى بالأسى رحله حطا ... وطود العلى العالى تهدم وانحطا

فقد استعمل الشاعر البحر الطويل كما استعمل قافية قوية رنانة تمشياً مع موضوع القصيدة، وتعبيراً عن إحساسه بهول المصاب. ومثل قول محمد ابن عيسى فى الرثاء أيضاً[4]:

شهاب المنايا من سماء الردى انقضا ... وركن المعالى والجلال قد انقضا

أما فى الموضوعات الأخرى كالغزل والخمر وغيرهما فقد مال الشعراء إلى القوافى اللينة السهلة كما أكثروا من القوافى المقيدة أو الساكنة الروى التى تتلاءم مع الأوزان القصيرة الرشيقة كما فى قول ابن حمديس[5]:

وراهـــبة أغلقـــت ديـــرها ... فكـــنا مـــع اللـــيل زوارهـــا

قـــد رثـــى لى بعـــد بعـــدى ... لا أبـــالى وهـــو عـــندى .. إلخ

وتقرأ على الوزن الخامس هكذا:

قـــــد رثـــــى لى ... بعـــــد بعـــــدى .. إلخ

(1) ديوان ابن حمديس - ص١١٦.

(2) الخريدة ٣٨/١/٤.

(3) المصدر السابق ص٥٠.

(4) المصدر السابق ١/٤ ص٤٣.

(5)ديوان ابن حمديس - ص١٨١.



الشعـــراء

الفصل الأول : الشعراء الوافدون

الفصل الثاني : الشعراء الصقليون



الشعراء الوافدون

الشعراء الوافدون

ازدهرت الحياة الأدبية في صقلية قبل الفتنة الأخيرة ازدهارا كبيرا، وراج سوق الأدب والثقافة فيها، فوفد الشعراء إليها من شتى البقاع، وشدت إليها الرحال من كل فج لما سمعوه عن كرم أمرائها وتشجيعهم للشعراء وإغداق الأموال والصلات عليهم. وقد أشار ابن فضل الله العمرى إلى ذلك فقال: "إن كتب التواريخ ومجاميع الأدب محملة بمحاسنها، ولقد كان بها أيام الإسلام من أمرائها ملوك ألباء وأعيان أدباء ما منهم إلا من يقصد إليه ويمدح، ويغدق عليه ويمنح"[1]. ويقول صاحب المغرب عن الأمير جعفر ابن ثقة الدولة إنه: "ملك عظيم، وجواد كريم، وفد عليه الشعراء والعلماء من كل مكان فأعلى منزلتهم وأجزل صلتهم"[2].

ولما هجم العرب على القيروان وخربوها رحل الشعراء عنها إلى صقلية حيث الصلات والعطايا، وحيث الخمر واللهو والغناء، وكان ابن رشيق القيرواني من أشهر هؤلاء المهاجرين. يقول القفطي: "ولم يزل ابن رشيق على ما هو عليه من إقامة سوق الأدب والتنبيه على فضل لغة العرب، بما يصنفه فيها ويؤلفه ويحرره ويرصفه، مرة في لغتها، ومرة في معانيها الواردة في أشعارها، وأمثالها وأخبارها إلى أن هجم العرب على القيروان وقتلوا من بها، وخربوا منازلها، وانتهبوا أموالها، فعند ذلك فر منها إلى ساحل البحر المغربي، ولم يمكنه المقام هناك فعدى البحر إلى جزيرة صقلية، ونزل بمازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن منكود، فأكرمه واختصه"[3].

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - المكتبة الصقلية ص١٥٢.

(٢) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) جـ٤ - ورقة ٣٤١ - ٣٤٢.

(٣) إنباه الرواه على أنباه النحاة ٣٠٣/١.

وقد وصف ابن رشيق رحلته إلى صقلية فقال[1].

ولقد ذكرتك فى السفينة والردى ... متوقع بتلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف ... والليل مسود الذوائب داج
وعلى السواحل للأعادى غارة ... يتوقعون لغارة وهياج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة ... وأنا وذكرك فى ألذ تناج

ولسنا نعرف على وجه التحديد العام الذى رحل فيه ابن رشيق إلى صقلية وإن كان الأستاذ عبدالعزيز الميمنى يرجح أنه ارتحل إليها سنة ٤٥٢هـ[2].

ومهما يكن من أمر، فقد ارتحل ابن رشيق إلى صقلية مع أنه كان حلس البيت، وحليف وكره على حد تعبير الميمنى[3]، وكان قد سبقه إلى هناك قرنه ابن شرف وكانت العلاقات بينهما يسودها التوتر ولكن عند التقائهما نسيا عداءهما وحن كل منهما للآخر، غير أن ابن شرف لم يستطب الإقامة فى صقلية وقرر الرحيل إلى الأندلس وعرض على صاحبه أن يترفقا فى الرحيل إليها فرفض ابن رشيق لما كان يسمعه عن انهيار الدولة فى الأندلس، وانقسامها إلى ملوك وطوائف، وما أدى إليه ذلك من سوء فى الحالة السياسية فقال فى ذلك بيتيه المشهورين وهما[4]:

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب سلطنة فى غير مملكة ... كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وراجع ترجمة ابن رشيق فى بغية الوعاة للسيوطى ص٢٢٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص١٢٣، وشذرات الذهب جـ٣ ص٢٧٩، ٢٩٨ ومعجم الأدباء جـ٨ ص١١٠ - ١٢١، والنتف من شعر ابن رشيق وابن شرف لعبد العزيز الميمنى.

(١) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف ص١٨.

(٢) المرجع السابق ص٦٧.

(٣) نفسه ص٢٠.

(٤) عصر القيروان ص٩٨.

والواقع أن تمسك ابن رشيق بالبقاء فى صقلية كان له ما يبرره، فهى لم تكن بالنسبة إليه مجرد وطن يهاجر إليه أو يتخذه دار إقامة، ولكنه كان يعتبرها وطنه الثانى، وكان ينظر إليها نظرة إعجاب وتقدير عبر عنه فى قوله يمدحها[1].

أخت المدينة فى اسم لا يشاركها	فيه سواها من البلدان والتمس
وعظم الله معنى لفظها قسما	قلد إذا شئت أهل العلم أو فقس

ومما جعله يتمسك بالبقاء فى صقلية أنه كان قبل رحيله إليها يرتبط بصلات ود وصداقة مع عدد كبير من أدبائها وشعرائها أمثال أبى الحسن على بن إسحق الذى يقول عنه العماد فى الخريدة إنه : "كان فى عهد ابن رشيق وبينهما مكاتبات"[2]، ومثل أبى عبدالله محمد بن على الصباغ الكاتب. وعندما وصل ابن رشيق من القيروان إلى مازر كتب إليه قائلا[3]:

كتاب من أخ كشفت	قناع ضميره يده
تذكر منزلاً رحبا	وعذبا طاب مورده
وكاد يطير من شوق	إلى عهد يجدده

فكتب إليه فى جوابه:

أخ بل أنت سيده	على ما كنت تعهده
بود غير محتاج	إلى شىء يؤكده
لعل الله باللقيا	كما يختار يسعده

ولقد كان ابن رشيق يحظى بإعجاب الصقليين واحترامهم، ومما يدل على ذلك ما رواه ابن ظافر فى بدائع البدائه على لسان أحد الصقليين ويدعى أبا عبدالله الصفار الصقلى حيث قال: "كنت ساكنا بصقلية وأشعار ابن رشيق

---

(١) النتف من شعر ابن رشيق ص٤٠ والمقصود بالمدينة بلرم وهى قاعدة بلاد جزيرة صقلية ومدينتها العظمى. انظر. منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار للحميرى - مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة. المجلد الثامن عشر، مايو ١٩٥٦.

(٢) الخريدة ٨٨/١/٤.

(٣) المصدر السابق - ص٩١.

تـرد على فكنت أتمنى لقاءه حتى قدم الروم علينا فخرجت فارا بمهجتي تاركا لكـل مـا ملكـت يـدى وقلت: أجتمع بأبى على فبرقة شمائله وطيب مشاهداته سيذهب عنى بعض ما أجد من الحزن على مفارقة الأهل والوطن"[1].

وقـد احتفـى الـصقليون بـابن رشـيق احـتفاء عظـيما، وأكرم الأمير ابن مـنكود وفادتـه ويقـول القفطى إنه قرأ عليه كتبه ومن جملة ما رأى من قراءاته عليه كتاب "العمدة" ورأى خط ابن رشيق على نسخة منها[2].

ولا شـك أن الصقليين قد أفادوا من وجود ابن رشيق بينهم فائدة كبيرة فقـد تـصدر للـتدريس بمديـنة مازر وأقبل عليه الدارسون والأدباء يأخذون عنه، ويفـيدون مـنه. وفـى ذلـك يقـول أحـد تلامـيذه ويدعـى أبـا الـبهاء عبد الكريم الـصقلى[3]: "رأيـت أبـا علـى بـن رشيق وأبا بكر بن البر فى صقلية واستفدت منهما".

وظـل ابـن رشـيق يواصل جهوده العلمية فى صقلية إلى أن مات بمدينة مـازر وقـد اخـتلف فـى تـاريخ وفاته، ففى معجم الأدباء وبغية الوعاة وشذرات الـذهب أن وفاتـه كانـت سنة ٤٥٦هـ وفى وفيات الأعيان أن وفاته كانت سنة ٤٦٣هـ وقد رجح ابن خلكان التاريخ الثانى على الأول[4].

وكـان مـن بـين الـشعراء المهاجـرين إلى صـقلية الـشاعر عبدالحلـيم بن عـبدالواحد السوسى، وقد ترجم لـه العماد الأصفهانى فقال إنه سوسى الأصـل، إفريقـى المنشأ، صقلى الدار، سكن مدينة بلرم، واستدر من ذوى كرمها الكرم، وله نظم كالعقود، ونثر كالمنقود. وقد عبر عن إعجابه بصقلية فقال[5]:

عـــــشقت صــــــقلية يافعــــــا   وكانـــت كـــبعض جــنان الخلـــود

---

(١) بدائع البدائه – ص١٦٧.

(٢) إنباه الرواه على أنباه النحاة ٣٠٣/١.

(٣) معجم السفلى "مخطوط" – ورقة ١٤٨.

(٤) وفيات الأعيان ٣٦٦/١.

(٥) الخريدة ٢٢/١/٤.

فمـا قـدر الوصـل حتـى اكـتهلت وصــارت جهــنم ذات الوقــود

وظل عبدالحليم بصقلية حتى نشبت الفتنة الأخيرة، وتوزع البلاد أمراء الطوائف، فانحاز إلى جانب ابن منكود واختصه بمدائحه، فمن ذلك قوله[1]:

يقولــون كثــر عبدالحلــيم فــإلا اقتــصادا وإلا اقتــصارا
وفـضل أبــي القاسـم المجتبــي كفانــي احـتجاجا لهـم واعـتذارا
ألم يعلمــوا أن فــيض الــسماء علــى الأرض كثـر مـنها الـثمارا
مآثــر طالــت فأضــحى الطــوا ل مـن حلـل المـدح عـنها قـصارا
ومجــد يــنوب ثنائــي مطــارا وجــود يغـرق شـعرى بحــارا
وفــضل يعــد نجــوم الــسماء وزهـر الـرياض ويحـصى القطـارا
تغــار العــلا لابــن مــنكودها فـلا تقبل المـدح فـه اختـصارا

ويتميـز شـعر عبدالحلـيم بالـرقة والعذوبة ولاسيما فى غزله ومن أمثلته قوله[2]:

قالــت لأتــراب لهــا يــشفعن لى قــول امـرىء يزهـى علـى أتـرابه
وحــياة حاجــته إلى وفقــره لأواصــلن عذابــه بعذابــه
ولأمــنعن جفــونه طعـم الكـرى ولأمــزجن دمــوعه بــشرابه
لم بـاح باسمـى بعدما كـتم الهـوى دهــرا وكـان صـيانتى أولى بـه

وكـان ممـن هاجـروا إلى صقلية أيضاً الشاعر أبـو الحســن عبـد الكريـم ابـن فـضال الحلوانـى، وقد ترجم لـه ابن بسام فى الذخيرة وقال عنه[3]: "وله كـلام فـى النـسيب رائق، ومتأخر سابق، ومديحه أيضاً عليه طلاوة، وبالجملة ففى ألفاظ الحلوانى حلاوة".

وقـد رحـل الحلوانـى إلى صـقلية للتكسب بـشعره، واتـصل بـصاحب الخمـس إبـراهيم واختصه بمدائحه فآثره وقربه مما أثار حفيظة بعض الشعراء،

---

(1) معجم السفلى "مخطوط" - ورقة ١٥٧ - ١٥٨.
(2) الخريدة ٢٣/١/٤.
(3) الذخيرة ٢١٩/١/٤.

فحاول أحدهم – وهو أندلسي – أن يوقع بينهما فمدح صاحب الخمس بشعراتهم الحلواني فيه وجرى في مجلسه بصقلية، فقال الحلواني يهجوه[1]:

يا شاعر العصر قد كلفتني شططا	فاصرف عنانك عنا، أو تأن خطا
حملتني ذنب غيري ظالما وأنا	قد كنت أقسط في إنصاف من قسطا
وما حسدتك في شعر أتيت به	ومن يحاول لمسا للسهى سقطا
وليس يحسد طبعي "أبجنيسكم"[2]	فكيف أنت لقد جشمتني شططا
فخذ "قفانبك" وانسبها لنفسك ما	في الخلق من كاشف بالبحث عنك غطا
ولا تظنن أن الشعر مكرمة	فالحر إن رام أن يعلو به هبطا

وللحلواني مقطوعات كثيرة في الغزل بالمذكر والخمر، ويبدو أنه كان يميل إلى المجون والتهتك. ونستطيع أن نلمس ذلك في مثل قوله[3]:

قالوا غدا رمضان فاستعد تقى	وبت على الصوم واهجر لذة الكاس
إن الهلال يرى حتما فقلت لهم	حكمتم بشتاتي بين جلاسي
فقال لي الغيم لا تحفل بقولهم	على سترته فاشرب بلا باس
فقمت أعثر في ذيل المجون إلى	جمع المسرة بين الكاس والطاس

وكان من بين المهاجرين إلى صقلية أيضاً الشاعر عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن السوسي. ولد بمدينة مالقة إحدى مدن الأندلس وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب وجذبته صقلية بسحرها وجمالها فرحل إليها وأقام في بلرم واتخذها دارا ووجد بها قرارا ونيف على السبعين ومتع ببنين[4] وقد وصف شعره بأنه صحيح المعنى، قديم المبنى، لذيذ المجنى[5]، ولم تشر المصادر إلى نشاطه بصقلية، ويبدو أنه ظل بها حتى بعد أن تملكها النورمان فقد أورد له

(1) المصدر السابق ٢٢٨/١/٤.
(2) كنية الرمادي الشاعر الأندلسي.
(3) الخريدة ١٨٨/٢ "ط. تونس".
(4) الخريدة ٥٠/١/٤.
(5) المصدر السابق ص٥٠.

العماد مرثية فى بعض رؤساء المسلمين بصقلية وهى قصيدة طويلة تدل على ما حواه من فضائل[1].

وقد التف حول الأمير ثقة الدولة عدد كبير من الشعراء الذين وفدوا عليه من شتى البقاع طمعا فى عطائه ونواله نذكر منهم أبا محمد عبدالله بن محمد التنوخى المعروف بابن قاضى ميلة، وقد ترجم له ابن بسام فى الذخيرة ووصفه بأنه "ضرب فى الأدب بأعلى قدح، وافتر عنه على أوضح صبح[2] ثم قال "ذكره ابن رشيق فى شعراء الأنموذج وأعرب عن فضائله"[3].

وقد هاجر هذا الشاعر من بلده "ميله" بإفريقية إلى صقلية واتصل بأميرها ثقة الدولة ومدحه، ولم يصل إلينا من هذه المدائح إلا قصيدة واحدة أعجب بها ابن خلكان ووصفها بأنها بديعة غريبة وأثبتها لحسنها وغرابتها[4]. وقد بدأها بمقدمة غزلية طويلة بلغت اثنين وثلاثين بيتا تخلص بعدها إلى المدح فقال[5]:

وعاذلة فى بذل ما ملكت يدى	لراج رجائى دون صحبى يعنف
تقول إذا أفنيت مالك كله	وأحوجت من يعطيكه؟ قلت يوسف
أغر قضاعى يكاد نواله	لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف
إذا نحن أخلفنا مخايل ديمه	وجدنا حيا معروفه ليس يخلف

ويمضى ابن قاضى ميلة فى قصيدته فيصف شجاعة الأمير وثباته فى الحرب ثم يهنئه بالعيد وبابنه الأمير جعفر ويختمها بالسؤال وطلب العطاء يقول[6]:

وقائلة بالسعد نجلك جعفر	فيالك من عيد بملكين تتحف

(١) المصدر نفسه ص٥٠.
(٢) الذخيرة ٤/٢/ ورقة ١٥٠.
(٣) المصدر السابق الورقة ١٥٠.
(٤) وفيات الأعيان ٥/٢٠٧.
(٥) المصدر نفسه ٥/٢٠٧.
(٦) وفيات الأعيان ٥/٢١١.

فلا زلت تستجدى، فتولى وترتجى فتكفى، وتستدعى لخطب فتكشف

واتصل بثقة الدولة شاعر آخر هو عبدالله بن إبراهيم بن المثنى الطوسى المعروف بابن المؤدب المهدى الأصل، القيروانى المولد. قال عنه ابن خلكان: "كان مغرى بالسياحة، وطلب الكيمياء، والأحجار، وكان محروما، مقترا عليه متلافا، فخرج مرة يريد جزيرة صقلية، فأسره الروم فى البحر، وأقام مدة طويلة مأسورا إلى أن هادن ثقة الدولة الروم، وبعثوا إليه بالأسرى، فكان ابن المؤدب فيمن بعث، فامتدح ثقة الدولة بقصيدة شكره فيها على صنيعه، ورجا صلته، فلم يصله بشىء أرضاه، وكانت فيه رغبة، فتكلم وألح وطلب طلبا شديدا، وطالت المدة، فخرج سكران يشترى نقلا، فما شعر إلى وقد أخذ، وحمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة، فقال له: "ما الذى بلغنى يا بائس؟" قال المحال — أيد الله الأمير! قال: ومن هو الذى يقول فى شعره "فالحر ممتحن بأولاد الزنا؟" قال: هو الذى يقول "وعداوة الشعراء بئس المقتنى" فأمر له الأمير بمائة دينار وأخرجه من المدينة"[1].

وينبغى ألا يبعدنا هذا المثال عما نحن بصدده وهو أن حكام صقلية بذلوا لهؤلاء الشعراء الوافدين كل ما يستطيعون من صلات وعطايا، وأكرموا وفادتهم، واحتفوا بهم احتفاء عظيما ربما لم يجدوا مثله فى أوطانهم التى هاجروا منها، وكان لذلك أثر طيب فى نفوسهم، فظل كثير منهم فى صقلية ولم يفارقوها حتى بعد أن غربت عنها شمس الإسلام.

• • • • •

(١) نفسه ٥/٢٠٦.



الشعراء الصقليون

الشعراء الصقليون

أنجبت صقلية فى ذلك الزمن القصير عددا كبيرا من الشعراء ذكر منهم ابن القطاع نيفا ومائة وسبعين شاعراً، وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما وصل إليه الشعر فى تلك الجزيرة من الازدهار.

ومن يقرأ فى الخريدة ومختصر الدرة ويطالع ترجمات الشعراء وأسماءهم يخيل إليه أن كل الصقليين كانوا شعراء، فما من كاتب أو عالم أو لغوى أو فقيه إلا وقد ورد اسمه بين الشعراء، وذكر شيء من شعره.

وقد أسهم الأمراء فى هذه الحركة الشعرية إسهاماً كبيراً فكان أغلبهم شعراء ينظمون الشعر ويشجعونه ويغدقون على قائليه. وقد بث أدب هؤلاء الأمراء روحاً قوياً فى أنحاء الجزيرة فوفد إليها علماء اللغة والشعراء من المشرق والأندلس — كما رأينا فى الفصل السابق — ونبع فيها شعراء مجيدون سباقون[1].

ويحتفظ العماد فى الخريدة بقدر لا بأس به من أشعار هؤلاء الأمراء أمثال الأمير مستخلص الدولة والأمير ثقة الدولة وابنه الأمير جعفر والأمير ابن منكود وغيرهم.

ولعل أهم ما يميز هؤلاء الأمراء أنهم لم يكونوا يتخذون الشعر وسيلة للتكسب وإنما كانوا ينظمونه بقصد التسلية واللهو، وكنوع من الترف وإزجاء الفراغ، ونستطيع أن نلمح فى أشعارهم بعض السمات والملامح الخاصة، ويمكن القول بأن قصائدهم بصفة عامة مستوحاة من حياتهم المترفة، ولذلك فأكثرها يدور فى الغزل والخمر ووصف الرياض.

---

(١) "المدينة العربية فى صقلية" مقال للأستاذ أمين الخولى بمجلة المقتطف فبراير سنة ١٩٢٣ – ص١٤٤.

ويلحظ القارئ أن غزلهم ليس غزلا تقليدياً، ولكنه غزل أمراء فيه شيء من الأرستقراطية وعزة النفس وحب التملك والسيطرة مما نتمثله في قول الأمير مستخلص الدولة[1]:

قلت يوما لها وقد أحرجتني	قولة ما قدرت أنفك عنها
أشتهي لو ملكت أمرك حتى	آمر الآن فيك قهراً وأنهي
فبكت ثم أعرضت ثم قالت	خنتني في محبة لم أخنها
قلت إن أنت لم تجودي بوصل	فالمنى ما عليك لو نلت منها

ويمثل هذا اللون من الشعر نزوات الأمراء ومجونهم وعبثهم من مثل قول أحدهم[2]:

عض تفاحة وناولنيها	آه منها وآه من مهديها
فإن اشتقت طيب ثنايا	ه أقبل مواضع العض فيها

ونحس في أشعارهم بروح الفروسية المستمدة من حياتهم، فالأمير فارس محارب يمتطي صهوة جواد يسابق به الرياح من مثل قول أحدهم[3]:

ويحمل عنك همي فوق طرف	سبوق من خيول سابغات
أغر تخال ريحاً قد أعيرت	قوائم باللجين محجلات
كساه الليل أثواباً ولكن	تراها بالصباح مرقعات

ونستدل مما ذكرته المصادر أيضاً على أن أكثر اللغويين كانوا شعراء، وقد ذكر القفطي عددا كبيرا منهم أمثال أبي عبدالله محمد بن سدوس الذي قال

(١) الخريدة ٩٢/١/٤.
(٢) الخريدة ٩٣/١/٤.
(٣) المصدر السابق – ص١٣٥.

القفطى إنه : "برع فى النحو على أهل زمانه، وكان فى النظم والنثر طوع عنانه"[1].

وعلى بن بشرى الذى وصف بأنه "كان فى النظم والنثر لا يجارى وفى اللغة والإعراب لا يبارى"[2] ومثل طاهر بن محمد الرقبانى الذى وصف بأنه "لم يكن فى زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها ونثرها ونظمها"[3].

ولقد ترجم العماد فى الخريدة لعدد كبير من الشعراء الصقليين ولكنه اقتصر فى معظم تراجمه على ذكر أسمائهم أو الاكتفاء بإيراد بعض تعريفات مختصرة عنهم، وجاءت كثير من قصائدهم ناقصة مبتورة. ومثل هؤلاء الشعراء لا نرى فيهم مجالا للقول أو فسحة للعرض، وليس ممكنا أن نتتبعهم بالبحث والتعريف وقد رأيت أن أقتصر فى هذا الفصل على الشعراء المشهورين الذين عاشوا فى القرن الخامس الهجرى، وعبروا عن ارتباطهم بصقلية حتى وهم بعيدون عنها ولنبدأ بابن حمديس أعظم شاعر أنجبته صقلية.

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٥٠/٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٣٤/٢ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق ٩٤/٢.

ابن حمديس الصقلي

ولد أبو محمد عبد الجبار بن حمديس سنة ٤٤٧هـ في مدينة سرقوسة إحدى مدن صقلية. ويتصل نسبه بقبيلة الأزد الكهلانية[1] ولكنه لم يفتخر في شعره بهذا النسب مثلما يفخر بأنه "من بني الثغر" أي يعتز بوطنه أكثر من اعتزازه بالقبيلة[2].

ونشأ ابن حمديس في أسرة عربية محافظة تتمسك بأهداب الدين، ويميل أكثر أفرادها إلى الزهادة والنسك، ويتصفون بالبر والتقوى، وقد عاش جده ثمانين عاما قضاها في العبادة والنسك، ويشير إلى ذلك فيقول[3]:

تنسك في بر لثمانين حجة فيا طول عمر فر فيه إلى الرب

ونستطيع من خلال تلك البيئة التي عاش فيها أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها، فقد تزود بالثقافة الدينية منذ حداثته، فحفظ القرآن، وألم بسيرة الرسول عليه السلام، وقرأ القصص والأساطير التي كانت شائعة في عصره، كما طرق أذنه كثير من أخبار المسلمين وسيرهم، وعكف على قراءة الشعر الجاهلي، فتعلق به واستعذبه، وتأثر بشعرائه، وقبس عن كل واحد منهم. وظهر أثر ذلك جليا في شعره.

واتسعت ثقافته وتنوعت، فألم إلماما كبيرا بالعروض والنحو، وطبائع الحيوان، والفلك والفلسفة، كما ألم ببعض المعارف الطبية، وشغف بالتاريخ شغفاً كبيراً، وقد بلغ من كلفه به أنه ألف كتاباً في "تاريخ الجزيرة الخضراء" لم يصلنا شيء منه[4].

---

(١) وفيات الأعيان ٣٨١/٢.

(٢) مقدمة ديوانه ص٣.

(٣) ديوانه ص٣٦.

(٤) كشف الظنون ٢٩٠/١.

وكانـت مدينـته سرقوسـة تمتاز بسحرها الخلاب، وطبيعتها الجذابة، وقـد وصفها الإدريسى بأنها "من مشاهير المدن وأعيان البلاد، تشد إليها المطى مـن كـل حاضـر وباد، ويقصد إليها قصاد التجار من جميع الأقطار، وهى على سـاحل البحر وهو محدق بها، دائر بجميع جهاتها.. وهى عجيبة الأمر، وبها مـا بأكـبر المـدن مـن الأسـواق والحانـات والديار والحمامات، والمبانى الرائقة، والأفنية الواسعة وبها من الجنات والثمار ما يتجاوز الحد والمقدار"[1].

وعلـى الرغم من هذه النشأة الدينية، فإن ابن حمديس انجذب إلى هذه الحـياة الـصاخبة، وأطلـق لنفـسه العنان، فذهب إلى الأديرة والحانات، وكلف بالقـيان والجـوارى، وكانـت لـه مغامرات مع الراهبات، وعشق هذا اللون من الحـياة، حتـى لقـد ظـن (فـون شـاك) أن حظه فى الحب واللهو كان أكثر من حظه فى العلم والتحصيل[2].

وقـد أثـرت هـذه المـشاهد والـصور فـى شـعره، وكانت تلك الحقبة من حياته — برغم قصرها فى عمر الزمن — من الوقدات التى ألهمت شاعريته[3].

وظـل ابـن حمـديس يستمتع بحياته فى ربوع صقلية حتى أطلت الفتن برؤوسـها وأحـس أن وطنه يحتضر، فعز عليه أن يراه فى هذه الحال البائسة، وآثـر الهجرة عنه وهو أشد ما يكون حبا لـه وارتباطا به، "وكان لهذا أثر عظيم فـى نفـسه وخـياله الـشعرى وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث"[4].

ورحـل ابن حمديس عن صقلية وهو فى عنفوان شبابه، وعرج أولا على أفـريقية ولكـنه لم يألـف حـياة الـصحراء القاسية، فقوض خيامه، ورحل عنها

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص٢٩.

(٢) Poesie und kunst der Araben in Spanien und Siciliea Vol, 2 by Schack – P.15.

(٣) ابن حمديس الصقلى لعلى مصطفى المصراتى ص٦.

(٤) بلاغة العرب فى الأندلس ص١٢٩.

متوجها إلى الأندلس، وحط رحاله فى إشبيلية سنة ٤٧١هـ فى زمن المعتمد بن عباد، ويحكى قصة لقائه به فيقول[1]: أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد ابن عباد مدة لا يلتفت إلى ولا يعبأ بى، حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى، فإنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لى: أجب السلطان، فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فنك وقال لى: افتح الطاق التى تليك، ففتحتها، فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقده، يفتحهما تارة، ويسدهما أخرى، ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتهما قال لى: أجز:

أنظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت

كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال:

يفتح عينيه ثم يطبقها

فقلت:

فعل امرىء فى جفونه رمد

فقال : فابتزه الدهر نور واحدة

فقلت: وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنيه وألزمنى خدمته".

وعاش ابن حمديس فى كنف المعتمد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، وتوثقت الصلات بينهما وأصبح من شعرائه المقربين. وجذبته حياة الأندلس المترفة وطبيعتها الفاتنة فاندمج فيها بعض الاندماج، وتمتع بملذاتها، ولكن القدر كان قد دبر له كثيراً من المفاجآت المزعجة، وما لبثت الكوارث والنكبات أن توالت عليه، فمات أبوه الذى كان يحبه ويجله، وتحطمت قلاع المقاومة فى

---

(١) ديوانه ص٥٤٣.

وطنه، وسقطت صقلية إلى الأبد ثم ما لبث أن سقط المعتمد بن عباد واعتقل من قبل يوسف بن تاشفين وسيق أسيرا إلى قلعة أغمات بمراكش، فاكتملت خيوط مأساته، وتجمعت في نفسه كل أحاسيس الحزن، وعز عليه أن يترك صاحبه (المعتمد) في محنته، فلازمه في منفاه وعاش وفيا له إلى أن أدركته منيته، وعاد ابن حمديس يعاني متاعب الغربة والتشرد من جديد، فعاش متنقلاً في المدن الأفريقية، واتصل بالأمير تميم بن المعز فمدحه ثم اتصل بابنه يحيى، وحفيده على ومدحهما أيضاً، وأقام بإفريقية بقية عمره ولكنه لم ينس وطنه وهو في بلاد الغربة، وظل شبح المأساة يخيم على حياته، وأخذ القدر يلاحقه بالأنباء المحزنة، فتوفيت زوجه وهو بعيد عنها، ثم توفيت ابنته التي كانت ترعى أبناءه، وفقد أصدقاءه وأحبابه واحداً إثر آخر، وتراكمت على كاهله السنون، وفقد بصره في أخريات حياته ويروى السلفي أنه "دخل على صاحب بونة كرامة بن المنصور بعد أن كف بصره فقال: كيف حال الشيخ؟ فقال: كيف حال من كل صاحب عينين فصارتا غينين!! فاستحسن كلامه، وقال: خذ هذه العصا وتعكز عليها، فمد يده فوجد غلاما، باعه بعد ذلك بثلاثين دينار"[1] وقد وصف ابن حمديس حالته بعد أن أشرف على الثمانين فقال[2]:

أنا في الثمانين التي فتلت بها	قيدي الزمانة عند ذلك قيادي
أمشي دبيبا كالكسير وأتقي	وثبا على من الحمام العادي
ذبلت من الآداب روضتي التي	جليت نضارتها على الرواد

وأخيراً، قدر لهذا الشاعر المغترب أن يموت بعيدا عن أهله ووطنه، فتوفي ٥٢٧ سنة وقد ذكر ابن خلكان أن وفاته كانت بجزيرة ميورقة[3]، وتبعه في ذلك كثير من الباحثين[1].

---

(١) معجم السلفي، (مخطوط) ورقة ٢٨٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص١٢٤.

(٣) وفيات الأعيان ٣٨٣/٢، والمكتبة الصقلية ص٦٢٦.

الآثار الصقلية فى شعره :

عاش ابن حمديس حياته موزعا بين صقلية والأندلس وإفريقية، واختلط بالحركات الأدبية فى هذه البيئات، وهذا ما يجعلنا نتساءل: هل تأثر شعره بكل بيئة من هذه البيئات؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فإلى أى مدى كان هذا التأثر؟

لقد اختلفت آراء الباحثين فى هذه المسألة، فزعم الدكتور سيد نوفل أن ابن حمديس كان يعيش بلغته وعقله وثقافته كلاً على العربية فى بيئاتها المختلفة، وأن الفتن التى ابتليت بها صقلية لم تتح له تمام المتعة بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها، ويقول "إن الحياة التى عاشها فى الأندلس وإفريقية هى التى هيأته لأن يكون مثال الشاعر الذى يغنى بأساليب غيره من الشعراء"[٢].

ويردد جودت الركابى هذا الرأى ترديداً يكاد يكون حرفياً دون أن يذكر قائلة أو يشير إليه[٣].

ومن الواضح أن الدكتور سيد نوفل يقيس المسألة بمقياس حسابى، فيزن تأثر ابن حمديس بعدد السنين التى قضاها فى كل بيئة من هذه البيئات، وذلك — فى تقديرى — مقياس خاطىء لا يستقيم مع واقع شعر ابن حمديس نفسه.

أما أمبرتو ريزيتانو فيرى رأيا آخر فيقول: "ومما لا شك فيه أن البيئات الجديدة — أندلسية كانت أم إفريقية — والأقطار التى اختلف إليها ابن حمديس، لم تكن تتجاوب مع قلبه"[٤] ويؤكد هذا الرأى فى موضع آخر

---

(١) أنظر فى الأدب الأندلسى لجودت الركابى ص١٠٠ - ١٠١، ود. سيد نوفل: شعر الطبيعة فى الأدب العربى، ص٢٦٩. ومارتينو ماريو: تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٥٠.

(٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص٢٦٩.

(٣)فى الأدب الأندلسى ص١٠١.

(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩٧.

فيقول: "إن الحوادث التى كانت تدور فى إفريقية لم تكن ذات أثر مهم فى نفسه، وبالأحرى لم يكن لها أثر واضح فى شعره، وإن وجد فإنما هو أثر باهت يستطيع الإنسان العثور عليه فى هذا المديح أو ذاك الرثاء"[1].

وهذا الرأى الصحيح إلى حد بعيد، فمن يطالع ديوانه، ويقرأ قصائده، يرى بوضوح أن البيئة الصقلية هى المؤثر الحقيقى — وأكاد أقول الوحيد — فى شعر ابن حمديس، "فلقد كانت الحياة التى شاهدها وعاش فيها تختلف عن حياة غيره من الشعراء، لأن هذا الاتصال الذى كان يجمع بين الأمم المختلفة من سكان صقلية لم يحصل فى بلد إسلامى، وكانت الحوادث الاجتماعية والسياسية والحياة العقلية التى وقف عليها ابن حمديس وشهدها سببا فى تهذيب خياله وفكره حتى جعلت له صبغة خاصة فى شعره، فكان بعيد الغور فى تفكيره وخياله، كثير التأمل فى الحياة ومظاهرها، تملأ نفسه ذكريات أيامه الماضية، وحبه لبلاده والأهوال التى مرت به ومر بها، وقد ظهر ذلك فى شعره فنجده أحياناً باكياً متألماً، وحيناً فرحاً مسروراً، ولكن قرارة نفسه كانت مملوءة بأنواع الآلام من حوادث الأيام، فشعره مرآة لحياته النفسية، ومشاهداته وآرائه"[2].

وبرغم قصر المدة التى عاشها ابن حمديس فى وطنه، فإن صورة هذا الوطن لم تغب عن ذهنه ولم تفارق خياله، ويستطيع القارىء أن يلمح هذا فى كل شعره حيث تطل عليه صورة صقلية فى كل غرض من أغراضه، فيراها فى غزله، ويراها فى وصفه، ويراها فى خمرياته بل ويراها فى مدائحه أيضاً؛ فهى الخيط الأساسى الذى ينتظم شعره، وأما ما عداها فهى خيوط هامشية واهية فرضتها عليه مطالب العيش وظروف الحياة.

---

(١) المرجع السابق ص١٠٢.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى - إبراهيم على أبو الخشب ص٢٨٧.

ولعلنا لا نجد شاعرا استطاع أن يمثل وطنه بصدق مثلما استطاع هذا الشاعر الشاب. وفى ذلك يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى: كان ابن حمديس يمثل أجل تمثيل وطنه صقلية، فى عبثه ترى عبثها، وفى لهوه ترى لهوها، وفى حماسه ترى حماسها، وفى أوصافه ترى أوصافها ذات الألوان الزاهية الخلابة، وفى تنديده بأهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بأبنائها الذين أضاؤها، وفى رثائه لها، وبكائه عليها، يخيل إليك أنك تسمعها تبكى وتنتحب، تندب سلطانا ضائعا، وملكا مفقودا. بل إن شعر ابن حمديس فى مجموعه، يعد ملحمة من أبدع ما أخرج الشعراء للناس من الملاحم"[1].

لقد رسم ابن حمديس لوحات كثيرة لصقلية فى صباها ولهوها حيث عاش هناك أجمل ذكرياته ولم يكن يدرى ما يخبئه له القدر. وفى هذه اللوحات تطل علينا صورة صقلية المترفة، المترعة بجمال الطبيعة، الحافلة بحانات الخمر التى تعج بالغلمان والسقاة والجوارى حيث تصفو الحياة، ويلذ العيش – صقلية هذه هى التى وصفها ابن حمديس فقال[2]:

بلد أعارته الحمامة طوقها	وكساه حلة ريشه الطاووس
وكأن هاتيك الشقائق قهوة	وكأن ساحات الديار كؤوس

وفى لوحة أخرى من تلك اللوحات يصور ابن حمديس جانبا من جوانب حياته التى عاشها فى صقلية حيث لا يشغله إلا شرب الراح واغتنام الملذات، يقول[3]:

طربت متى كنت غير الطروب؟	فلم أعر طرف الصبا من ركوب
فيوما إلى سبى زق روى	ويوما إلى صيد ظبى ربيب
ومهما كبابى فمن نشوة	يوافقها بين كأس وكوب
ليالى بين المها غيرة	على تخوض بها فى حروب

(1) المسلمون فى جزيرة صقلية ص٢١٧.
(2) ديوان ابن حمديس ص٥٥٣.
(3) ديوانه ص١٢.

ويصف مغامراته مع الجوارى والقيان وكلفه بهن فيقول[1]:

وتزحمنى كل فتانة ... بتفاحة غلفتها بطيب
ويطلقنى من عقال العناق ... صباح ينبه عين الرقيب
وفى كبدى جرح لحظ عليل ... وفى عضدى عض ثغر شنيب

وفى تلك الفترة من حياته لم يكن ابن حمديس يؤمن بشيء إلا باللذة، فهى مذهبه الذى لا يعتنق غيره، ولا يرتضى به بديلا، وقد عبر عن ذلك فقال[2]:

وما العيش إلا فى تطرف لذة ... وخلع عذار فيه مستحسن العذر

ولكن القدر أبى إلا أن يحرمه من هذه الحياة، فقد ابتليت صقلية بالفتنة، وما لبثت هذه الفتنة أن تفاقمت حتى نغلت وأعيت كل طبيب – على حد تعبير شاعر صقلى آخر – وهنا أفاق ابن حمديس من حلمه ليجد نفسه بعيدا عن وطنه الذى يصفه دائماً بأنه جنة الخلد، فتختفى هذه الصورة الضاحكه، وتتغير نظرة ابن حمديس للحياة، فلم يعد ذلك الشاعر الشاب الذى يتغنى بالكأس والقينة، ويرى العيش فى اغتنام الملذات، وإنما أصبح شاعراً آخر يألف الوحدة، ويتبرم بالحياة، ويقاسى آلام الاغتراب والتشرد ويحمل على كاهله مأساة وطنه حيثما رحل، وأينما حل. وأصبحت المأساة وحدها هى المؤثر الحقيقى فى شعره وشاعريته، وقد انعكست آثار هذه المأساة على شعره فوجهته وجهات أخر، واخرجته عن ذلك النطاق التقليدى الذى ظل الشعراء يدورون فيه إلى آفاق إنسانية أرحب وأوسع. ويمكن أن نحصر هذه الآثار فيما يأتى:

---

(1) ديوانه ص١٢.
(2) المصدر نفسه ص١٩٣.

الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن:

إن ظاهرة الحنين إلى الوطن هي أكثر الظواهر وضوحا في شعر ابن حمديس وإذا كان شعر الحنين قد عرف في الشعر العربي، فإن حنين ابن حمديس من أصدق ما قيل في هذا الباب، وأبلغه على مر العصور، فهو صادر عن نفس معذبة ذاقت الغربة، وعن قلب محطم قاسى الشقاء والهوان والأسى على تلك الديار الصقلية التي كانت عامرة بمواطنيه وأصحابه وأفراد عائلته فأصبحت بعد استيلاء النورمان عليها خالية من أهلها وأصحابها[1].

لقد تشخصت الغربة في نفسه منذ اللحظة الأولى التي فارق فيها وطنه، فقد نعبت الغربان في تلك اللحظة منذرة بالفراق الأبدي وكأنما كانت تعلم الغيب[2]:

وقالت: غرابيب درجن ببينه	سيستدرج الأعوام وهو غريب
فما كان إلا ما قضى بالها به	فهل كان عنها الغيب ليس بغيب؟

وقد ظلت هذه الصورة — صورة الغراب تلازم الشاعر في غربته طيلة حياته وقد عبر عن ذلك فقال[3]:

أنا من صاح به يوم النوى	عن مغانيه غراب فاغترب
طفت في الآفاق حتى اكتهلت	غربتي واحتنكت سن الأدب

ولقد حكم القدر على ابن حمديس بأن يعيش لاجئاً مهاجراً بعيداً عن أهله ووطنه، ويعبر ابن حمديس عن هذه المأساة في نغمات حزينة تثير الشفقة وتؤجج مشاعر الحزن على مصير هذا الشاعر البائس فيقول[4]:

إني امرؤ مما طرقت مهيد	بفراق أهلي وانتزاح بلادي

وتستبد به آلام الغربة فيصرخ قائلا[1]:

---

(1) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص١٠٢.
(2) ديوانه ص٣٨ – ٣٩.
(3) ديوانه ص٤٩.
(4) ديوانه ص١٢١.

مـالى أطـيل عــن الـديار تغـربا   أفبالتغــرب كــان طالــع مــولدى

وتـشتد وطـأة الفراق، ويقوى فى نفسه الشعور بالوحدة، وتشتعل جذوة الشوق فى نفسه، وتزداد لواعج الحنين، فيرفع صوته إلى السماء قائلاً[2]:

فـيارب إن الـبين أضـحت صـروفه   علـىَّ ومـالى مـن معين فكـن معى
علـى قـرب عـدالى، وبعـد حبائبى   وأمـواه أجفانـى، ونـيران أضـلعى

وابـن حمديس – كأى مغترب أو مهاجر – كان ينتابه الشعور بالضآلة أو "الـضعف" فى المجتمع الذى هاجر إليه، وكان يحس بأن الناس لا يقدرون الغـرباء. ومثل هذا الإحساس "بالامتهان" أو بعدم ترحيب المجتمع به لابد أن يقابلـه إحـساس آخر يتمثل فى نغمة الفخر بنفسه، والإشادة بمكانته بين أبناء وطنه وأهله مما يتمثل فى قوله[3]:

وكـــنا فـــى مواطنـــنا كـــراما   تعـــاف الـــضيم أنفـــسنا وتابـــى
ونطلـــع فـــى مطالعـــنا نجـــوما   تعـــد لكـــل شـــيطان شـــهابها
صـــبرنا للخطـــوب علـــى صـــروف   إذا رمـــى الولـــيد بهـــن شـــهابا
ولم تـــسلم لـــنا إلا نفـــوس   وأحـــساب تكـــرمها احتـــسابا
ولم تخـــل الكـــواكب مـــن سـقوط   ولكـــن لا يـــبلغها الترابـــا

ولم يـستطع ابـن حمـديس أن يعـايش هـذا المجتمع الذى هاجر إليه، فأقـام كارهـا لـه ساخطا عليه، يطوى أحشاءه على الألم ويعاتب الدهر الجائر الذى أخرجه من الجنة وألقى به فى بلاد قاسية قاحلة عرفت بمرعاها الوخيم، ومياهها الآسنة وحياتها الجافة. ويعبر عن هذه المعانى فيقول[4]:

طـال التغـرب فـى بـلاد خصـصت   بـوخامة المرعـى وطـرق المـشرب
فطـويت أحـشائى علـى الألم الـذى   لم يـــشفه إلا وجـــود المـــذهب
إن الخطـــوب طرقتنـــى فـــى جـــنة   أخرجتنـــى مـــنها خـــروج المـــذنب

---

(1) المصدر نفسه ص١٦٨.
(2) المصدر نفسه ص٣٠٤.
(3) ديوانه ص١٦.
(4) نفسه ص٥٣٨.

ولم تكن صورة وطنه تغرب عن ذهنه أو تفارق خياله، فهو دائم الحنين إليه، يتذكر أماسيه وأسماره فى ربوعه. ويحلم بالعودة إليه مرة أخرى بعد أن طال الفراق، وعز اللقاء. ويعبر عن هذه المعانى فيقول[1]:

بالله يا سمرات الحى هل هجعت	فى ظل أغصانك الغزلان عن سهرى
وهل يراجع وكرا فيك مغترب	عزت جناحيه أشراك من القدر
ففيك قلبى ولو أسطيع من وله	طارت إليه بجسمى لمحة البصر

لقد أرهفت الغربة أحاسيس ابن حمديس، ورققت مشاعره، فأصبح يرى صورة وطنه فى كل شيء حوله، يراها فى الرشأ الجميل، والوجه الصبوح، ويراها فى سجع الحمام، وشدو الطيور، ولعله من الشعراء القلائل الذين التفتوا إلى هذه الناحية، ولنسمعه يقول[2]:

وربما هاج اشتياق الفتى	تألق البرق وسجع الحمام
أو نفحة تعبق من روضة	تحيى من الصب رميم العظام

وحين يستمع إلى ورقاء تبكى يتذكر وطنه، وتلتهب مشاعره، ويحس بالنار تشتعل فى أحشائه، فيقول[3]:

أإن بكت ورقاء فى غصن بان	تصدعت منك حصاة الجنان
وأذكرته من زمان الصبا	طيب المغانى والغوانى الحسان
كيف رمت بالنار أحشاءه	ذات هديل فى رياض الجنان
ماذاك إلا لنوى غربة	قسا عليها الدهر فيها ولان

وتتمثل لنا رهافة مشاعره فى هذه الصورة الرائعة التى رسمها لطائر رآه يغرد على أحد الغصون وقد باتت سوارى الطل تضرب ريشه، فأهاج هذا المنظر بكاءه، وهز مشاعره، يقول[4]:

---

(١) ديوانه ص٣٠٦.

(٢) ديوانه ص٤٥٩.

(٣) المصدر نفسه ص٥٠٥ وما بعدها.

(٤) ديوانه ص١٣٠.

ولقد يهيج لي البكاء صبابة ... شاد مطوق آلة التغريد
باتت سواري الطل تضرب ريشه ... بجواهر لم تدر سلك فريد
غني على عود يميس به كما ... غني التقابل معبد في العود

وينظر ابن حمديس إلى النيلوفر. وقد نبت بعيدا عن وطنه فيقول[1]:

هو ابن بلادي كاغترابه ... كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

وكانت الرسائل هي الرباط الوحيد الذي يصل ابن حمديس بأهله، وكان يجد عزاءه وسلواه في تلك الرسائل، فيبثها لواعجه وآلامه، ويحدث أهله عن أهوال الغربة ومتاعبها، ويؤكد لهم أنه لم يتسل عنهم لا بالسماع ولا بالشراب. يقول في إحدى رسائله[2]:

فلا تحسبوني قد تسليت عنكم ... بطيب سماع أو بكأس مدام
ولا ضحكت سني،وهل ضحكت وما ... وضعت على فض الدموع ختامي

ولقد تقدمت السنون بابن حمديس، وشيبته الغربة، وأصبح يائسا من العودة، وخمدت فيه الجذوة القديمة ولم تبق إلا ذكراها — لا وطن ولا شباب — وهذه هي الغربة الكاملة التي أحسها حينما كبر ولذلك تسمعه في بعض قصائده إذا ذكر الوطن صدر قصيدته بذكر الشيب — وهو غربة عن الزمان الجميل، ثم ثنى الكلام إلى الوطن — وهي غربة عن المكان الجميل — وأصبحت تلك النقلة في الزمان والمكان هي المؤثر الوحيد في نفسه وشعره"[3].

ومن تلك القصائد التي يمزج فيها بين الإحساس بالشيب والإحساس بالغربة قصيدة يقول في مطلعها[4]:

نفى هم شيبي سرور الشباب ... لقد أظلم الشيب لما أضاء

---

(1) ديوانه ص١٨٥.
(2) المصدر نفسه ص٤٣٣.
(3) العرب في صقلية ص٢٥٢.
(4) ديوان ابن حمديس ص٣.

وفى هذه القصيدة يمزج ابن حمديس مزجاً قوياً بين حالة الكآبة التى يعيشها بسبب الغربة والشيب وبين ما يراه أمامه من مظاهر الطبيعة، فيخلع عليها أحاسيسه، ويراها من خلال نفسه، فيرى الأرض ماحلة قاحلة، والظلام حالكا، ويستعين ابن حمديس بالصوت والحركة واللون فى رسم لوحته، فأصوات الرعد تصطك مثل هدير الفحل، والبروق تشتعل على جانبيها، والشاعر يبيت فى ظلمة حالكة على أمل أن يرى الضياء، ونراه يتوسل إلى الرياح بأن تسوق جهام السحاب لكى تسقى ربوع وطنه الذى تمشت إليه الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء، وهنا يبلغ به الحنين منتهاه، ويستبد به الشوق، وتلتهب فى نفسه أحاسيس الغربة، فيرنو ببصره إلى ما وراء الشاطىء ويخاطب البحر قائلاً[1]:

وراءك يـا بحـر لى جـنة ... لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنـا حاولت منها صباحا ... تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى ... إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقـا ... إلى أن أعانق فيها ذكـاء

ومن يقرأ شعر ابن حمديس يلحظ بوضوح أن ظاهرة الحنين إلى الوطن تسيطر على عقله وفكره، وتتغلغل فى أغراض شعره تغلغلاً كبيراً فنراها فى الغزل والمدح والوصف، بل ونراه يستمد منها صوره وتشبيهاته وأوصافه فمن ذلك قوله[2]:

رشأ أحن إلى هواه كأنه ... وطن ولدت بأرضه ونشيت

وقوله[3]:

لقد جنت إلى مثواك نفسى ... كمرزمة إلى وطن تتوق

وقوله[1]:

---

(١) ديوانه ص٤.
(٢) نفسه ص٧٢.
(٣) المصدر نفسه ص٣٣٣.

يقــر قــرار الـــسر عـــندى كأنـــه غريب ديار قال فى وطن: حسبى

الشكوى فى شعره :

كانـت الـشكوى ولـيدة تلـك الظـروف القاسية التى ألمت بابن حمديس فأصبح بعد سقوط وطنه ونزوحه عنه دائم الأسى، كثير الشكوى، ساخطا على الـزمان الـذى انتـزعه مـن أهلـه، وحكم عليه بالتشرد والاغتراب، فيعلن ثورته عليه، ويـصفه بأنـه جـم الخطـوب، ويحـذر المرء مـن غـدره وبطـشه من مثل قوله[2] :

قـف بالتفكـر يـا هـذا علـى زمـن جـم الخطـوب ومـثل صـرفه وقـس
ولا تكـــن عـــنده للـــسلم ملتمـــسا فـالأرى فـى فـم صـل غـير ملـتمس

وكان يتخيل أنه فى معركة مستمرة مع الزمان، ولكنها معركة خاسرة، فالـزمن هـو المنتـصر دائمـاً، ولـيس فـى مقدور أحد أن ينجو من هلكته وفتكه، يقول[3] :

دفعـــت ولم أملـــك دفـــاع ملمـــة إلى زمـن فـى كـل حـين أعاركـه
وجـيش خطـوب زاحـم كـل سـاعة فمـا أنفـس الأحـياء إلا هـو الكـه
فـإن تـنج نفـسى مـن كلـوم سلاحه فـإن برأســى مــا أثــارت ســنابكه

وفى قصيدة أخرى تراه يصب جام غضبه على الدهر الذى لا يكف عن تعنته ولا ينثنى عن تعقبه والكيد لـه. هذا الدهر الذى هزه هزا عنيفا، فانتزعه مـن وطـنه وأهله، وزرع الشيب فى رأسه، وسد عليه الدروب والمسالك، وأحال صفو حياته كدرا. يقول[4].

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب أو قال حسبى من إخمال ذى حسب
لا يلحـــظ الحـــر إلا مـــثلما وقعـــت علـى أخـى سيئات عـين ذى غـضب
وكـــيف يـــصفو لـــنا دهـــر مـــشاربه يخوضـها كـل حـين جحفـل الـنوب

(١) المصدر نفسه ص٣٢.
(٢) ديوانه ص٢٨٥ – ٢٨٦.
(٣) ديوانه ص٣٤٠.
(٤) ديوانه ص١٧.

إن الـــزمان، بمـــا قاســـيت، شـــيبني ولم أشـــيبه، هـــذا والـــزمان أبـــي

موضوعات شعره:

يـشتمل شعر ابن حمديس على أكثر أنواع الشعر المعروفة، ولكنه توسع فـي الوصـف، وبـرع فيه حتى ليقول أمبرتو ريزيتانو أنه كان جديرا بأن يحمل لواء الزعامة بين شعراء هذا الفن[1].

وقـد أمدته البيئة الصقلية بزاد وافر، وأخيلة كثيرة، وكانت منبعا ثريا يستلهم منه ويضفي عليه من روحه وأحاسيسه.

ويكـاد المطلـع علـى ديـوانه يظن أنه لم ير منظرا من مناظر الطبيعة إلا وقـد وصفه وصوره، فقد وصف الطبيعة بكل ما فيها من مظاهر، من سمائها إلى أرضها إلى مائها، ووصف الحياة المتحضرة بما يشيع فيها من مجالس الشراب، والـساقيات، والرقص والغناء والصيد، ووصف قصور الطبقة المترفة وما فيها من زخـارف ونافـورات وفسيفساء، وأمدتـه البيئة الحربية التي عاشها في صقلية بمحـصول وافـر، فوصـف المعارك الحربية والسفن المقاتلة والجيوش والحراقات وآلات الحرب.

ويـتحدث الدكـتور أحمد ضيف عن طريقته في الوصف فيقول[2]: "وله في الوصف براعة معروفة، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات، ودقة فـي جمـع الأشـياء وتنسيقها، كأنما تراه يجمعها وينسقها بيده أو كأنه يغوص علـى المعنـى الخفي فيأتـي بـه ويضعه في موضعه..، وكأنك وأنت تقرأ كلامه تـرى بعينيك ما يصف، وتحس ما يقول، لأنه كان ذا شعور قوي ونظر ثاقب.. ولا تكاد تقف لـه على غور في الوصف، ولا على أسلوب واحد، لأنه يميل إلى الاختراع، وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً أكثر منه خيالياً".

(1) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص١٩٨.

(2) بلاغة العرب في الأندلس ص١٤٠ – ١٤١.

وربما كان أهم ما يميز طريقته فى الوصف أيضاً اهتمامه بوصف الدقائق والجزئيات وميله إلى التفصيل والوصف الهادى البطىء. ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح فى قوله يصف الزرافة[1]:

ودائمة الإقعاء فى أصل خلقها	إذا قابلت أدبارها عين مقبل
تلفت أحياناً بعين كحيلة	وجيد على طول اللواء مظلل
وعرف دقيق الشعر تحسب نبته	إذا الريح هزته ذوائب سنبل
تنفس كبراً من يراع مثقب	فتعطى جنوباً منه عن أخذ شمأل
وتنفض رأساً فى الزمام كأنما	تريك له فى الجو ثقفة أجدل

وقد انعكست حالته النفسية على طريقته فى الوصف؛ فكان لا يقتصر على موضوع واحد يضمنه القطعة الشعرية، ولكنه كان ينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن وصف إلى وصف، كأن يصدر قصيدته بالغزل، ثم ينتقل إلى وصف الخمر، ثم يعرج على وصف الصحراء والسيف والخيل، وقد ينتقل من وصف المحسوس إلى وصف المعقول أو يتدرج من المعقول إلى المحسوس، بل من الناحية النفسية قد ينتقل من الرضا والاستسلام إلى القلق والاضطراب حتى لتكاد تلمس منه أحياناً رائحة التشاؤم وتلحظ ملامح الملل والقلق واضحة فى نفسه[2].

الطبيعة فى شعره:

فتن ابن حمديس بالطبيعة فتنة كبيرة ويقول الدكتور سيد نوفل إن هذه الفتنة كانت طبيعية فى شاعر نشأ بصقلية الجزيرة الجميلة، ورحل إلى الأندلس المشرقة، وعاش فى عصر أقبل الشعراء فيه على مباهج الطبيعة يمتعون النفس بها، ويملؤنها بشرا باستجلاء محاسنها[3].

---

(1) ديوانه ص٣٨١.

(2) ابن حمديس الصقلى لعلى مصطفى المصراتى ص٣٨.

(3) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص٢٧٥.

وتبدو فتنته بالطبيعة فى مواضع كثيرة من ديوانه، فقد وقف عند الأنهار والغدران والأشجار والرياض والأزهار وغيرها من مشاهد الطبيعة. وتبدو الفتنة بالطبيعة كذلك حين يدخل أوصافها فى أغراض الشعر الأخرى، فيصف الطبيعة فى الغزل، بل يصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ويصفها فى المدح بل أكثر شعره المدحى مصبوغ بصبغة الطبيعة، ويصورها قوية فى الحماسة والفخر ويصورها حزينة باكية فى الرثاء"[1].

ومن الأمثلة التى توضح فتنته بالطبيعة وشغفه بها هذه القصيدة التى يقول فى مطلعها[2]:

نثر الجو على الأرض برد	أى در لنحور لو جمد

وفيها يصف البرد المتساقط من السماء، ويتخيله قد تحول إلى لؤلؤ يحلى صدور الغيد، ثم يصف ذوبان البرد على الأرض، وجريانه فى سيول كأنها ثعابين تجرى مسرعة، ويصف امتلاء الغدران به، ويشبه الزبد الذى يعلوها بقوارير سابحة ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف البرق فيشبهه فى اختفائه ولمعانه بالسيف حين يستل وحين يغمد وهو فى أثناء ذلك يفتن فى توليد المعانى والصور بقول ابن حمديس واصفا البرد[3]:

لؤلؤ أصدافه السحب التى	أنجز البارق منها ما وعد
منحته عاريا من تكد	واكتساب الدر بالغوص نكد
ولقد كادت تعاطى لقطه	رغبة فيه كريمات الخرد
وتحلى منه أجيادا إذا	عطلت راقتك فى حلى الغيد
ذوبته من سماء أدمع	فوق أرض تتلقاه بخد
فجرت منه سيول حولنا	كثعابين عجال تطرد
وترى كل غدير متألق	سبحت فيه قوارير الزبد

(1) نفسه ص٢٧٥ وما بعدها.

(2) ديوانه ص١١٧.

(3) نفسه ص١١٧.

خمرياته :

أبدع ابن حمديس فى وصف الخمر إبداعاً كبيراً، وتفنن فى وصفها، وتغنى بها كثيراً فى شعره، وانفعل إزاءها انفعال العاشق أمام معشوقته الجميلة، فنراه يذكرها وكأن الناس جميعا سكارى، وفى كل رأس نشوة وحيرة، وكأن الخمر حلال لا حرام، أو كأنها أكمل شىء فى الوجود، والقارىء يثمل بذكر الخمر كما يثمل بأسلوب الشاعر وعذوبته. وكأن أحدا لم يقل مثله فى ذلك ويخيل إلينا أنه لم يترك صفة من صفات الخمر إلا ذكرها ولا معنى من معانيها إلا قاله[1]، فقد وصف الساقى والكأس ومجالس الشراب ووصف الراهبة فى الدير وهى تبيع الخمر، ووصف الخمار، وأفض فى وصف الخمر نفسها، فوصفها بالقدم والعتاقة وبأن الزمان أبلى جسمها لا روحها ولم يستطع أن يسلبها أرج المسك، ولون العسجد، وتحدث عن تطوافها العصور والأحقاب، وامتزاجها بالماء وأكثر من تشبيه الحباب الذى يطفو فوقها بالشباك. يقول فى إحدى خمرياته[2]:

هاتها صفراء ما اخترت لها	أفق الشمس على أفق يدى
خارج فى راحتى مقتنص	كل هم كامن فى خلدى
جرد المزج عليها صارما	فاتقته بدموع الزبد
عتقت ما عتقت فى خزف	بـرداء القـار فيه ترتدى
حيث أبلى جسمها لا روحها	مر أيام الزمان الجدد
ما أطاق الدهر أن يسلبها	أرج المسك ولون العسجد

وقد لاحظ الدكتور سيد نوفل أن ابن حمديس تتوثق الصلة عنده بين الطبيعة والخمر، فهى تجلى محاسن الطبيعة أمامه، وتثير بوضوحها وبغموضها إلى الخمر، فقد شرب عند طلوع الفجر، وشرب عند تنفس الصبح،

(1) بلاغة العرب فى الأندلس ص١٤٦.

(2) ديوان ابن حمديس ص١٣٩.

ودعـا إلى الشراب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغودى من ثغور الأقاح، وشرب فـى حديقـة فـواحة الزهـر مخضلة تجودها السحب كل يوم، وتنظم فيها أكف الغمـام جمانـا لا تـنظمه أكف الإنسان، وشرب عند المغيب والشمس تلبس عند المغيب نقابـا، والقطـر يـنظم للـروض عقـود الـلآلىء، ودعـا إلى الشراب ونسيم الرياض زكى عليل، وعلى مرأى من النارنج ذى الشكل البديع، وبجانب بركة النيلوفـر باحمـرارها واخـضرارها كأنمـا أخـرجت أزهارهـا من الماء ألسنة النار. وهكـذا لاحق الطبيعة بالخمر فى جميع الأوقات والأحوال الطبيعية، وأبان عن فتنته بالطبيعة فى مظاهرها المختلفة[1].

ونستطيع أن نتلمس تلك الصلة بين الخمر والطبيعة فى مثل قوله[2]:

طـرقت والليل ممـدود الجـناح	مـرحبا بالـشمس فـى غـير صـباح
فالقـضيب اهتــز، والـبدر بـدا	والكثـيب ارتــج، والعنـبر فــاح
والثـريا رجــع الجــو بهـــا	كـابن مـاء ضـم للوكـر جـناح
وكـأن الغـرب مـنها ناشــق	باقــة مـن يـاسمين أو أقــاح
وكـأن الـصبح ذا الأنـوار مـن	ظلـم الليل علـى الظلمـاء صـاح
فاشـرب الخمــر ولا تخــل يــداً	مـن يـد اللهــو غـدوا ورواح

وقـد نحـس بالـروح النواسـية فـى بعض خمريات ابن حمديس، ولكنه ربمـا يتميز عنه بميزة واضحة، فإذا كان الشاعران قد فتنا بالخمر، وهاما بها، وأفاضـا فـى وصـفها فـإن إعجـاب ابـن حمـديس بهـا لم يدفعـه إلى التهتك أو الاستخفاف بالعقيدة، وأقصى ما نجده له هو قوله يرد على من يلومه فى شرب الخمر[3]:

يـا لائمـى فـى الـراح كـم سـيئة	تجــاوز الغفــار عــنها وصـــفح

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص٢٧١ - ٢٧٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٨٢ - ٨٤.
(٣) ديوانه ص٨٨.

ويبدو أن مأساة ابن حمديس ونزوحه عن بلاده قد جعلته يزهد فى الخمر، ويعزف عنها، فأصبح يقف إزاءها موقف المتفرج أو موقف من يدعو إلى الحرب ثم لا يشارك فيها أو يصطلى بنارها، ويتضح ذلك فى قوله[1]:

أصف الراح ولا أشربها ... وهى بالشدو على الشرب تدور
كالذى يأمر بالكر ولا ... يصطلى نار الوغى حيث تفور
فسواء بين إخوان الصفا ... وذوى اللهو، مغيبى والحضور

غزله :

وغزله فى معظمه انعكاس صارق لحياته وتجاربه فى صقلية، فقد أتاحت له تلك الحياة برغم قصرها أن يتردد على الحانات والأديرة وأن يغشى مجالس اللهو والمجون، وأن يستمتع بأمسيات سرقوسة الساحرة، فاختلط بالفتيات المسيحيات، واندمج مع الجوارى والقيان، فجاء غزله معبرا عن تجاربه مع هذا النوع من النساء.

فهو لا يتغزل فى الحرائر إلا نادرا، ولكنه يتغزل فى أغلب الأحيان فى امرأة لعوب، تجيد المطل والتسويف، وتفتن فى أساليب الخداع، وتعرف كيف تعبث بقلوب الرجال، وتستبد بعقولهم. إنها كما يصفها ابن حمديس[2]:

سريعة غدر سيفها فى جفونها ... وهل لك سلم عند من خلقت حربا

ويصف مماطلتها وتسويفها فيقول[3]:

غادة إن نيط منها موعد ... بغد فر إلى بعد غد
هكذا عندى يجرى مطلها ... بخلاف عندها مطرد

ويصف تلاعبها به واستبدادها بقلبه فيقول[4]:

وكأننى لعبة فى يدها ... مالها تتلف جدى بالمزاح

---

(١) المصدر نفسه ص١٩٨.

(٢) ديوانه ص٥٠.

(٣) المصدر نفسه ص١٣٨.

(٤) ديوانه ص٩٦.

ويصور في غزله تجاربه مع بعض المغنيات، فمن ذلك قوله[1]:

ولمــا تلاقيــنا تكلــم مقــول ... بســر الهــوى مــنها، ومنــي مدمــع
شــكوت ونطــق بيــنـا فلأيــنا ... يبرح الجوى في مذهب الحكم يقطع
ومالــت إلى تأنيــسنا بعــد وحــشة ... بأجــوف لم تخلــق لجنبــيه أضــلع

ويمزج ابن حمديس بين الحب والحرب دائماً ويجعلهما صنوين، فالحب هو الوغى بعينه بما فيه من نزال وسفك دماء وصراع. ويعبر عن هذه المعاني فيقول[2]:

وذي جهلــة بالحــب أعلمــته بمــا ... ثــناه عذيــري بعــدما كــان عــاذلي
وقلــت لــه إن الهوى لأخــو الوغــى ... ولابــد فــيه للفتــى مــن مــنازل

ولابن حمديس بعض مقطعات غزلية تحتوي على قدر كبير من صدق العاطفة، ونحس بأنها صادرة عن قلب ملتاع ذاق طعم الهوى واكتوى بناره، فمن ذلك قوله متغزلا في فاتحة ديوانه[3]:

إلى متــى مــنكم هجــري وإقصائي ... و يلــى وجــدت أحبائــي كأعدائــي

وفيها يقول[4]:

إنــي لجمــر وفــاء يستــضاء بــه ... وأنــت بالغــدر تخــتارين إطفائــي
مــا فــي عــتابك مــن عتبــى فأرقــبها ... هــل يــستدل علــى سلم بهــيجاء
ولا لــوعدك إنجــاز أفــوز بــه ... وكــيف يــروى غلــيلا آل بــيداء

ويقول في قصيدة أخرى[5]:

أصــبحت عــندك أرتجــي وأخــاف ... مــا هكــذا يــتألف الآلاف
يــا كــيف بــات علــى قلبك جامــداً ... يقــسو فلــيس يلينــه اســتعطاف
لم تنــصفيني فــي معاملــة الهــوى ... وأعــز شــيء فــي الدمــى الإنــصاف

---

(1) نفسه ص٣٠٣.
(2) ديوانه ص٣٩٤.
(3) نفسه ص١.
(4) ديوانه ص٢.
(5) ديوانه ص٣١٥.

زهده :

وإذا كان ابن حمديس قد أطلق العنان لنفسه، وخلع عذاره فى الهوى، وانغمس فى اللهو فى صدر شبابه، فإنه لم يلبث أن عاف هذا اللون من الحياة بعد هجرته عن وطنه، ومال فى أخريات حياته إلى الزهادة والنسك، وأظن أن ثمة عاملين كان وراء زهد ابن حمديس أولهما: إحساسه الدفين بالضياع بعد أن فقد أهله ووطنه، وثانيهما: إحساسه بالمشيب، وبأنه وصل إلى نهاية المطاف من العمر، وهذه حالة عامة تعترى الناس جميعا فى أخريات حياتهم بيد أن هذا الإحساس كان قوى الأثر فى نفس ابن حمديس، فنراه كلما قطع مرحلة من العمر وقف يتألم ويشكو، فعل ذلك وهو فى الخمسين، والستين، والسبعين، ثم حين أشرف على الثمانين.

ويشتمل شعره الزهدى على تلك الأفكار المعانى العامة التى تنتظم شعر الزهد ويرددها شعراؤه، فهو يحذر من الاغترار بالدنيا، ويذكر بالموت، والمصير الذى ينتظر الإنسان، ويكثر من الإنابة والاستغفار، ويلوم نفسه على ما كان منها، ويلائم بين هذه الأفكار وبين تعاليم الدين ولا نرى فى شعره الزهدى أى أثر من آثار الأفكار الأجنبية ومن شعره الزهدى قوله وهو فى السبعين[1]:

وعظتك بلمتك الشائبة	وفقد شبيبتك الذاهبة
وسبعين عاما ترى شمسها	بعينك طالعة غاربة
وغرتك دنياك إذ قوضت	إليك أمانيها الكاذبة
أصاحبة خلتها؟ إنها	بأحداثها بئست الصاحبة
فيا حاضرا أبدا ذنبه	وتوبته أبدا غائبة
أذب منك قلبا تجارى به	سوابق عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا	وأتعب إثباته كاتبه
عسى الله يدرأ عنك العقاب	وإلا فقد ذمت العاقبة

---

(1) ديوانه ص٤٠ وما بعدها.

موقفه من شعر الهجاء :

ولا نعثر في ديوان ابن حمديس على قصيدة واحدة في الهجاء، ويبدو أنه اختار هذا المذهب عامدا، وكانت حجته في ذلك أنه لا ينبغي على المسلم أن يجرح أخاه المسلم، وقد أشار إلى ذلك فقال[1]:

يقولون لي: لا تجيد الهجاء	فقلت: ومالي أجيد المديح
فقالوا : لأنك ترجو الثواب	وهذا القياس لعمري صحيح
فقلت صفاتي، فقالوا حسان	فقلت : نسيبي فقالوا مليح
فقلت إليكم فلي حجة	وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان مقال الجميل	وفسق اللسان مقال القبيح
ومالي ومالامرىء مسلم	يروح بسيف لساني جريح

وقد التزم ابن حمديس بهذا المبدأ طوال حياته، فلم يعرف عنه أنه هجا أحدا، أو انزلق في معارك هجائية مع أحد بالرغم من أنه كان يتعرض للهجاء من قبل بعض الحاقدين ولو شاء لانصب عليهم شواظا من نار، ولانتصر عليهم بلسان حاد يحيل على الأعراض حد السكاكين، وقد أشار إلى ذلك فقال[2]:

وما أنا ممن يرتضي الهجو خطة	على أن بعض الناس أصبح يهجوني
ولو شئت يوما لانتصرت بمقول	يحيل على الأعراض حد السكاكين

مذهبه الشعري :

يعد ابن حمديس من الشعراء القلائل الذين أكثروا من الفخر بشعرهم، وأشاروا إلى طريقتهم أو مذهبهم في نظم الشعر. وقد افتخر بشعره فقال[3]:

والشعر أجدت بمعرفتي	تأنيس غرائبه الشرد

---

(١) ديوانه ص٩٤.
(٢) ديوانه ص٥١٥.
(٣) نفسه ص١٦٢.

ثم يقول :-

فبغام الرئم حلاوته وجزالته زأر الأسد
وبدلة أهل السبت قضى ويدل له أهل الأحد

ويرى ابن حمديس أن شعره هو الشيء الوحيد الذى لم يستطع الزمان أن ينال منه أو يهدمه، ويشير إلى أنه ظل متوقد الشاعرية حتى وهو طاعن فى السن فيقول[1]:

إنى امرؤ أبنى القريض ولا أرى زمنا يحاول هدم ما أنا بانى
ولقد شأوت الريح فيه مسابقا من بعد ما أمسكت فيه عنانى
وطعنت فى سن الكبير وما نبا عن طعن شاكلة البديع سنانى

ويستدل من شعر ابن حمديس على أنه كان يميل إلى الشعر المطبوع لا المصنوع أو المتكلف، وكان يرى أن القليل الموجز خير من الكثير المسهب ويشير إلى ذلك فيقول[2]:

وصلت يدى بالطبع فهو عقيرها فقليل إيجازى كثير المسهب

ويفهم من شعره أيضاً أنه لم يكن يميل إلى الإسراف فى البديع، وإنما كان يأخذ منه بقدر ويميل إلى التوسط فى استعماله، ويشير إلى ذلك فيقول واصفاً إحدى قصائده[3]:

رجحت بقسطاس البديع وإنها لخفيفة الأرواح والأجساد

ونرى فى شعر ابن حمديس بعض إشارات إلى قضية اللفظ والمعنى ورأيه فيها يتفق مع رأى عامة النقاد، فيرى أن المعنى أشبه بالروح، واللفظ أشبه بالجسد، ولا يمكن لأحدهما أن يكون بدون الآخر، ويشير إلى ذلك فيقول[4]:

روح معناك جسمه منك لفظ وعلى كل صورة يتصور

---

(١) ديوانه ص٥٠١.
(٢) المصدر نفسه ص٥٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص١٤٨.
(٤) ديوانه ص٢٠٤.

ويكـرر هذا الرأى فى موضع أخر فيقول إن المعنى لا يصلح إلا إذا صلح اللفـظ، ولـيس لأحـدهما فائـدة بـدون الآخـر، ويـشبه المعنـى بـالعين، واللفـظ بالكحـل، فالكحل لا يفتن الأبصار إلا إذا اكتحلت به العين، وبدونها لا تكون له قيمة أو فائدة، ويعبر عن ذلك بقوله[1]:

حـرر لمعنـاك لفظـا كـى تـزان بـه وقـل مـن الـشعر سـحرا أو فـلا تقـل
فالكحـل لا يفـتن الأبـصار منظـره حتـى يـصير حـشو الأعـين الـنجل

ومـثل هذه الآراء المتناثرة تدل على أن ابن حمديس قد أخذ نفسه بقدر لا بـأس بـه مـن الـثقافة الـنقدية، وعلى تأثره بالثقافة النقدية التى شاعت فى عصره.

التصوير فى شعره:

يهـتم ابـن حمـديس بالتـصوير فى شعره اهتماماً كبيراً، ولعله من أكثر الـشعراء احـتفاء بالـصورة الشعرية، فقد بلغت على يديه حداً كبيراً من الجودة بما كان يوفره لها من عناصر التخييل والتجسيم.

وقد برع فى تمثله لمعانى القدماء وأشعارهم، وتميز بقدرته العجيبة على التولـيد والابـتكار، فكان يغوص على المعانى غوصاً بعيداً، ويحور فيها، ويولد مـنها صـوراً جديـدة، ويتصرف فى التشبيهات والاستعارات ويجد فى البحث عن كل ما هو مبتكر أو طريف وهذا هو ما عناه ابن بسام بقوله إنه "شاعر ماهر يقرطس أغراض المعانى البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف فى التشبيه، ويغوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب"[2].

ولـيس المقـصود "بالقرطسة" التى ذكرها ابن بسام أن يغير الشاعر على المعانى وينقلها نقلا حرفياً، ولكن المقصود بها هو قدر الشاعر على عرض المعنى فـى ثوب جديد، وفى هيئة جديدة، وعرضه عرضا حسنا، ولا يحول ذلك دون

---

(١) ديوانه ص٤٠١.
(٢) الذخيرة ٣/٤/ ورقة ١١٥.

أن يكرر هذا المعنى فى عبارة أخرى، فهو تعبير موجز، مكرر تكراراً يؤكد المعنى ويزيده وضوحاً، فإذا أردنا مثالا لذلك وجدناه فى كيفية استغلال هذا الشاعر لقول البحترى:

وبى ظمأ لا يمسك الماء دفعه   إلى نهلة من ريقها البارد العذب

فقد أحسن عرضه، ويسر تناوله، وبلور معانيه عندما قال:

بت منها مستعيداً قبلا   كان لى منها على الدهر اقتراح
وأروى غلل الشوق بما   لم يكن فى قدرة الماء القراح

وهذا ما يقصده ابن بسام بقرطسة المعانى[1].

ولم يكن ابن حمديس يدخر وسعا فى سبيل إتقان صنعته وتحسينها فكان يسخر لذلك كل إمكانات الصورة وعناصرها من ألوان وظلال وحركة وفى ذلك يقول مارتينو ماريو: "إن أشعار ابن حمديس لوحات لا يعتنى فيها الرسام بتبديل المواضيع قدر ما يعتنى بإتقان صنعته، وليس هذا الإتقان عنده الضبط فى مد خطوط الصور، بل تأثيره مبنى على اللون، وليس على الألوان الصارخة بل على التدرجات اللونية الخفيفة، ووراء اللوحة موسيقى دائمة الألحان، وفى طى الانطباعات البصرية والسمعية انطباعات رقيقة تلاطف باقى الحواس"[2].

وقد تلزمه دقة التصوير العناية بمواد أخرى، كمراعاة الزمان والمكان واللجوء إلى التفاصيل وذكر الجزئيات والإكثار من التشبيهات، وتفصيل المنظر الواحد وتجزئته على نحو ما يتمثل فى قوله يصف سيفا[3]:

وينجدنى على الحدثان عضب   ـه من عارض المهجات صابا
كأن عليه نار القين تذكى   فلولا ماء رونقه لذابا
كأن شعاع عين الشمس فيه   وإن كان الفرند به ضبابا
كأن الدهر شيبه قديما   فمازال النجيع له خضابا

---

(١) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص٨٥.
(٢) المسلمون فى صقلية، مارتينو ماريو ص٤٧.
(٣) ديوانه ص١٦.

كـــأن ذبابـــه شـــادى صـــبوح يحـــرك، إن ضـــربت بـــه رقابـــا

فقد استطاع ابن حمديس فى هذه الأبيات أن يجزىء صورة السيف، ويفصل فيها، ويرقص بنظره عبر أجزائها مستعيناً فى ذلك بعناصر اللون والحركة، معتمداً على تعدد التشبيهات، مع استخدام أداة تشبيه واحدة.

ومن الجوانب الطريفة التى يستعين بها ابن حمديس فى إتقان صنعته وتصويره، خاصية يمكن أن نسميها "تبادل الحواس" أو "تقارض الحواس"، ويقصد بها أن تأخذ حاسة ما وظيفة أخرى، كأن تسمع العين أو يلمس النظر أو يسمع الذوق أو ترى الأذن وهكذا[1].

ويقول الدكتور محمد مندور إن فكرة المزج بين وظائف الحواس والخلط بينها تجسدت ووضحت عند الرمزيين الذين لا يخصصون كل حاسة لما وجدت له، ولا يعطونها وظيفتها الطبيعة المعروفة، بل إنهم يستعملون تعابير تخلط بين الحواس فيقولون مثلا بأنهم يسمعون حوافر الخيل، أو بأنهم يرون صوت انسياب النور من المصباح[2].

ولعلنا لا نجد شاعرا توسع فى استعمال هذه الظاهرة على نحو ما فعل ابن حمديس، فنراه يكلف بها كلفا عجيباً ويكثر من استخدامها إكثاراً ملحوظاً فمن ذلك قوله يراسل بين النظر والسمع[3]:

وكـــل امـــرىء قـــد رأى سمعـــه ذهابـــاً مـــن الأمـــم الماضـــية

ونراه يعطى العين وظيفة السمع كما فى قوله[4]:

كـــأن لـــه فـــى أذنـــه مقلـــة يـــرى بهـــا اليـــوم أشخاصـــا تمـــر بـــه غـــدا

وقوله[5]:

---

(1) تطور الأدب الحديث فى مصر للدكتور أحمد هيكل ص٣٦٤.

(2) فن الشعر للدكتور محمد مندور ص٦٤.

(3) ديوانه ص٥٢٢.

(4) نفسه ص١٤٤.

(5) ديوانه ص٣٨٧.

كم سامع بالعين من آلامه | قيلا بأفواه الدموع وقالا

وقوله[1]:

وصفت حسنك للسالي فجن به | كأن للسمع منه رؤية البصر

ونراه يبادل بين السمع والذوق فيقول[2]:

تحدثني بالسر في ثني ساعدي | فيسمع نجوى السر من فمها فمي

ويبادل بين النظر واللمس فيقول[3]:

كأني من البعد إذ شمته | جسست بعرقي عرقا نبض

كما بادل بين السمع والشم في قوله يصف خمارا[4]:

لا يسمع الأنف من نجوى تأرجها | إلا دعاوى بين الطيب والزهر

شاعريته :

يعد ابن حمديس أعظم شعراء صقلية، وقد أثنى عليه النقاد وأصحاب التراجم، فقال عنه ابن سعيد إنه "أعظم شعراء صقلية"، وأحسنهم معاني، وأحقهم بالطبقة العالية، وقد وفد على المعتمد بن عباد، وتقدم له هنالك من الشعر ما يعنون على طبقته"[5].

وأفاض ابن فضل الله العمري في الإشادة به، والثناء عليه، فقال: "صباح لا تصدئه الغياهب وقراح لا تكدره الشوائب، وجواد لا تلزه السوابق، وسحاب لا تهزه البوارق، لا يتساقط غصنه المثمر، ولا يبهم جنح ليله المقمر، طريقه قل من سلكها، وجل من بوأ قمره المنير فلكها"[6].

(١) نفسه ص٢٧٢.

(٢) نفسه ص٤٠٨.

(٣) المصدر نفسه ص٢٩٣.

(٤) المصدر السابق ص٢٠٥.

(٥) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد "مخطوط" ٤/ورقة ٣٥٤.

(٦) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - السفر السابع عشر "في ذكر الشعراء المغاربة" - المكتبة الصقلية ص٦٥٣.

وقد عرفه صاحب كتاب (من أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك) بأنه "ذو الوزارتين"[1] وانفرد بهذا الخبر دون غيره، وفى ذلك ما يدل على ما حققه من منزلة وشهرة فى بلاط المعتمد، وقد وصفه هذا المؤلف بأنه "كان أوحد دهره وفريده، لا يجارى فى حلبة علم، ولا يمارى فى ميدان حرب ولا سلم، ولا يمارى فى نشر حكم، وكان ذكره بين الفضلاء والعلماء مشهورا كالعلم، وكان شاعراً مفلقاً مجيداً"[2].

وقد أشاد به أبو الصلت فى الحديقة فقال: "كان ابن حمديس جيد السبك حسن الأخذ"[3] ولكنه وقف طويلا عندما ظن أنه سرقات زاد فيها على المسروق، وتدل الأبيات التى أوردها على أنه لم يكن ينقل عن غيره نقلا حرفياً وإنما كان يعيد صياغة بعض المعانى صياغة قديمة على نحو ما أشرنا من قبل وهذا من حقه هو وغيره من الشعراء إذ يتعاورون موضوعات ومعانى مشتركة، فلا بأس أن يفيد كل منهم من سابقيه، وأن يحتذى فى بعض شعره على مثال موروث، مادام يحسن عرضه، ومادام يخرج عن القالب القديم إلى قالب له جديد، إذ تصبح المعانى كالعملة تتفق فى المعدن، وتختلف فى طريقة الضرب وهيئة الصور بين بلد وبلد، وقطر وقطر[4].

وكان ابن حمديس يحتل مكانة طيبة فى نفوس معاصريه من الشعراء، ووجد من بينهم من تأثر به وحاول أن ينسج على منواله، وقد أشار ابن حمديس نفسه إلى ذلك، وضرب مثلا بالشاعر الأندلسى أبى تمام غالب ابن

---

(١) كتاب "من أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك فى طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية" للملك المنصور صاحب حماة – المكتبة الصقلية ص٦١٢.

(٢) المكتبة الصقلية ص٦١٢.

(٣) خريدة القصر ١٩٦/٢ "ط. تونس".

(٤) د. شوقى ضيف – ابن زيدون – ص٣٩.

رباح، الغالب على اسمه الحجام، فقال إنه كان يغير عليّ في المعانى وينتزعها منى[1].

ونجد شاعرا آخر مثل رفيع الدولة بن المعتصم يتأثر به، ويحاول ان يحتذيه فى بعض قصائده من مثل قوله[2]:

باكــر إلى القــصف أبــا عامــر	فإنمــا نجــح الفتــى فــى البكــر
مــن قــبل أن يمــسح كــف الــصبا	دمـع الغـوادى فـى خـدود الزهـر

وواضح انه متأثر بقول ابن حمديس:

باكـر إلى اللـذات واركـب لهـا	سـوابق اللهـو ذوات المـراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى	ريـق الغـوادى مـن ثغـور الأقـاح

وإذا كان هذا هو ابن حمديس فى نظر القدماء فما هى نظرة المحدثين إليه؟ إن ما كتب عن ابن حمديس قليل لا يروى ظمأ الدارسين، ولا يتلاءم مع قدره ومنزلته، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأنه يحتل مكانة مرموقة فى نظر الباحثين القلائل الذين كتبوا عنه، فقد عده عبدالمنعم خفاجة من أعلام الشعراء العرب، وذهب إلى أنه قد سبقهم إلى "الواقعية" بمعناها العلمى الحديث، لأنه يكثر فى قصائده من الحديث عما يجول بالنفوس، وما كان يشعر به من آلام الحياة وأحداثها، وما كان يعتريه من حيرة وشك، وسخط على الحياة حينا، ومن أمل وتفاؤل وثقة بها حينا آخر. كل ذلك مع البراعة فى التعبير ومع تمثيل حركات نفسه وعقله، ومع اجتماع قوة الفكر وسعة الخيال فى قصائده، فهو شاعر وجدانى مفكر، فى طليعة الشعراء المفكرين من العرب[3].

وقد سبقه إلى هذا الرأى الدكتور أحمد ضيف فقال "وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيرا فى الشعر العربى، تلك الصبغة هى محاولة الخروج من

---

(1) ديوان ابن حمديس ص١٦٩.

(2) الحلة السيراء لابن الأبار ٩٥/٢.

(3) قصة الأدب فى الأندلس ص٣٥٩.

الوجدانيات التى هى أكبر مظاهر الشعر العربى إلى الكلام عما يجول بالنفوس لا من جهة الخيال وما به من الجمال لاغير. بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الإنسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها"[1].

ويميل المصراتى إلى مثل هذا الرأى فيقول إن ابن حمديس "لم يكن من شعراء الحواس المطرزة والصور اللفظية المنمقة. ولم يكن مجرد وزان ومقفى تفعيلات يقتطع الأوزان ويتصنع التفاعيل. فهو من الذين رسموا للشعر العربى طريقا سهلا، وطوروا الصور النفسية فيه"[2].

وليس فى هذه الآراء شىء من المبالغة أو تجاوز الحقيقة بل لعلنا لا نسرف فى القول إذا ظننا أنها أقل بكثير من منزلة ابن حمديس ومكانته الحقيقية، فقد كان هذا الشاعر طرازا فريدا من الشعراء فى حبه لوطنه وولائه له، وفى خروجه بشعره إلى آفاق إنسانية رحبة، وفى عنايته بفنه وإتقانه لصنعته وإذا أردنا أن نحكم على شاعريته فلن نجد ما هو أكثر صحة وصدقا من قول ابن حمديس نفسه[3]:

كم من قواف كالشوارد صرتها	عن مثل جرجرة الفنيق المصعب
ودقائق بالفكر قد نظمتها	ولو انهن لآلى لم تثقب
لو أننا طير لقيل لخيرنا	غرد وقيل لشرنا لا تنعب
وإذا اعتقدت العدل ثم وزنتنى	رجحت حصاتى فى القريض بكبكب

---

(١) بلاغة العرب فى الأندلس ص١٣٣.

(٢) ابن حمديس الصقلى لعلى مصطفى المصراتى ص٥٨.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٥٣٨- ٥٣٩.

أبو الحسن بن الخياط

ولد أبو الحسن على بن محمد بن الخياط الربعى فى جزيرة صقلية فى أواخر القرن الرابع الهجرى وعاش حتى شهد أحداث الفتنة الأخيرة التى انتهت بسقوط صقلية. ويرجح أمبرتو ريزيتانو أنه انتقل إلى القيروان بعد الفتنة[1] ولكننا نفتقر إلى ما يؤيد هذا الرأى إذ أن المصادر ضنت علينا بما يمكن أن يكشف النقاب عن حياته، ولولا تلك الصداقة التى كانت بينه وأبى الطاهر التجيبى البرقى صاحب شرح المختار من شعر بشار، والتى جعلته يحتفظ له فى كتابه بقدر لا بأس به من شعره، لأصبح هذا الشاعر فى زوايا النسيان مثل كثير من الشعراء الصقليين الذين تجاهلتهم المصادر.

وقد عاش ابن الخياط فى العاصمة بلرم، وتزود بالثقافة العربية كغيره من الشعراء، فدرس اللغة والأدب على شيوخ عصره، وحفظ أشعار الأولين، وبعد أن استوى عوده، ونضجت قريحته، اتصل بالأمراء الكلبيين، فمدحهم، وأخلص لهم، وكان عندهم عالى القدر، نابه الذكر. وظل على ولائه لهم حتى أسقطتهم الفتنة، فانضم إلى بلاط الأمير ابن الثمنة أمير بلرم، ومدحه وعاش فى كنفه.

وإذا كان ابن حمديس قد مثل صقلية فى نكبتها، فان ابن الخياط استطاع أن يمثلها فى عظمتها أيام حكم أسرة الكلبيين الذين ازدهرت فى عهدهم الفنون والآداب، وتحققت على يديهم كثير من الفتوحات.

وقد اتصل ابن الخياط بعدد كبير من هؤلاء الأمراء، فمدح أولا ثقة الدولة ثم مدح أربعة من أبنائه هم: الأمير جعفر الملقب بتاج الدولة وسيف الملة، ثم الأكحل الملقب بتأييد الدولة وقد تولى هذان الأميران حكم صقلية بعد

---

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٨٩.

أبيهما، ثم مدح اثنين آخرين من أبناء ثقة الدولة هما الأمير على، والحسن الملقب بصمصام الدولة، ونستدل مما أورده التجيبى من شعره على أنه مدح أمراء آخرين من أسرة بنى كلب مثل الأمير مستخلص الدولة، وابنه انتصار الدولة، وغيرهما ممن أغفلتهم مصادر التاريخ والأدب.

وقد سجل ابن الخياط فى مدائحه للأمراء الكلبيين بعض الحوادث التاريخية، وأشار إشارات عابرة إلى معارك وفتن لم توافنا المصادر بتفاصيلها، من أجل هذا نعتبر مقطعات ابن الخياط الشعرية من أهم المصادر التى تزودنا بأخبار تتعلق بهؤلاء الأمراء والولاة[1].

شعره وشاعريته:

يعد ابن الخياط من أبرز شعراء صقلية، وقد أشاد به ابن القطاع فى الدرة فوصفه بأنه "شاعر فصيح اللسان، مشهور بالإحسان، وحدة الجنان وجودة البيان، ماهر فى اللغة والأدب حافظ لأشعار الأولين، وكان يشبه فى عصره بجرير فى دهره"[2].

وتدل أشعاره التى ذكرها التجيبى على أنه كان يسلك سبيل غيره من الشعراء الصقليين، ويحذو حذوهم فى موضوعاتهم وأساليبهم، فقد تغزل ووصف الخمر وهام بالطبيعة ولكنه قد يتميز عنهم بالإكثار من شعر الحكمة مما جعل د. إحسان عباس يرى أنه شاعر ذو مذهب فى تأمل الحياة[3]. ولكن ما لدينا من حكمه لا يجعلنا نرى مثل هذا الرأى، فهى حكم سطحية ليس فيها تعمق أو تفلسف، وأكثرها يحمل طابع النصائح والمواعظ والدعوة إلى القناعة ونبذ الطمع والرضا بما قسمه الله على نحو ما يتمثل فى قوله[4]:

---

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٨٨ - ٨٩.

(2) عنوان الأريب ١/١٣٢.

(3) العرب فى صقلية ص٢١٦.

(4) شرح المختار من شعر بشار ص١٩٨.

وما طمع الإنسان إلا مذلة ... ومن قنع استغنى وإن لم ينل وفرا

ونراه يكثر من الحديث عن الصداقة والأخوة وحسن الجوار من مثل قوله[1]:

لا ينفع الجيران أن يتجاوروا ... مالم يكن بين القلوب جوار

ويقول في المعنى نفسه[2]:

من لم تدانك من قلب مودته ... لم يدنه منك قرب الدار بالدار

ويأتي الغزل في المرتبة الثانية من شعر ابن الخياط، ولعل أهم ما يلفت نظرنا فيه أنه يمتزج بالطبيعة امتزاجا قويا بحيث يصعب التمييز بينهما، فالمرأة عنده روضة غناء يمتزج فيها الخد بالورد، والثغر بالأقحوان، ويتألق السوسن الغض ناعما خضلا على جيدها، ويكاد ماء النعيم يقطر من محياها. ونستطيع أن نلمس هذه المعاني في مثل قوله[3]:

لا شيء إلا لحظ أمتعه ... في روضة منعت من القطر

حيث بدا الورد والبهار على ... خدك والأقحوان في الثغر

والسوسن الغض ناعما خضلا ... على مناط السلوك في النحر

يكاد ماء النعيم يقطر من ... سنة وجه كسنة البدر

ويبدو هذا المزج بين الغزل والطبيعة في مثل قوله أيضاً[4]:

لمن قضيب من الريحان أملود ... أم ضل حلمك ذاك الأهيف الرود

والزهر في الغصن حلي في سوالفه ... فقد تشابهت الأغصان والغيد

وحار لبي لولا أن تداركني ... ما أنبأتني به اللبات والجيد

لا يعجبنك عقد دون لابسه ... فإنما الحسن حيث العقد معقود

ومن المعاني التي يديرها كثيراً في غزله وصف حديث المرأة وسحره وجماله ورقته، فمن ذلك قوله[1]:

---

(١) المصدر نفسه ص٢١١.

(٢) شرح المختار من شعر بشار ص٢١١.

(٣) شرح المختار من شعر بشار ص٣٥ - ٣٦.

(٤) المصدر نفسه ص٧٥.

مـا ضـر مـن قـته حديـثك أن	يحـرم قـوتا بقـية العمـر

ويشبهه بخمر الرضاب فيقول[2]:

نـبذ مـن حـديث مـن تـشتهيه	نائـبات عـن لـذة الرشـفان

ويشبهه بالفاكهة فيقول[3]:

حديـثه فاكهـة رطـبة	وخـده روض وعيـناه خمـر
مـا جمـع الله فـنون الهـوى	بالحـسن فـى وجهـك إلا لأمـر

وقد تركت البيئة الأعجمية أثرها فى غزل ابن الخياط على نحو ما يبدو فى قوله يتغزل فى غلمان نصارى[4]:

كـأن علـى لـباتهم وخـدودهم	وذائـل ملـسا مـن لجـين وعـسجد
ترى كبرياء الحسن فى لحظاتهم	يـشاب بـرهبانية المتعـبد
إذا قـبلوا صـلبانهم رشـفت بهـم	حـصى بـرد فـيه مجاجـة صـرخد

ويدل غزله على لون من الحياة اللاهية التى كان يعيشها فى صقلية فنراه يتحدث عن بعض مغامراته مع النساء، ونراه يصف نفسه بأنه يتخذ من النسك وسيلة لإيقاع المرأة فى حبائله كما يبدو فى قوله[5]:

نـسك نـصبت بـه حـبالة مطعـم	مـتعود قـنص الغـزال الأكحـل

ونلمس مثل هذا الجانب اللاهى من حياته فى مثل قوله مصورا إحدى طرقه فى اصطياد الغلمان[6]:

رب جلـيس لى فـيه وطـر	يفهمـه عنـى بكـر النظـر
سـاورته بـاللحظ فـى مجلـس	يـرقبنا الـسمع بـه والبـصر
فلـم نقـم إلا علـى مـوعد	والـناس عـنا فـى أمـور أخـر

(1) شرح المختار من شعر بشار ص٣٦.
(2) شرح المختار من شعر بشار ص٣٥.
(3) المصدر نفسه ص٤١.
(4) المصدر نفسه ص٢٣٧.
(5) عنوان الأريب ١٣٣/١.
(6) شرح المختار من شعر بشار ص٦٣.

ونلمح فى شعره بعض الصور الطريفة المستمدة من واقع حياته مثل هذه الأبيات التى يشكو فيها من عبده الذى يسبب لـه الشقاء، ويفعل خلاف ما يؤمر بـه، فإذا أمره بفعل شىء تصور انه ينهاه عن فعله، وإذا نهاه تصور أنه يأمره، يقول ابن الخياط[1]:

لى عبد سوء وعبد السوء منكدة ... والمسترق بعبد السوء مولاه
كأننى كلما أنهاه آمره ... وحين آمره بالشىء أنهاه
قالوا سعادة فأل من سعادته ... كأنهم جهلوا اسما ضد معناه
إن الغراب أبو البيضاء كنيته ... فانظر بأى سواد خصه الله

ومن خلال هذه النماذج التى ذكرناها، وفى غيرها مما يحتفظ به التجيبى نستطيع أن نخرج بفكرة واضحة عن شخصية ابن الخياط، فهو شاعر اتصل بالأمراء والملوك، ومدحهم، وعاش حياته كغيره من الشعراء الصقليين، فاختلط بالناس، وهام بالطبيعة، وأحب المرأة، وعشق الخمر، وفتن بالغلمان النصارى، ولكنه تطرف إلى حد ما فى لهوه وعبثه، فلم ير يأساً من أن يتخذ من المسجد بستان تلهية، أو مكانا لمطارحة الغرام ولقاء المحبوب[2].

---

(1) المصدر نفسه ص٧٧.
(2) انظر شرح المختار من شعر بشار ص٣٦.

أبو عبدالله بن الطوبى

هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الطوبى. ولد بصقلية وأقام بها. وتزود فى صباه من مناهل العلم، فدرس اللغة والأدب. وتبحر فى العلوم الطبيعية، وبرع فيها جميعا حتى صار طبيباً مترسلاً شاعراً، والتحق بديوان الرسائل والإنشاء، وظل يتدرج فى المناصب حتى صار صاحب هذا الديوان فى عهد الكلبيين[١].

وقد ترجم له القفطى فوصفه بأنه "نحوى، أربى فى النحو على نفطويه، وفى الطب على ابن ماسويه. جامع للفضائل، عالم بالرسائل. وكلامه فى نهاية الفصاحة، وشعره فى غاية الملاحة. وله مقامات تزرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع، مع خط كالطرز المعلمة، والبرود المثمنة. وكان الشعر طوع عنانه، وخديم جنانه"[٢].

وذكره ابن القطاع فى الدرة، وأورد من نظمه كل مليح الحوك، صحيح السبك[٣]، ومدحه بقوله[٤]:

أيها الأستاذ فى الطـ ... ـب وإعراب الكلام
لك فى النحو قياس ... لا يساميه مسام
ثم فى الطب علاج ... دافع الداء العقام
أنت فى النثر البديهـ ... ـى وفى النظم السلامى[٥]
فاضل الآباء والنفـ ... ـس عظامى عصامى

(١) إنباه الرواة على أنباء النحاة ١٠٨/٣.

(٢) المصدر نفسه ١٠٧/٣.

(٣) الخريدة ٥٦/١/٤.

(٤) إنباه الرواة ١٠٧/٣.

(٥) البديهى : هو أبو الحسن على بن محمد البديهى، ذكره الثعالبى فى اليتيمة (٣: ٣٠٩) والسلامى هو أبو الحسن محمد بن عبدالله السلامى قال الثعالبى فى اليتيمة (٢: ٣٦٤): "من أشهر اهل العراق قولا على الإطلاق، وشهادة بالاستحقاق". أنظر هامش إنباه الرواة جـ٣ ص١٠٧.

وذكر القفطي أنه كان موجوداً سنة ٤٥٠هـ بصقلية، وأنه عاش بعد ذلك مدة[1].

شعره :

لعل أهم ما يميز ابن الطوبي عن غيره من الشعراء الصقليين شيوع روح السخرية والفكاهة في شعره، وقدرته البارعة على إظهار عيوب خصومه ومهجويه وإبرازها في صور ساخرة. وتشيع هذه الظاهرة في شعره شيوعاً واسعاً، فنراه يسخر من البخلاء، والمنجمين، وأصحاب اللحى الكبيرة والخلق الدميمة، والأصوات القبيحة، ويفتن في ذلك افتتانا يدل على مهارته وإجادته لهذا النوع من الهجاء الساخر. فمن ذلك قوله يهجو إنسانا ذا لحية كبيرة[2]:

لحية حمدون دثار له ... تكنه من شدة البرد
كأنها إذ غاب في وسطها ... قطيفة لفت على قرد

ويرسم صورة ساخرة للحية أخرى فيقول[3]:

ما إن رأيت ولا سمعت بلحية ... عرضت كلحية جعفر بن محمد
سدت عليه وجهه فكأنما ... عيناه في ثقبي كساء أسود

ونراه يسخر سخرية لاذعة من البخلاء، فيصف بخلهم، وتبرمهم من زيارة الناس، وجزعهم من أن يبادرهم أحد بالسؤال أو بطلب شيء، فمن ذلك قوله يصف بخيلاً[4]:

تبرم إذ دخلت عليه لكن ... فطنت فقلت في عرض المقال
عليَّ اليوم نذر من صيام ... فأشرق لونه مثل الهلال

وأكثر ابن الطوبي من ذم المغنين، وهجاهم هجاء ساخرا، وله فيهم مقطعات هزلية كثيرة يصف فيها قبح أصواتهم، ودمامة خلقتهم، وسماجة أخلاقهم، وعدم إجادتهم الغناء والعزف. فمن ذلك قوله[5]:

---

(١) إنباه الرواة ٣/ ١٠٨.

(٢) الخريدة ٤ / ١ / ٦٣.

(٣) الخريدة ٦١/١/٤.

(٤) المصدر نفسه ص٧١.

(٥) المصدر نفسه ص٦٩.

غنى كمن قد صاح فى خابيه | لا وهب الله له العافية
ما أحد يسمعه مرة | فيشتهى يسمعه ثانية

ويقول فى مغن آخر[1]:

لنا مغن غناه | يعود شرا عليه
لم يأت منزل قوم | ثعاد قط إليه

ومما يلفت نظرنا فى شعره أيضاً الإكثار من الغزل بالغلمان، ووصف محاسنهم ومفاتنهم، وله مقطوعات كثيرة فى العذار، فيشبهه بالمسك تارة، وبالآس تارة أخرى، والبنفسج النابت فى صحيفة من نضار، وبلام المسك خطت على جلنار وما شابه ذلك من تشبيهات تدل على كلفه بالعذار وافتتانه به، فمن ذلك قوله[2]:

لما رأيت عذاراً | له خلعت عذارى
وبان للناس عذرى | فما أخاف اشتهارى
كأنه لام مسك | خطت على جلنار
أو البنفسج فى الورد | خضرة فى احمرار

وتتردد فى غزله بالمذكر أسماء مسيحية، فمن ذلك قوله فى صبى نصرانى من نصارى الفرنج واسمه نسطاس[3]:

أقول وقد مر نسطاس بى | وقلبى فيه عذاب أليم
وقد عاش كالبان فوق الكثيب | وأقبل يرنو بألحاظ ريم
لئن كان فى النار هذا غدا | فإنى أحب دخول الجحيم

ولقد وقف ابن الطوبى وقفات طويلة أمام "الشيب" الذى كان يمثل له مشكلة كبيرة، وله فيه مقطوعات كثيرة تنفر منه، وتذمه، وتعبر عن ضيق الشاعر به وسخطه عليه، فمن ذلك قوله[4]:

---

(١) خريدة القصر ٤ / ١ / ٦٩ – ٧٠.
(٢) المصدر نفسه ص٧٠.
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٣ / ١٠٨.
(٤) خريدة القصر ٤ / ١ / ٦٤.

صبغ المشيب بلبيه | على الفتى ورزيه
حصلت منه على أن | أضحكت مني البرية

ويقول في عذر الخضاب[1]:

ما خضبت المشيب للغانيات | لا، ولكن سترته عن عداتي
حذراً أن يروا مشيبي فيبدو | لي منهم سرورهم بوفاتي

ويبدو أن اشتغال ابن الطوبي بالسياسة واتصاله بالحكام والناس قد جر عليه كثيراً من المتاعب، فكره هذا الجو المليء بالدسائس والفتن وآثر أن يعتزل الناس وينقطع عنهم ويريح نفسه من شرورهم وآثامهم وقد عبر عن ذلك فقال[2]:

يا لائمي في انتزاعي | عن الورى وانقطاعي
لا أستطيع على أن | أكون بين الأفاعي

أما من الناحية الفنية، فقد مال أسلوب ابن الطوبي إلى البساطة والسهولة، واقترب من لغة الحياة العادية ولعل هذا من آثار اشتغاله بالكتابة، ولذلك تكثر في شعره العبارات والتراكيب النثرية أو المستمدة من لغة العامة مثل قوله "لا وهب الله له العافية"، وقوله: "ضربه يوجب ضربه" وقوله: "قلت اقتراحي لو سكتا" ولكنه كان قصير النفس يميل إلى المقطوعات القصيرة ويكره التطويل، وفي هذا ما يلقي بعض الضوء على شخصيته وشعره، "فالشعر في يده خواطر عابرة أو ألهية يتسلى بها ولا يعتمدها. فليست في شعره مكانية واضحة، ولا حياة سياسية معينة، وإنما هو سريع اللمح للمعاني دائم الرصد لها، فإذا استوفى المعنى في بيتين أو ثلاثة فذلك حسبه، يحب ويدير المقطوعة على نكتة أو لمحة"[3].

---

(١) المصدر نفسه ٤ / ١ / ٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص٦١.
(٣) العرب في صقلية ص٢٠٧ .

أبو العرب الصقلى

هـو مـصعب بـن محمـد بـن أبـى الفرات القرشى المعروف بأبى العرب الـصقلى(1) ولـد فـى مدينـة بلـرم عاصـمة صـقلية سنة ٤٢٣هـ، وأخذ العلم عن شيوخها وعلمائهـا، وتـتلمذ بـصفة خاصـة على ابن البر اللغوى، فدرس عليه مقدمـة ابـن بابـشاذ فـى الـنحو، وقرأ عليه ديوان المتنبى الذى كان يدرسه فى صـقلية، وسمـع علـيه كـتاب "أدب الكـتاب" لابن قتيبة، ودرسه فى الأندلس حـين ارتحـل إلـيها بعد سقوط وطنه، وكان ممن أخذه عنه ابو على بن عريب الطليطلى(2).

وتفـتحت موهـبة أبـى العـرب الـشعرية مبكـرة، وأمدتـه طبيعة صقلية الجمـيلة بالوحـى والإلهام، فأصبح من شعراء صقلية المرموقين، وسار ذكره فى الآفاق، حتى رغب المعتمد بن عباد فى انتقاله إليه ويقول ابن خلكان إن المعتمد بعـث إلـيه خمـسمائة ديـنار وأمره أن يتجهز بها ويتوجه إليه وبعث مثلها إلى أبى الحسن الحصرى وهو بالقيروان فكتب إليه أبو العرب(3):

لا تعجبن لرأسى كيف شاب أسى ... وأعجب لأسود عينى كيف لم يشب
البحـر للـروم لا تجـرى الـسفين بـه ... إلا علـــى غـــرر والـــبر للعـــرب

وكتب له الحصرى:

أمرتنـــى بـــركوب البحـــر أقطعـــه ... غيرى لك الخير فاخصصه بذا الداء
مـــا أنـــت نـــوح فتنجينـــى ســـفينته ... ولا المـسيح أنـا أمـشى علـى المـاء

---

(1) راجع ترجمته فى عنوان الأريب جـ1 ص123 - 124، والخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس جـ2 ص222، ومخطوط الذخيرة ق4 م2 ورقة 111، والمغرب لابن سعيد جـ4 مخطوط، ورايات المبرزين ص148، 149، وبدائع البدائه لابن ظافر ص212، ومسالك الأبصار للعمرى - المكتبة الصقلية ص605 - 606، والتكملة لابن الأبار ص386، ووفيات الأعيان جـ3 ص20 - 21 "ترجمة أبى الحسن الحصرى".

(2) التكملة لكتاب الصلة لابن البار ص386.

(3) وفيات الأعيان 3/ 20 - 21.

ولكن أبا العرب لم يستطع البقاء فى صقلية بعد أن تغلب الروم عليها، فشد الرحال إلى إشبيلية عاصمة المعتمد، وكانت دعوته قد أحدثت صدى عميقاً فى نفسه، فأخذ يمنى نفسه بالمجد والشهرة الأدبية فى بلاطه، وشغلته أحلامه عن التفكير فى وطنه، وقد عبر عن هذه المشاعر فى قصيدة ودع بها صقلية قال فيها[1]:

إلام اتباعى للأمانى الكواذب	وهذا طريق المجد بادى المذاهب
أهم ولى عزمان: عزم مشرق	وآخر يغرى همتى بالمغارب
ولابد لى أن أسأل العيس حاجة	تشق على أخفافها والغوارب
علىَّ لآمال اضطراب مؤمل	ولكن على الأقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تستصحبى الهون إنه	وإن خدعت أسبابه شر صاحب
ويا وطنى إن بنت عنى فإننى	سأوطن أوكار العتاق النجائب
إذا كان أصلى من تراب فكلها	بلادى وكل العالمين أقاربى
وما ضاق عنى فى البسيطة جانب	وإن حل إلا اعتضت منه بجانب
إذا كنت ذا هم فكن ذا عزيمة	فما غالب نال النجاح بغالب

وفى الأندلس، أحسن المعتمد وفادته، وحظى بصلاته، وطاب له العيش فى كنفه، وقد أشار إلى تحسن أحواله هناك فقال[2]:

نجوت فعمرى مستجد وإنما	نجاة الفتى بعد المخافة مولد
وأحسنت الأيام حتى كأنما	تنافس فى الإحسان يومى والغد

ويبدو أن أبا العرب كان يحظى بمكانة طيبة فى بلاط المعتمد، ويروى ابن بسام أنه حضر يوما مجلس المعتمد وقد أدخل إليه جملة وافرة من دنانير الفضة، فأمر بخريطتين منها وبين يديه تصاوير عنبر من جملتها صورة جمل مرصع بنفيس الجوهر، فقال له أبو العرب على البديهة معرضا: "ما يحمل هذه

(1) الخريدة ٢/ ٢٢٢ وما بعدها "ط. تونس".
(2) الخريدة ٢ / ٢٢٣.

الـدنانير — أيـدك الله — إلا جمـل" فتبـسم المعتمد وأمر لـه به فقال أبو العرب على البديهة:

أهديتنـي جمـلا جـونا شـفعت بـه | حمـلا مـن الفضة البيضاء لـو حمـلا
يـناخ جـودك فـي إعطـاء مكـرمة | لاقـدر يعـرف مـن مـنع ولا عقـلا
فأعجب لـشأني فـشأني كلـه عجـب | رفهتنـي فحملـت الحمـل والجمـلا

فطـارت يومـئذ بهـذا الخـبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب[1]. وقد ظـل أبـو العـرب فـي بـلاط المعتمد إلى أن أسر ونفى إلى أغمات، فترك أشبيلية وسـار إلى ناصـر الدولـة صاحب ميورقة ولم تهتم المصادر بتلك الفترة من حياته وكـل مـا نعلمـه أنـه ظل بها حتى توفى سنة ٥٠٦هـ على الأرجح[2]. وقد أورد الـسلفى كلامـا سمعـه عن أحد الرواة وكان مما قاله إنه رأى أبا العرب الصقلى بجزيرة ميورقة وآخرين من الشعراء[3].

شعره ومنزلته الشعرية :

حظى أبو العرب بشهرة واسعة فى صقلية وخارجها، وقد أفاض النقاد فـي مدحـه والثـناء علـيه فوصـفه ابن سعيد صاحب المغرب بأنه "شاعر دهره، وواحـد عـصره"[4] وقـال عـنه ابـن بـسام: "كـان لـسانا بهـذا الأفق عن العرب أعرب، وكوكبا من المشرق غرب"[5] وأطنب فى الثناء عليه شهاب الدين العمرى صـاحب مـسالك الأبـصار فقال عنه[6]: "أجاد فن النظم، وسكن من جامحه ما تشعب، وحيى من فايحه ما سقى الحيا ورد خده فتشرب، تسمى فى هذا الفن بكـل أسمائـه، وأبرز أنواره سافرة من ظلمائه، وكان عاطلا حتى حلاه، وباطلا حتى حلاه، وشكا حتى طلع فجره المشرق، ووهماً حتى وضح صبحه فى ضمير

(١) الذخيرة ٤/١/ ص١١٠.
(٢) التكملة ص٣٨٦.
(٣) معجم السلفى (مخطوط) ص٢١٣.
(٤) المغرب فى حلى المغرب جـ٤ (مخطوط) ص٣٥٣.
(٥) مخطوط الذخيرة ٤/٢/١٠٩.
(٦) مـسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. الـسفر الـسابع عشر. المكتبة الصقلية ص٦٥٥ – ٦٥٦.

المشرق، وسلك منه طريقه كان يعرف بحسنها، ويأمر قومه الشعراء أن يأخذوا بأحسنها".

ولم تقف شهرته عند حدود صقلية أو الأندلس فحسب، ولكنها امتدت إلى المشرق أيضاً، فأعجب به السلفى، وذكر أنه علق شيئاً من شعره من صاحب له يدعى أبا مروان الوليد بن إسماعيل الغافقى التقى به فى الثغر، وحدثه عن أبى العرب وكان مما علقه السلفى من شعره قوله[1]:

وكم سهم بغى لم أخف أن يصيبنى	أصبت به ممن رمانى به النحر
ولم يعدنى حفظ الإله ولطفه	وليدا وكهلا، لو وفى بهما الشكر

وقد ترك أبو العرب ديوان شعر[2] ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر الصقليين، ولم يبق منه إلا بعض قصائد وأبيات قليلة متناثرة فى مصادر الأدب وأغلبها مما قاله فى الأندلس فى مدح المعتمد وهى على قلتها ترسم لأبى العرب حدود شخصية واضحة، شخصية الشاعر الجاد الذى تسيطر عليه الفخامة والقوة"[3].

ويدل ما بقى له من شعر على أنه برع براعة كبيرة فى وصف الخمر، فأطال الوقوف عندها كثيراً لدرجة أن مدائحه كانت تبدأ غالباً بوصفها، ويكثر من ترديد المعانى التى رددها الشعراء الصقليون، وخاصة فكرة الشبكة والحبب من مثل قوله[4]:

بكر حصان إذا ما الماء واقعها	أبدت لنا زبدا فى سورة الغضب
كادت تطير نفارا حين نافسها	لولا الشباك التى صيغت من الحبب

وكان أبو العرب — كغيره من شعراء صقلية — لا يرى فى الخمر مجرد شىء يصفه أو غرضا يحرص على أن يطرقه ليثبت فيه جدارته ومهارته الفنية

(١) معجم السلفى "مخطوط" ص٤٥٠.

(٢) أشار إلى ذلك حاجى خليفة فى كتابه "كشف الظنون"، المكتبة الصقلية ص٧٠٢، وأشار إليه الصفدى فى "الوافى بالوفيات".

(٣) العرب فى صقلية ص٢٣١.

(٤) الخريدة – قسم شعراء الأندلس ص٢٢٠ ط. تونس.

ولكـنه كان يعشقها ويؤمن بها ويرى فيها لذة أى لذة. ولم يكن يضايقه —،وهو بعـيد عـن وطـنه — شـىء إلا الإحساس بالغربة، وافتقاد لذة الخمر. ويعبر عن ذلك بقوله[1]:

بـرمت بالـنين ضـاق الـصدر بيـنهما	فقـر المدامـة واسـتيحاش مغـترب
وكـل نعـم وإن حـل الجمـيع بـه	فقـر إذا لم تكـن فـيه ابـنة العـنب

ولعـل ممـا زاد مـن كلفه بالخمر، وهيامه بها، أنه كان يرى فيها عونا على نسيان همومه، تلك الهموم التى تلازم الغريب فى ديار الغربة[2]:

والهـم للـنفس شـيطان يوسوسـها	فاقذفه مـن أنجـم الـصهباء بالـشهب

ويـبدو أن أبـا العرب — بعد أن طال به التغرب، واستحصدت تجاربه — شـعر أنـه أخطـأ فـى حـق وطنه، وأن كل ما حققه من شهره لم ينسه وطنه وأهلـه، فقـويت نـزعة الحـنين فـى نفسه، وأخـذ يحلـم بالعودة إلى وطنه مرة أخرى. ويعبر عن ذلك فيقول[3]:

وهل فـى ضمير الدهر للقرب عودة	فتغنـى كمـا كـنا أم الـصبر أعـود
لـيالى ترضـينا اللـيالى كأنهـا	إلـينا بإهـداء المنـى تـتردد

ولكن الدهر لم يحقق له هذه الأمنية، وتقدم به العمر، فودع حياة اللهو ومـال إلى الزهد، وقوى الشعور الدينى فى نفسه فأصبح يرى نفسه غضوبا لدين الله فى كل مكان يهاجراليه. ويعبر عن هذه المعانى فيقول[4]:

عـرفت فـودعت الـصبا والغوانـيا	وقلـت لداعـى الحلـم لبـيك داعـيا
فمـا يزدهينـى دل كـل غريـرة	تـزين للكهـل الحلـيم التـصابيا
ولكـن قـصرت للعين عـن كـل منظـر	فما أرسلت لحظا على القلب جانيا
غـضوب لـدين الله فـى كـل مـوطن	يعاف الرضى حتى يرى الدين راضيا

---

(١) مخطوط الذخيرة لابن بسام ٤/ ٢ / ١١٠ – ١١١.

(٢) الخريدة ٢ / ٢٢١ وما بعدها.

(٣) الخريدة ٢ / ٢٢٢.

(٤) المصدر نفسه ٢ / ٢٢٢.

ابن القطاع الصقلي

هو أبو القاسم على بن جعفر بن على الشنتريني السعدى المعروف بابن القطاع الصقلى. ولد بصقلية سنة ٤٣٣هـ، ونشأ فى بيت علم وأدب، فكان جده (علـى بـن محمـد) يـنظم الشعر، وكان أبوه إماماً فى اللغة، وشاعراً بليغاً، وله مصنفات فى اللغة، والعروض، وقد أورد القفطى شيئاً من نظمه[1].

وتلقى ابن القطاع علومه على علماء صقلية وفضلائها كابن البر اللغوى وأمثاله، فقرأ عليه الأدب، وروى عنه الصحاح للجوهرى[2]، وأجاد فى النحو غايـة الإجـادة، ونظم الشعر سنة ٤٤٦هـ وهو فى سن الحداثة[3]. وتصدر للعلم والإفـادة بـصقلية، وصنف التصانيف الجميلة، واندمج فى الحياة الأدبية هناك واتـصل بأدبائهـا وشـعرائها وارتـبط معهـم بـصداقات قوية مكنته من أن يؤلف كـتابه الشهير: "الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة" وترجم فيه لمائة وسبعين شاعراً من شعراء صقلية: وجمع لهم فيه عشرين ألف بيت شعر بمقدار مائـة بـيت لكل شاعر مع شىء من النقد والمفاضلة. وكانت طريقته التى اتبعها فـى تألـيف هذا الكتاب أن يطلب من كل شاعر أن ينفذ إليه بشىء من شعره، وقد كـتب إلـيه أحـد الـشعراء – ويدعـى أبا الفتح أحمد ابن الشامى – حين تأليف الكتاب[4]:

أبـا قاسـم والفـضل فـيك سـجية ... وأنـت بكـل المعلـوات خلـيق
ومـن مجـده فـوق الـسماك محلـق ... ومنـصبه فـى المكـرمات عـريق
يكلفنـى إظهـار مـا قـد نظمـته ... لـيالى غـصن ناضـر ووريـق
وإذ لمتـى تحكـى خوافـى ناعب ... وعـندى لوصـل الغانـيات طـريق

---

(١) إنباه الرواة على إنباه النحاه ١/٢٦٥ – ٢٦٦.
(٢) بغية الوعاه ص٣٣١ – ٣٣٢.
(٣) وفيات الأعيان ١٢/٣.
(٤) الخريدة ١٣٧/١/٤.

فكن سائرا عورات خلك إنه شقيقك، والخل الصديق شقيق

وظل ابن القطاع يسهم بجهوده في صقلية إلى أن أشرف النورمان على تملكها، فقوض خيامه منها، ورحل عنها إلى الأندلس أولا، ونزل في سرقسطة، وكانت شهرته قد سبقته إلى هناك، فكتب إليه أبو الفضل يوسف ابن حسداي الوزير الهاروني بسرقسطة حين دخلها[1]:

أعيذك بالله من فاضل أديب تداعى على صحبه
فأعرض محتقرا بزهم وكل ينافس في جلبه
فلما أذاع لدينا سرا سر ما كان أودع في قلبه
جلا كل معجزة من نظيـ ـم لآلئه وحلى عصبه
فهل جاز سمعا ولم يلهه ومر بقلب ولم يصبه

فأجابه ابن القطاع مرتجلا:

بدأت بفعل أتاه الكريم ولا غرو منك ابتداء به
لأنك مغرى بفعل الجميل مهين لما عز في كسبه
أتتني أبياتك الرائقات بشأو بعيد على قربه
ونظم جلا النظم في أفقه وحلى له الحلي في قطبه
فأنطقني حسنه واجترأت وقلت من الشعر في ضربه
وعولت فيه على فضله وما خصه الله من أربه

وقد واصل جهوده الأدبية في الأندلس، فألف هناك كتابين هما "لمح الملح" وهو مجموعة شعرية جمع فيه خلقا من شعراء الأندلس كما يذكر ابن خلكان[2]. وكتاب "الملح العصرية" ولكن إقامته في الأندلس لم تدم طويلا، فقرر الرحيل إلى مصر فوصلها في حدود سنة ٥٠٠ هـ، فاستقبل بكل حفاوة، وبالغ أهل مصر في إكرامه[3]. وأقام في القاهرة يعلم ولد الأفضل الجمالي بن أمير

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/ ٢٣٧ – ٢٣٨.
(٢) وفيات الأعيان ٣/ ١١.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١٢.

الجيوش[١]. وتصدر للإفادة والاستفادة وأصبح إمام وقته بمصر فى علم العربية وفنون الأدب[٢]. وأخذ عنه العلم كثيرون منهم الشاعر المصرى أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة القرشى[٣]. ويبدو أن شهرته وذيوع صيته قد أحفظت عليه بعض المصريين فاتهموه بالتساهل فى الرواية[٤] مع أننا نملك من الشواهد ما يدل على تشدده وتحفظه، فقد روى أحد تلاميذه. واسمه أبو العز نصرون بن فتحون الخزرجى وكان من خواص أصحابه وقرأ عليه كثيرا من كتب اللغة — روى أنه مرض مرضا شديدا، احتاج معه إلى شىء من المال، فباع كتبا أدبية وغير أدبية ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم، فذكر ذلك بعد إفاقته من مرضه لابن القطاع وغضب عليه غضبا شديدا وقال:

"كنت تقنع ببيع كتب الأدب، فعنها عوض، وتترك عندك الصحيحين. هل رأيت مسلما يخرج الصحيحين من داره"؟ ولم يزل يردد ذلك حتى استحيى ابن فتحون من نفسه ومن الحاضرين وندم غاية الندم[٥].

ومهما يكن من أمر، فقد ترك ابن القطاع فى مصر آثارا لا تنكر، واستطاع هذا اللاجىء الصقلى، فى أرض هجرته، أن يسهم معلما وأديبا وعالما لغويا فى ازدهار آداب مصر الفاطمية[٦].

وصنف ابن القطاع فى مصر مصنفات كثيرة فى اللغة والأدب، منها كتاب (الأفعال) أحسن فيه كل إحسان، ووصف بأنه أجود من الأفعال لابن القوطية، وكتاب "أبنية الأسماء" وفيه دلالة خطيرة على كثرة اطلاعه[٧].

---

(١) بغية الوعاة ص٣٣١ – ٣٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٣١.

(٣) معجم السلفى (مخطوط) ورقة ٤٢٦، وابن مكنسة من شعراء مصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى، ترجم له العماد فى الخريدة – قسم شعراء مصر جـ٢ ص١٠٣ – ٢١٥.

(٤) بغية الوعاة ص٣٣١ – ٣٣٢.

(٥) معجم السلفى ورقة ٤١٦.

(٦) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٧٣.

(٧) وفيات الأعيان ٣/ ١١ .

و"شرح الأمثلة"، و"المجموع الأدبى"[1] كما ألف كثيرا فى العروض مثل (الشافى فى علم القوافى) ورسائل أخرى[2]. وظل مقيما بمصر باحثا ومؤدبا ومعلما حتى توفى بها سنة ٥١٥هـ ودفن بقرب الشافعى[3].

وقد ذكر ابن خلكان أن لابن القطاع شعراً ولكنه ضاع ولم يصلنا منه إلا نماذج قليلة أكثرها فى وصف الخمر والغزل. وتتردد فى غزله التشبيهات والمعانى التقليدية من مثل قوله[4]:

إذا ابتسمت يوما رأيت بثغرها ... سموطا من الياقوت قد رصعت درا
وإن سفرت عاينت شمسا منيرة ... ترد عيون الناظرين لها حسرى
وتسلب عيناها العقول إذا رنت ... كأن بعينيها إذا نظرت سحرا

وله بعض مقطوعات فى الغزل بالمذكر مثل قوله وأضمر اسم حمزة[5]:

يا من رمى النار فى فؤادى ... وأنبط العين بالبكاء
إسمك تصحيفه بقلبى ... وفى ثناياك برء دائى
أردد سلامى فإن نفسى ... لم يبق منها سوى الدماء
وارفق بصب أتى ذليلا ... قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنى ... فصار فى رقة الهواء

ومن شعره فى الزهد قوله[6]:

فيا نفس عدى عن صباك فإنه ... قبيح برأس بالمشيب معمم
أفق إن فى خمسين عاما لحجة ... على ذى الحجى إن لم يكن قلبه عمى

ولكن هذه النماذج القليلة لا تكفى للحكم على شاعرية ابن القطاع، وتقويمها تقويما صحيحا.

---

(١) أنباه الرواة ٢/ ٢٣٧.
(٢) كشف الظنون - المكتبة الصقلية ص٧٠٣.
(٣) بغية الوعاة ص٣٣٢.
(٤) الخريدة ٤/١/٥٢ - ٥٣.
(٥) عنوان الأريب ١٢٤/١.
(٦) الخريدة ٤/١/٥٢.

البلنوبي

هـو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشائر المعروف بالبلنوبى نسبة إلى بلنوبة وهى بليدة بجزيرة صقلية[1].

كـان أبـوه رجـلا صـالحا روى أنه ختم القرآن ألف ختمة ومائتين وأنه حـج غـير مـرة[2]. وكـان مـؤدبا للتجيبـى البرقى صاحب شرح المختار من شعر بـشار، كمـا كـان أخوه عبدالعزيز شاعرا وتحتفظ لـه المصادر ببعض المقطوعات الشعرية[3].

وقد نشأ البلنوبى فى صقلية، وتلقى علومه بها، ولكنه لم يستطع البقاء فيها فى ظل حكم النورمان، فخرج منها فاراً بمهجته، مهاجراً إلى مصر واستقر بـه المقـام بالإسـكندرية، واشتغل بالتدريس فيها، فدرس عليه كثير من أبنائها مـثل الفقـيه الخريمـى الـذى روى شـعره، وأبـى الحـسن بـن يوسف الدمراوى اللخمى، وكان يقرأ عليه النحو والعروض ويأخذ برأيه فى كثير من المسائل[4].

واشتغل البلنوبى بالكتابة أيضاً. ويقول عنه السلفى: "وأبو الحسن هذا من كتاب الثغر، وكان أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب، وقد اشتريت منه كـثيرا، وعلقـت عـنه فوائد أدبية وحكايات"[5]. وأثنى أبو الصلت على بلاغته ووصفه بأنه من أهل العصر[6].

واتصل البلنوبى — فى مصر — بعدد كبير من الحكام والوزراء ومدحهم نذكـر مـنهم الأفـضل بن بدر الجمالى. والناصر للدين أبا محمد اليازورى، وبنى الموقفى، وسماء الرؤساء وشمس الكفاة أبا الحسن على بن أحمد المدبر وغيرهم.

(١) أنظر معجم البلدان لياقوت مادة بلنوبة.

(٢) معجم السلفى "مخطوط" ورقة ٢٨٤.

(٣) أنظر معجم البلدان لياقوت. مادة بلنوبة.

(٤) معجم السلفى. ورقة ٩٤.

(٥) معجم السلفى ورقة ٤٨٣.

(٦) رسالة ابن أبى الصلت نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى، تحقيق عبد السلام هارون ص٢٢.

شعره :

وللبلنوبي مجموعة شعرية محفوظة في مكتبة الأسكوريال تحتوى على مائتين وستة وعشرين بيتا، كما احتفظ العماد الأصفهاني بجزء من شعره، ولكننا لا نجد في هذه الأشعار ما يشير من قريب أو من بعيد إلى صقلية، بل على العكس، يشعر القارئ أنه يعيش في جو مصرى، فقد سرد البلنوبي فيها حوادث تاريخية وقعت في عهد المستنصر وعلى وجه الدقة روى نتائج المؤامرة التي دبرها الوزير اليازورى وقام بتنفيذها البساسيري في بغداد[1]. وهذا يعنى أن البلنوبي ذاب في البيئة الجديدة التي هاجر إليها، وطبع شعره بطابعها، ولذلك فمن السهل أن يحس القارئ بالروح المصرى في كثير من قصائده كأن يقول مثلاً في وصف وقوع الشعاع على صفحات النيل[2]:

شربنا مع غروب الشمس شمسا   مشعشعة إلى وقت الطلوع
وضوء الشمس فوق النيل باد   كأطراف الأسنة في الدروع

وقد استنفد البلنوبي معظم شعره في المدح، وكان يتخذه وسيلة للتكسب ويشير إلى ذلك فيقول في إحدى مدائحه[3]:

بأيادى محمد أصبح الشعر   خطير الأثمان والأرباح
كاد فيه المديح يخطر زهوا   بين عرض حمى ومال مباح

ويأتي الغزل في المرتبة الثانية من شعر البلنوبي، ولكنه لا يسلك فيه مسلكا واحدا، فقد يعف أحيانا، وقد يتبذل أحيانا أخرى، ونراه يكثر من الحديث عن الجسارة والفتك بالمحبوب من مثل قوله[4]:

تعجلت ذنبا بفتكي به   ولكنه من مليح الذنوب

وقوله[1]:

---

(١) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص١٢٣ ولمعرفة المزيد عن المؤامرة المشار إليها انظر كتاب "سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة تحقيق محمد كامل حسين القاهرة سنة ١٩٤٩".

(٢) الخريدة ٤ / ١ /٥.

(٣) ديوان البلنوبي "مخطوط" ورقة ٣.

(٤) الخريدة ٤ / ١ /٦.

لـو تجاسـرت علـى الفـتك بـه — لم أعـد أقـرع سـنى نـدما

وقولـه أيضاً[٢]:

عزمت على فتك بطيفك فى الكرى — فماذا ترى مولاى أنت وسيدى

ويتميز غزله بالرقة والعذوبة، وربما كان يفوق غيره من شعراء الصقليين فى هذه الناحية، فمن ذلك قوله[٣]:

لا بـذاك الدنـو تفـديك نفـسى — يـا مـناها ولا بهـذا البـعاد
هبك أصبحت لا تراعى اشتياقى — فـارع مـا كـان بيـننا مـن وداد
شـقيت بالـسهاد فـيك جفـون — فهنيـئا لغيرهـا بالـرقاد

ويـساير البلنوبـى الـشعراء الصقليين فى كلفهم بالخمر، وإيمانهم بها، واتخاذهـا غايـة يحققـون اللـذة عـن طريقها، ونستطيع أن نلمس ذلك فى مثل قوله[٤]:

ألا إنمـا الدنـيا مـدام ومـؤنس — يميـتك أحـيانا ويحيـيك أحـيانا

ويقول فى خمرية أخرى[٥]:

أيهـا اللائـم الـذى حـسب اللـوم — صـلاحا مـا فـيه لى مـن صـلاح
خلنـى أغتـنم سـعادة عمـرى — فـى اغتـباق مـردد واصـطباح

ومـن الجوانب البارزة فى شعره الإكثار من الرسائل الشعرية، وهى من آثـار اشـتغاله بالكـتابة، ولكـنها تتميـز بالرقة ولاسيما رسائله الغزلية من مثل قوله[٦]:

كتـبت فهـلا إذ رددت جوابـى — جعلـت الرضـا عنـى مكـان عتابـى
لـئن كـان ذنبـى أننـى لم أزركـم — لفقـدى للقـياكم أشـد عقـاب

---

(١) الخريدة ٤ / ١ / ١٤.
(٢) ديوانه "مخطوط" ورقة ٣.
(٣) المصدر نفسه ورقة ٩.
(٤) المصدر نفسه ورقة ٨.
(٥) المصدر نفسه ورقة ٢.
(٦) الخريدة ٤/ ١/ ٦.

وتدل أشعار البلنوبى على أنه كان يتقيد فى أغراضه بتقاليد الشعر المعروفة ولكن أسلوبه يتميز بالرقة من مثل قوله[1]:

يرى الفتى فى الشعر أفعاله ... وإنما الشعر له كالمراء

واقترب أسلوبه من لغة النثر العادية أو من لغة العامة، من مثل قوله[2]:

أدعو عليك وقلبى ... يقول: يا رب لا لا

ولكنه قد يكون أكثر الشعراء الصقليين التفاتا إلى البديع وإسرافا فيه ولاسيما الجناس والطباق. ونستطيع أن نلمس هذا فى مثل قوله مجانسا[3]:

نهاك أهلك عنى ... من أجل أهلك أهلك

ويقول مطابقا[4]:

ومهما علمت فلا تجهلى ... فإن المحب سعيد شقى

ويقول جامعا بين الجناس والطباق[5]:

من عاذرى من عاذل كلمته ... بالعرض وهو مكلمى بالطول

ولم يسلم شعره من بعض مظاهر الصنعة مثل الإكثار من الألغاز والتعمية فمن ذلك قوله ملغزا[6]:

إسم الذى أضحى فؤادى به ... معذبا صبا بتعذيبه
إن صيروا أوله ثانيا ... غدا اسمه بعض صفاتى به[7]

ولا نستطيع أن نمضى مع البلنوبى إلى أبعد من ذلك لأن أشعاره الباقية كلها فى مدح الوزراء والعظماء المصريين، ولا ينبغى لنا بطبيعة الحال أن نقف عندها لأنها بعيدة عن موضوع البحث.

---

(١) ديوانه "مخطوط" ورقة ٢ - ٣.
(٢) الخريدة ٤/ ١/ ١٣.
(٣) المصدر نفسه ص١٢.
(٤) المصدر نفسه ص١٢.
(٥) ديوانه "مخطوط" ورقة ٥.
(٦) الخريدة - ٤/ ١/ ١٦.
(٧) يقصد الشاعر اسم "تميم" وبالتغيير الذى يشير إليه يتحول إلى "متيم".

خاتمة البحث ونتائجه



تناولت فى الأبواب السابقة موضوع "الشعر العربى فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى" وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وثلاثة أبواب. وتحدثت فى المقدمة عن سبب اختيار البحث ولماذا حددته بالقرن الخامس ثم أشرت إلى أهم المصادر التى اعتمدت عليهما وتحدثت عن خطوات البحث ومراحله.

ويمكن القول بأن هذا البحث استطاع أن يتوصل إلى بعض النتائج الجديدة، فقد أثبت أن المؤثرات المشرقية كانت قوية فى الشعر الصقلى وكان من مظاهر هذا التأثير المحافظة على نهج القصيدة العربية ومعارضة بعض الشعراء المشارقة، وأثبت ان هذا التأثير كان طبيعياً لأن عناصر تكوين الثقافة الأدبية كانت واحدة فى كل من المشرق وصقلية.

وأثبت أيضاً أن البيئة الصقلية كان لها أثر بارز فى الشعر الصقلى، فقد تأثر الشعر بحياة الجهاد التى عاشتها صقلية، كما تأثر بالطبيعة الصقلية الساحرة، ونجح فى أن يصور لنا مظاهر الحياة الحضرية فى المجتمع الصقلى، فصور الصقليين فى لهوهم وغنائهم وإقبالهم على صور حياة الزهد والورع التى عاشها بعض الصقليين كما نجح فى تصوير مأساة صقلية وسقوطها فى يد الأعداء وأثر ذلك فى نفوس الشعراء كما بدا فى نزعة الحنين إلى الوطن والشعور بالغربة.

وأثبت هذا البحث أن البيئة الصقلية تحكمت فى توجيه موضوعات الشعر، فقد ساعدت على اتساع بعضها كالغزل والرثاء، وأدت من ناحية أخرى إلى تضييق دائرة بعضها كالفخر وشعر الحكمة واختفاء غرض كامل هو الهجاء بتأثير البيئة الحضرية الجديدة.

وأثبت هذا البحث أيضاً أن البيئة الصقلية أثرت فى لغة الشعر وأسلوبه، كما أثر شيوع الغناء فى أوزانه وقوافيه.

وفى الباب المخصص للشعراء كشفنا النقاب عن بعض الشعراء الذين وفدوا إلى صقلية من البيئات الأدبية الأخرى للتكسب بشعرهم والتمتع بطبيعة صقلية.

واستطاع البحث أن يلقى الضوء على حياة أشهر الشعراء الصقليين، فأفردت صفحات كثيرة لابن حمديس أعظم شعراء صقلية، واستطعت أن أكشف عن بعض الجوانب البارزة فى شعره مثل شعر الحنين والشعر الإنسانى، كما حاولت أن أضعه فى مكانه الصحيح بين الشعراء العرب.

كما استطاع البحث أن يعرف لأول مرة ببعض الشعراء الذين أهملتهم المصادر، ولم يظفروا بعناية الباحثين المحدثين، فكنت أول من عرف بأبى العرب وابن الطوبى والبلنوبى وغيرهم.

وبالإضافة إلى هذه النتائج استطاع البحث أن يفيد من بعض المخطوطات التى لها صلة بموضوع البحث إفادة كبرى.

واستطيع من خلال دراستى للشعر الصقلى أن ألفت أنظار الباحثين إلى ما يأتى:

أولاً: إن فى تراثنا الأدبى كثيراً من المصادر الخطية على قدر كبير من الأهمية ولكنها لم تر النور بعد، فما تزال هناك أقسام من كتاب الذخيرة لابن بسام لم تحقق بعد برغم احتوائها على تراجم وأخبار فى غاية الأهمية، وهناك أيضاً جزء من كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد مايزال مخطوطا ويختص بالشعراء الصقليين والمغاربة.

وتوجد أيضاً مخطوطة لكتاب مختصر الدرة الذى ألفه ابن القطاع وترجم فيه لمائة وسبعين شاعرا صقلياً واختصره أبو إسحاق بن أغلب، وما يزال إلى الآن فى دائرة الظل مع أهميته القصوى فى التعريف بالحياة الأدبية فى صقلية.

ويمكـن أن يقـال مـثل هذا على معجم السفر للسلفى الذى يحتفظ بقدر كبير من تراجم الصقليين وأشعارهم، وعلى ديوان البلنوبى الشاعر الصقلى.

وعـسى الله أن يوفقـنا فـى العمل على تحقيق بعض هذه المخطوطات، والمساهمة فى هذا العمل العلمى الجليل[1].

ثانياً: تـؤكد هـذه الدراسـة ضـرورة الاهـتمام بدراسـة الـشعر المغربـى والأندلـسى والـصقلى، فمـا تـزال هـذه البيئات فى حاجة إلى بحث، وما تزال هناك جوانب كثيرة لم تظفر بالعناية والبحث.

وإنـى لأرجـو أن يكـون هـذا البحث قد نجح فى دراسة الشعر الصقلى دراسـة منهجـية متأنـية عمـيقة، وأن يكـون قد كشف الضوء عن شعراء صقلية الذين لم يحظوا باهتمام الباحثين المحدثين.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل،

(١) كانت هذه الأعمال مخطوطة أثناء إعداد الكتاب وقد حققت ونشرت فيما بعد.

أولاً: المصادر الخطية:

١- ديوان البلنوبي رواية الفقيه الخريمي، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٤٦٧.

٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الثاني، نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٤٦.

٣- مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة اختيار أبي إسحاق ابن أغلب، نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية نقل من خزانة باريس سنة ١٣٤٤هـ.

٤- معجم السفر لأبي طاهر السلفي، نسخة مصورة رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية[1].

٥- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، الجزء الرابع، مخطوطة رقم ٢٧١٢ تاريخ بدار الكتب المصرية.

(١) طبعت بعض هذه المصادر بعد اعداد الكتاب.

ثانياً : المصادر المطبوعة :

١- ابن حمديس، تأليف على مصطفى المصراتى، ط. دار المعارف بمصر.

٢- ابـن زيـدون، تألـيف د. شـوقى ضـيف، ط. دار المعـارف بمـصر، الطبعة الثانية.

٣- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة، للدكتور أحمد هيكل ط. دار المعارف، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٠م.

٤- الأسـاطيل العـربية فـى البحر الأبيض المتوسط، تأليف إبراهيم العدوى ط. نهضة مصر بالفجالة.

٥- إشـبيلية فـى القـرن الخـامس الهجـرى، للدكـتور صـلاح خالص، ط. دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٥م.

٦- الأمويـون والبيـزنطيون، للدكـتور إبـراهيم العـدوى، ط. مكتـبة الأنجلـو المصرية.

٧- أعمـال الأعلام، للسان الدين بن الخطيب، القسم الثالث، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، ط. الدار البيضاء ١٩٦٦م.

٨- إخـبار العلمـاء بأخـبار الحكماء، تأليف جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى، ط. مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ.

٩- إنـباه الـرواه علـى أنباه النحاه، للقفطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ثلاثة أجزاء، ط. دار الكتب المصرية ١٩٥٠.

١٠- بدائـع الـبدائه، تألـيف علـى بن ظافر الأزدى، ط. دار الطباعة المصرية سنة ١٢٧٨هـ.

١١- بغـية الملـتمس فـى تـاريخ رجـال أهل الأندلس، تأليف أحمد بن يحيى الضبى المتوفى سنة ٥٥٩هـ. ط. مجريط سنة ١٨٨٤.

١٢- بغية الوعاة، تأليف جلال الدين السيوطى، ط. الخانجى.

١٣- بلاغة العرب فى الأندلس، تأليف أحمد ضيف، مطبعة مصر، الطبعة الأولى سنة ١٩٢٤م.

١٤- البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى، مطبعة المناهل بيروت سنة ١٩٥٠م.

١٥- تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) تأليف د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة ببيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١م.

١٦- تاريخ الأدب الأندلسى، تأليف إبراهيم أبو الخشب، ط. دار الفكر العربى بالقاهرة.

١٧- تاريخ الأدب العربى فى صقلية، تأليف أمبرتو ريزيتانو، منشورات الجامعة الأردنية، ط. عمان سنة ١٩٦٥.

١٨- تاريخ جوهر الصقلى، تأليف على إبراهيم حسن، مطبعة حجازى بالقاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٢٣.

١٩- تاريخ العرب السياسى، تأليف فيليب حتى، ترجمة محمد مبروك نافع، ط. مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢.

٢٠- تاريخ قضاة الأندلس، تأليف أبى الحسن بن عبدالله النباهى، نشرة ليفى بروفنسال، ط. دار الكاتب المصرى، القاهرة سنة ١٩٤٨ الطبعة الأولى.

٢١- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تأليف ابن مكى الصقلى تحقيق د.عبدالعزيز مطر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة سنة ١٩٦٦.

٢٢- تراث الإسلام: تأليف جب وآخرين، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٣٦م.

٢٣- تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضى أبى الفضل عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ) تحقيق محمد الطالبى، ط. المطبعة التونسية ١٩٦٨م.

٢٤- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس. تأليف أبى عبدالله محمد بن الكتانى تحقيق د. إحسان عباس. ط. دار الثقافة بيروت.

٢٥- تطور الأدب الحديث فى مصر، للدكتور أحمد هيكل، ط. دار المعارف، سنة ١٩٦٨م.

٢٦- التكملة لكتاب الصلة، تأليف أبى عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى البلنسى المعروف بابن الأبار، ط. مجريط ١٨٨٦م.

٢٧- التنبيه على حدوث التصحيف، تأليف حمزة بن الحسن الأصبهانى، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط. مكتبة النهضة ببغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

٢٨- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، تأليف أبى عبدالله محمد بن فتوح الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨هـ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، ط. مطبعة السعادة بمصر.

٢٩- حضارة الإسلام، تأليف جوستاف جرونيباوم ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة عبدالحميد العبادى، ط. دار مصر للطباعة (مجموعة الألف كتاب).

٣٠- حضارة العرب، تأليف جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٤٨م.

٣١- حلبة الكميت، تأليف شمس الدين محمد بن الحسن النواحى، المتوفى سنة ٨٥٩هـ، ط. بولاق سنة ١٢٧٦هـ.

٣٢- الحلة السيراء، تأليف ابن الآبار. تحقيق د. حسين مؤنس، ط. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣. الجزء الثانى.

٣٣- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى:

أ- القسم الرابع، الجزء الأول، تحقيق عمر الدسوقى وعلى عبدالعظيم، ط. دار نهضة مصر للطباعة والنشر سنة ١٩٦٤م.
ب- قسم شعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين، الجزء الأول، ط. تونس ١٩٧٣م.
جـ- قسم شعراء مصر، تحقيق الدكاترة أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس، الجزء الثانى، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الثانى مادة (بنو الأغلب).
٣٥- دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى، تأليف سعد إسماعيل شلبى، ط. دار نهضة مصر.
٣٦- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، تأليف د. أحمد مختار العبادى، الطبعة الأولى — الإسكندرية ١٩٤٨.
٣٧- ديوان ابن حمديس، تحقيق د. إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٠٦.
٣٨- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تأليف ابن بسام الشنترينى، القسم الرابع الجزء الأول، ط. لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٤٥.
٣٩- رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد المغربى، تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضى، ط. مطابع الأهرام التجارية القاهرة سنة ١٩٧٣.
٤٠- رحلة ابن جبير (فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية) نشر د.حسين نصار، ط. دار مصر للطباعة.
٤١- رحلة الأندلس، تأليف محمد البتنونى، مطبعة الكشكول بالقاهرة ١٩٢٧.
٤٢- رسالة ابن أبى الصلت، نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى، نشر عبدالسلام هارون.

٤٣- رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية، تأليف أبى بكر عبدالله ابن أبى عبد المالكى، نشر حسين مؤنس، ط. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥١.

٤٤- شرح المختار من شعر بشار، تأليف أبى طاهر التجيبى البرقى، ط. لجنة التأليف والترجمة.

٤٥- الشعر الأندلسى (بحث فى تطوره وخصائصه) تأليف إميليو غرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس، ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٢.

٤٦- شعر الطبيعة فى الأدب العربى، تأليف سيد نوفل، ط. مطبعة مصر ١٩٤٥.

٤٧- صورة الأرض، تأليف أبى القاسم بن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٤٨- الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس (تأليف ابن أبى القاسم خلف بن بشكوال، ط. مجريط ١٨٨٣.

٤٩- العبر وديوان المبتدأ والخبر، تألف ابن خلدون، ط. بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ.

٥٠- العرب والروم، تأليف أ.أ. فازيلييف، ترجمة محمد عبدالهادى شعيرة ط. دار الفكر العربى بالقاهرة.

٥١- العرب فى صقلية، تأليف د. إحسان عباس، ط. دار المعارف بمصر.

٥٢- العصر العباسى الثانى، تأليف د. شوقى ضيف، ط. دار المعارف بمصر.

٥٣- عصر القيروان، تأليف أبى القاسم محمد كرو وعبدالله شريط، ط. دار المغرب العربى، تونس ١٩٧٣.

٥٤- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، تأليف د. عبدالمنعم ماجد ط. مكتبة الجامعة العربية، بيروت ١٩٦٦.

٥٥- العمدة فى صناعة الشعر ونقده، تأليف ابن رشيق القيروانى، ط. الخانجى.

٥٦- عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، تأليف الشيخ محمد النيفر المطبعة التونسية، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ.

٥٧- فن الشعر تأليف الدكتور محمد مندور، دار القلم، القاهرة ١٩٦٠.

٥٨- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، تأليف د. شوقى ضيف، ط. دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة.

٥٩- فى الأدب الأندلسى، تأليف جودت الركابى، ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠.

٦٠- قصة الأدب فى الأندلس، تأليف محمد عبدالمنعم خفاجة، منشورات مكتبة المعارف ببيروت، الجزء الثانى.

٦١- الكامل فى التاريخ تأليف عز الدين بن الأثير، ط. دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٦، من الجزء الخامس إلى الجزء العاشر.

٦٢- لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة تأليف عبدالعزيز مطر، ط. الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦.

٦٣- المازرى، تأليف حسن حسنى عبدالوهاب، نوابغ المغرب العربى، ط. دار الكتب الشرقية بتونس.

٦٤- محاضرات جويدى (أربعون محاضرة)، ط. مجلة الجامعة المصرية.

٦٥- المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تأليف على بن يوسف القفطى، تحقيق حسن معمرى، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض، مطبعة المثنى ببيروت ١٩٧٠.

٦٦- مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، تأليف سيد أمير على، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨.

٦٧- المسلمون فى صقلية، تأليف مارتينو ماريو، منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٥٧.

٦٨- المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، تأليف أحمد توفيق المدنى، نشر الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ١٩٦٩.

٦٩- المعجزة العربية، تأليف ماكس فانتاجو، ترجمة رمضان لاوند، بيروت سنة ١٩٥٤.

٧٠- معجم البلدان، تأليف شهاب الدين ياقوت الحموى الرومى البغدادى، ط. ليبزج ١٨٦٩.

٧١- المغرب الكبير، تأليف د. السيد عبدالعزيز سالم، جـ٢، الإسكندرية ١٩٦٦.

٧٢- المكتبة الصقلية، جمع ميشيل آمارى، ط. ليبزج، جزءان.

٧٣- النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف، تأليف عبد العزيز الميمنى الراجكوتى، ط. المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٣هـ.

٧٤- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تأليف أبى عبدالله محمد بن عبدالله الإدريسى، طبع بمدينة روما ١٧٧٨.

٧٥- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تأليف شهاب الدين أحمد ابن محمد المقرى، تحقيق محمد محيى عبدالحميد، ط. مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٩.

٧٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تأليف أبى العباس أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن خلكان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٩٤٨.

ثالثاً: الدوريات :

١- مجلة أبوللو، المجلد الأول، مقال بعنوان (الرقص الأجنبى فى شعر ابن حمديس) للأستاذ أحمد زكى أبو شادى.

٢- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشر أمبرتو ريزيتانو، المجلد الثامن عشر مايو ١٩٥٦.

٣- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مقال لأمبرتو ريزيتانو بعنوان (صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى) المجلد الخامس ١٩٤٩.

٤- مجلة المقتطف، مقال بعنوان (المدينة العربية فى صقلية من سنة ٢١٣هـ ٤٨٤هـ) بقلم الأستاذ أمين الخولى، عدد فبراير ١٩٢٣.

رابعاً : المراجع الأجنبية :

1- History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott Vol. 2. London 1904.

2- La Berberie Musulmana et L'orient au Moyen Age, by Marcais – Paris 1946.

3- Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien, Vol. 2 by Schack.

4- Sicily (Phoenician, Greek and Roman) by Edward Freman London 1926.

5- Stroeia dei Musulmani di Sicilia by Michele Amari. 3 vols. Seconda ediziene, Catania 1939.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث : الشعراء	٢٧٧
الفصل الأول: الشعراء الوافدون	٢٧٩
الفصل الثانى: الشعراء الصقليون	٢٨٩
ابن حمديس	٢٩٤
ابن الخياط	٣٢٥
ابن الطوبى	٣٣٠
أبو العرب	٣٣٤
ابن القطاع	٣٢٩
البلنوبى	٣٤٣
خاتمة البحث ونتائجه	٣٤٧
المصادر والمراجع	٣٥٣

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية